تاريخ الفراعنة
جزء ثان

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والأعلام

اسم الكتاب : تاريخ الفراعنة (جزء ثان)

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : الناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٥٥٨١

الترقيم الدولى
I.S.B.N. : 977 - 037 - 6

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله.

وبعـــد ،،،

هذا الكتاب يشرح بالتفصيل حياة رمسيس الثانى وقبله الملك الفرعونى سيتى، ويتحدث عن تاريخ حياة رمسيس بأدق التفاصيل منذ ولادته وتنصيبه نائباً للملك فى حياة أبيه ثم ارتقائه عرش مصر كملك للبلاد وأحلامه وطموحاته ومشاريعه وحروبه ومعاهدات السلام التى عقدها مع الحيثيين وزواجه وتوثيق صلاته بالحيثيين بعد حروب دامية معهم .

كما يتحدث عن حملاته الحربية وتصديه للغزاة وفتوحاته فى البلاد المجاورة وسائر تفاصيل حياته حتى بلوغه سن التسعين ثم وفاته وما جرى من مراسم دفنه وتشييعه ومقبرته ومعبده .

ثم يتعرض الكتاب لأبى الهول وصوره المختلفة عبر القرون وما قيل عن هذا التمثال الذى يعد مع الأهرام من عجائب الدنيا السبع ، ويتعرض لتفاصيل كثيرة جداً فى شأن أبى الهول .

ثم فى الباب الأخير يتعرض الباب لمسألة أخرى غير مسألة الملوك وحروبهم وطموحاتهم وحياة القصور والأمراء والنبلاء وحكام الأقاليم وغير ذلك من تاريخ علية القوم،

والباب الأخير يتعرض لحياة البيت الفرعونى والشعب المصرى فى عهد الفراعنة وبسطاء الناس وكيف كانت البيوت الفرعونية، وكيف كان يعيش

المصريون البسطاء والموظفون والطلاب والكتاب وغير ذلك من تفاصيل حياة البسطاء من شعب مصر عبر القرون السحيقة .

والتاريخ مدرسة كبيرة نتعلم منها الكثير والكثير ودراسة التاريخ رغم أنها متعة عقلية كبيرة إلا أنها تعتبر أيضا من قبيل النظر فى الأرض وسير أهلها وعاداتهم وتقاليدهم .

المؤلف

طفولة رمسيس الثانى

وبيئته الثقافيــة

العالم السياسى أيام الرعامسة(١)

مدخــــل

كان توت عنخ آتون الصغير السن يملك ولا يحكم، إذ أن السلطة الحقيقية انتقلت إلى أى أكبر أعضاء الأسرة سنا. وبشكل ما تسربت السلطة إلي القائد حور محب. وأعيد الاعتبار للآلهة المصرية الكبرى وتضاءل شأن آتون وانزوى كواحد فى مجمع الآلهة المصرية. وفى السنة الثالثة من حكم الملك الصغير، تغير إسمه من « توت عنخ آتون» أى سعيدة حياة آتون إلى « توت عنخ آمون»، أى سعيدة حياة آمون.

وصدر مرسوم رد للآلهة المصرية ما كان قد اغتصب منها من أوقاف ومخصصات، خصوصا كبير الآلهة آمون.

واستمر الملك فى الحكم تسع سنوات أصبح بعدها فتى يافعا نشيطا. عقدت عليه الآمال لقيادة جيوش مصر لاسترداد مستعمراتها ومكانتها فى الجبهة السورية. ولكن القدر لم يمهله وتوفى بصورة مفاجئة(١).

ولما لم يكن له وريث فقد ترك العرش فارغا، فقررت أرملته القوية الشكيمة عنخ اس أن آمون ألا تدنس عرش الفراعنة بالزواج من رجل من عامة الشعب، فراسلت الامبراطور سوبيلوليوما الحيثى ليرسل أحد أبنائه إلى مصر حتى تتزوجه وتجلسه على عرش مصر .

(١) رمسيس الثانى فرعون المجد والانتصار - كنت - أ - كتش ، ترجمة د/ أحمد زهير أمين . م .الأسرة.

(٢) يرى بعض العلماء أنه مات مقتولا بضربة على الرأس.

وقد عرا ملك الحيثيين الاندهاش من هذا الطلب وقال : «هذا شيء لم يحدث لى قط». وفى غمرة استغرابه لم يسارع بتنفيذه وإنما أرسل أحد جواسيسه للتيقن من جدية العرض. ووجد الجاسوس أن العرض حقيقى، فاطمأن الملك وأرسل أحد أبنائه، لكن الوقت كان قد مضى وضاعت الفرصة. فقد تولى آى شئون جنازة توت عنخ آمون، وأسرع بدفنه فى مقبرة أعدت على عجل فى وادى الملوك بطيبة.

وحسب التقاليد فالذى يدفن الفرعون القديم (أوزيريس) لابد أن يكون الفرعون الجديد (حورس)، وهكذا وصل آى إلى عرش مصر. أما الأمير الحيثى فإنه ما كاد يصل حتى دبر أمر اغتياله بطريقة غامضة.

وكان قتله خطأ فادحا من جانب آى، ذلك بأن الامبراطور الحيثى فى ثورة غضبه الجامح لمقتل ابنه صمم على الانتقام فأغار على ممتلكات مصر السورية بجيش كثيف، ثم عاد إلى بلاده البعيدة غانما محملا بالأسرى والعبيد من المصريين. وتولد بذلك شر كبير بين الدولتين. واستمرت بينهما العداوة ٧٥ عاما ولم تنته إلا فى عهد رمسيس الثانى. كما سوف نرى.

وتغيرت الوجوه فى مصر فى ظرف سنوات قليلة. فقد حكم آى أربع سنوات توفى خلالها سوبيلوليوما تاركا ابنين تولى أصغرهما مورسيل الثانى وواصل عمل أبيه فى قيادة الحملات الموسمية. وفى مصر لم يحسم أمر اعتلاء العرش بسهولة. وكان رجل الساعة فى ذلك الوقت هو قائد الجيوش حور محب، الذى كان فى منصب نائب الملك أيضا طوال مدة حكم آى القصيرة. وبالإضافة إلي ذلك كان متزوجا من إحدى أميرات البيت المالك موت ان وبجمت التى يرجح أنها أخت نفرتيتى- وكانت آخر وريثة حية للعرش تنتمى للأسرة الثامنة عشرة. وبذلك حق لحور محب شرعا أن يصبح فرعونا.

وتقلد المنصب بالفعل بعد دفن آى. وحكم حور محب مصر فترة طويلة قضاها فى اصلاح أحوال مصر الداخلية. وكان همه الأول تقوية مصر والحفاظ على وحدتها. لذلك أصدر مراسيم صارمة لوضع حد للفوضى الإدارية التى استفحل أمرها أثناء حكم اخناتون وانشغاله بعالمه الخاص- عبادة آتون- وكان هذا ما تحتاجه مصر تماما، فترة طويلة من السلام والاصلاح الإدارى والعودة إلى النظام وتحقيق التوازن والأمن والرخاء.

ومع ذلك لم يهمل حور محب أمور الجيش، بل عمل على إعادة تنظيمه وتعبئته، وأثبت جدارته بالقضاء على ثورة قامت فى النوبة. وليس لدينا شك فى أن حور محب وقواده توجهت أنظارهم إلى جبهة سوريا التى عانت كثيرا من الخسائر تحت حكم اخناتون.

لكن حور محب آثر التريث فى ارسال الحملات إلى هذه الجبهة. وعندما واتته الفرصة شن غارة رائعة على طول الساحل شمال سوريا، مستغلا إحى فترات ضعف الحيثيين. وأسفرت هذه الحملة عن ضم أوجاريت للحظيرة المصرية مرة أخرى، إلى حين. ثم أنه تغلغل إلى قرقميش قبل أن يعود إلى مصر وقد ارتاد مناطق لم تطأها قدم فرعون منذ قرن من الزمان، منذ أيام تحتمس الثالث.

وكانت هذه الحملة الناجحة مجرد ومضة أثبتت فيها مصر وجودها فى الساحة، لكنها لم تستثمر حتى النهاية، فلم يتوطد بها احتلال من جديد ولا رفع فيها علم مصر، ولا حتى نوهت فيها مصر عن تمسكها بحقها فى سوريا مستقبلا.

كان حور محب حائزا على كل مقومات الفرعون الناجح. فقد أصلح أحوال البلاد ونشر فيها العدل، ولم يقصر فى أعمال البناء الواسعة فى معابد

أمون وغيره من الآلهة. وفى حروبه القصيرة الأجل أثبت جدارته بالقيادة. وكانت المشكلة الوحيدة التى أهمته هى أنه لم يكن له ولد. ولذلك بدأت مشكلة وراثة العرش تطل برأسها من جديد كلما امتد به العمر.

بعض العقبات العائلية (أمام طموحات الأسرة):

فى سنوات حكم الملك أمنحتب الثالث الشهير، وفى السنوات التى أعقبتها من حكم اخناتون الذى تسبب – على المستوى القومى– فى كوارث سياسية خطيرة، كان سيتى مازال فتيا (سيتى =رجل ست)، وكان فى طريقه إلى النضوج. وكانت عائلته من تقاليدها ربط أسمائهم بالآله ست اله أفاريس بشرق الدلتا– وهى منطلق القوافل إلى أرض كنعان أيام الدولة الوسطى وعصر الكهسوس، وتقع فى إقليم خصب فى «قطاع رع» –

والتحق الفتى سيتى بالجيش ليحقق طموحاته وما يصبو إليه من نجاح ورفعة. ولكن فى ظل حكم فرعون مثل اخناتون كان من المتعذر على فتى طموح مثل سيتى أن يحقق آماله. وكان من المعروف فى ذلك الوقت أن الجيش هو الذى يحقق الآمال –

فبالإضافة إلى أمجاد الغزو والغار كان الجيش معبرا للترقى، والسلك الحربى هو الطريق الموصل إلى السلك الدبلوماسى. وفى السلك الدبلوماسى يكون مبعوثا للملك يطوف الممالك ويشاهد أعظم القصور الملكية الأجنبية الرائعة عند قضائه للمهام الملكية.

ثم أن وظائف السلك الدبلوماسى كانت توفر لشاغلها مزيدا من الترقى فى الوظائف الإدارية العليا بعد ذلك.

مثل هذه الطموحات كانت مستحيلة التحقيق تحت حكم اخناتون. فلم يكن الملك مهتما على الاطلاق بأمور المستعمرات فى سوريا ولا غيرها.

وفى غياب الوجود المصرى اشتبك الحيثيون والميتانيون فى أقصى شمال سوريا، بينما غزا الحيثيون جنوبها. وكل هذه وتلك كانت تحت السيطرة المصرية حتى ذلك الوقت.

والأدهى من كل ذلك أن جيوش مصر لم يسمح لها بالتصرف. وظل الملك سادرا فى عبادة آتون فى مدينته فى صعيد مصر، وهى تبعد ثلاثمائة ميل من الدلتا ومن جيوش الدلتا التى حل بها الاسترخاء والكسل.

ورغم كل هذه العقبات وجد سيتى الفرصة للترقى فى السلك العسكرى حتى أصبح، قائد فصائل» وهو منصب أشد تواضعا من أن يرقى إلى منصب رسول الملك أو غيره من المناصب الإدارية العليا بالدولة.

إنجازات الأســرة :

شهد سيتى تدهور أحوال مصر السياسية وفقدانها لمستعمرة أمورو، ناهيك عن مستعمرة أوجاريت. والأدهى من ذلك فقدانها بدون أن يطلق المصريون طلقة واحدة – ولا حتى صيحة احتجاج – فى وقت قريب من موت اخناتون وتولى سمنخ كارع العرش.

وكان الملك توت عنخ آمون مازال غلاما لم يتعد التاسعة من عمره – لم يتجاوز عمر ابن سيتى الصغير، برعمس، «رع هو الذى سواه». فى ذلك الوقت أخذ شأن القائد حور محب يعلو حتى أصبح نائبا للملك فى عهد آى، ثم فرعونا عقدت عليه البلاد آمالها.

فى ذلك التوقت كان الفتى برعمس قد ناهز العشرين من عمره والتحق مثل أبيه بالسلك العسكرى، فى عهد جديد، عهد حور محب. لكن وظيفة برعمس فى الجيش لم تكن على المستوى الذى كان يرجوه له أبوه. فقد عين أول أمره فى رتبة «قائد فصائل» مثل أبيه، ثم رقى إلى «قائد خيول» فتمهد له الطريق إلى

سلاح العربات الحربية وهو أرقى أسلحة الجيش.

وعندما عين قائدا بالعربات الحربية صار مؤهلا، لحمل الحقيبة الدبلوماسية للفرعون»، فحانت له الفرصة للتنقل بين العواصم المختلفة.

وهذه الوظيفة بالذات هى التى أوصلته إلى ساحة البلاط الرسمى فى منف«، حيث وطد علاقته بالوزراء ثم بالفرعون نفسه.

وكان برعمس من معدن متميز، لابد له فى يوم ما أن ينجح ويتقدم ويحقق آماله العريضة. وبالفعل ظل شأن برعمس يعلو حتى نال رتبة الفريق، أعلى رتب الجيش،

وعين قائد قلعة (قلعة سيلى الحدودية فيما يظن) بالإضافة إلى وظيفة «ناظر منابع النيل». والمهم أن عمله كقائد قلعة سيلى جعله مسئولا عن حماية الحدود مع كنعان وحراسة سواحل الدلتا.

وعندما نضج وتمرس حاز على ثقة حور محب فعينه وزيرا تاليا فى رتبته للملك مباشرة. ولما كان هناك وزيران فى ذلك الوقت فالمرجح أنه كان له زميل، ويبدو أنه قد وقع اختيار الملك على برعمس ليكون وزيرا للجنوب لضمان ولاء طيبة، مدينة آمون.

وكان حور محب قد أحيا سنة أمنحتب الثالث فى بناء المعابد للآلهة، وأضاف إضافات عظيمة لمعابد آمون، لكن سياسته كانت متوازنة فلم يهمل شأن الآلهة الأخرى، خصوصا الالهين رع (فى صورته المحافظة) وبتاح.

وقد حظى برعمس برضا الفرعون لدرجة أنه أضفى عليه اللقب الدينى الشرفى الكبير «رئيس كهنة مصر كلها»، لكنه لم يعينه كبيرا لكهنة أى اله، لا آمون ولا غيره.

وريث العرش :

لم يكن أحد فى ذلك الوقت يطمح فى منصب أكبر من منصب الوزير، ذراع الملك اليمنى. لكن برعمس كان ينتظره ما هو أكبر من منصب الوزير. فعندما جاوز حور محب الستين من عمره رأى أنه من الأوفق تفويض بعض أعماله إلى غيره. وكان دائما يهمه أمر المستقبل. فلم يكن له ولد يرثه، وهو يريد للعرش أن يستقر وألا يحدث مزيد من الهزات فى البلاد.

لذلك كله فكر الفرعون - من بين إجراءات أخرى - فى تعيين نائب له ليعده لاعتلاء العرش بعده. ونظر فى رجاله فلم يتردد فى اختيار رفيق سلاحه ووزيره الخبير برعمس. وسرعان ما جرى اعلان برعمس «نائبا للملك فى الجنوب والشمال»، وهى وظيفة واضح من مسماها أن شاغلها هو ممثل الملك أينما كان.

ثم أعلن بعد ذلك أنه هو - برعمس - «الأمير الوراثى على كل البلاد»، وهى وظيفة تحدد مجال عمله فى المستقبل، أى أنه المرشح الوحيد لوراثة العرش بعد حور محب.

الأمير سيتى وابنه رمسيس فى طفولته :

لا يتطرق الشك إلى أحد فى أن استقامة برعمس، ومقدرته واخلاصه، كانت مؤهلاته للوصول إلى ترشيحه لخلافة حور محب.

وقد أقام برعمس لنفسه تمثالين توأما فى طيبة بمعبد آمون، بإذن من الملك تكريما له. وقد سجل ذلك عليهما : «أقيما بتشريف ملكى». ويبدو أن من بين أسباب ترشيحه للخلافة كونه رجلا له أولاد مما طمأن حور محب على أن الرجل يمكنه أن يكون رأسا لخط ملكى جديد.

وكان لبرعمس ولد نابه إسمه سيتى - تيمنا باسم جده - ربما يكون قد ولد فى أوائل اعتلاء حور محب للعريش، فنشأ لا يعرف سوى حكومة الحزم والسلام التى تميزت بها فترة حكم حور محب.

كان سيتى قد ناهز العشرين من عمره عندما أصبح أبوه وريثا للعرش، وبذلك أحس أن تحقيق آماله قد أصبح وشيكا. وكان قد سمع من أبيه وجده الكثير عن أمجاد مصر السالفة، وكيف تبخرت هذه الأمجاد فى عهد اخناتون، فامتلأ قلب الفتى بالشوق إلي استعادة أمجاد مصر الضائعة، ومحو فترة حكم اخناتون تماما من ذاكرة التاريخ.

وكمثل من سبقوه من العائلة التحق بالسلك العسكرى وهو على وعى تام بأن السلاح هو الوسيلة الفعالة لاستخلاص ما فى أيدى الحيثيين من مستعمرات مصر فى سوريا. وكانوا قد استولوا عليها فى فترة كانت مصر فيها قد أصابها الوهن.

تزوج سيتى فى شبابه من فتاة من نفس مستواه الاجتماعى تسمى تويا، وهى ابنة قائد كبير بسلاح العربات الحربية يسمى رايا. وكانت أمها من فضليات النساء واسمها رويا.

وبدأ الزوجان الشابان فى تكوين عائلتهما المستقلة. وتوفى أول أولادهما وهو طفل، ثم أنجبا ابنتهما ثيا وبعد فترة انجبا ولدا ثانيا سمى على اسم جده رعمس أو رمسيس، هو الذى سيصبح فيما بعد رمسيس الثانى بطل هذه السيرة. وأخيرا أنجبا ابنة سمياها حنت مى رع. لذلك فيما يبدو اطمأن حور محب على استقرار الحكم واستمراره،

فقد أصبح برعمس جدا فى حياة حور محب وأصبحت الأسرة الحاكمة الجديدة أمرا واقعا.

الخط الملكى الجديد

رمسيس الأول (١٢٩٥ - ١٢٩٤ ق.م):

بعد عمر طويل حافل، مات حور محب معززا مكرما ممجدا، ودفن في مقبرته الفخمة ذات الزخارف الفاخرة، المخبوءة فى وادى الملوك، وكان كما رأينا قد خطط لهذا اليوم باشراك برعمس فى السلطة على أعلى مستوى، فهو نائب الملك وهو الوريث الملكى، لذلك اعتلى برعمس العرش بهدوء تحت اسم رمسيس الأول، رجل ذو حيوية ونشاط فى الخمسينيات من عمره.

وكان الفرعون الجديد مدركا تماما أن عهده هو بداية لحقبة جديدة في تاريخ مصر. ولم تكن له أية روابط شخصية بالأسرة المالكة القديمة - الأسرة الثامنة عشرة - على عكس حور محب،. لكن هذه الأسرة اللامعة فى تاريخ مصر كان لها من جلائل الأعمال فى السلم والحرب ما يجعلها مثالا يحتذى.

لذلك نظر الملك الجديد فى ترسم خطاها وهو يضع مشاريعه المستقبلية. وعاد رمسيس الأول بذاكرته إلى بداية هذه الأسرة، فوجد أن مجد مصر قد تحقق على يدى أحمس الأول- قاهر الهكسوس ومؤسس الامبراطورية فاتخذه مثله الأعلى وتشبه به واعتبر نفسه هو أحمس الثانى الذى تبدأ به أسرة جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة.

واتخذ لنفسه ألقابا مستوحاة من ألقاب مثله الأعلى. فكما اتخذ أحمس الأول اسما ملكيا هو «نب بحتى رع» وإله القوة هو رع» سمى رمسيس نفسه «من بحتى رع » «دوام القوة هو رع» ، وسجل إسمه بأسلوب بسيط خال من الطنين متأسيا بأحمس الأول، وهو أسلوب يتعارض مع ما جرى عليه الفراعنة الآخرون منذ قرنين من الزمان. وحتى فى الألقاب تشبه رمسيس الأول ببطله أحمس الأول.

فكما تلقب أحمس الأول فى صورته الحورسية (الملك الصقر) بلقب «ملك الملوك»، اتخذ رمسيس الأول لنفسه لقبا قريبا منه هو «المترفل فى الملك» وأضاف إليه اللقب الجليل «الثور القوى». وبصفته الحامى لربتى الجنوب والشمال، ربط نفسه بالشكل القديم لاله الشمس رع واتخذ أيضا لقب «مظهره فى الملك مثل أتوم». وبصفته «القصر الذهبى» أعلن هدفه وهو «تحقيق العدل فى القطرين».

وفى طيبة، خطط الملك - وابنه النشط- لإنشاء أثر كبير يكون مظهرا رسميا لتقدير الأسرة الجديدة لآمون واهب النصر. ونظرا فى الأمر، فوجدا فناء واسعا له بوابة مستقلة بناها حور محب أمام بوابة الكرنك الأمامية التى هى من انشاءات أمنحتب الثالث، فخطط رمسيس الأول مع ابنه سيتى لتنفيذ مشروع كبير يتلخص فى تحويل هذه الساحة إلى بهو أساطين ضخم يكون أكبر بهو من نوعه فى مصر - تكريما للاله الامبراطورى آمون -

واحتوت الخطة على أعمال فرعية هامة لتجميل البهو، منها محو زخارف الواجهة الخلفية للبوابة الجديدة التى بنيت فى عهد حور محب وزخرفتها بزخارف جديدة.

وشرع البناؤون فى بناء الأساطين الضخمة والجدران حول البهو وأزالوا الصور البديعة التى كانت موجودة فى عهد حور محب. ثم ملأوا البهو الجديد بالتراب لتسهيل العمل، بدلا من السقالات كسبا للوقت، حتى وصل علو التراب إلى قرب القمة حتى يتمكنوا من بناء السقف.

وبعد ذلك أخذ الفنانون فى زخرفة الجدران والأساطين، فرسموا وحفروا وصوروا مشاهد الملك والآلهة بادئين من أعلى ومتجهين إلى أسفل كلما أزيل جزء من التراب الواصل إلى السقف. أما باقى التفصيلات فقد استخدموا لتنفيذها السقالات العادية الخشبية.

وفى النهاية سجلوا اسم صاحب البوابة الجديد بحفر أسماء رمسيس الأول بمنتهى البساطة فوق أسماء حور محب الذى كانت معالم مشروعه الأصلى قد زالت بالفعل.

وفى هذه الأثناء أبحر الملك وولى عهده راجعين إلى منف. ومن منف توجه الأمير سيتى إلى معسكرات الجيش بالدلتا حيث شاهد التدريبات، وقام حسب الرواية : بتعبئة الجيش وتوحيد هدفه.

وكان الأمير سيتى دائما هو ساعد الملك الأيمن فى المجال التنفيذى ومما قاله سيتى عن نفسه وعن أبيه : «بينما كان هو بعينه بهاء رع، كنت أنا كالنجم بجواره». ومما قام به سيتى فى المجال التنفيذى شن غارة – بالجيش الذى أعيد تنظيمه وتدريبه وتوعيته – داخل كنعان، وربما توغلت حتى فينيقيا الجنوبية، وهى غارة كان هدفها جس النبض ورفع علم مصر فى هذه البقاع. وتحدث سيتى عن هذه الغارة: لقد أخضعت له أراضى الفنخو . وطردت من أجله (رمسيس الأول طبعا) الدخلاء من أرض الصحراء، لكى أحمى مصر.. من أجله وحسب رغبته».

وفى الجبهة المقابلة من الامبراطورية – جبهة النوبة – اتسمت الإجراءات بالسلمية. فخصص رمسيس الأول فى السنة الثانية من حكمه أوقافا جديدة لمعبد بوهن أسفل الشلال الثانى منها: أرغفة خبز –كعك– جعة – خضروات، من أجل الاله مين آمون وكهنته، «مع ملء الورش بالعبيد – رجالا ونساء – من الغنائم التى غنمها جلالاته»

ولا نشك فى أن هؤلاء العبيد هم أسرى كنعانيون[1] ممن ساقهم ولى العهد سيتى إلى مصر بعد حملته الصيفية هناك.

---

(١) الفلسطينيون .

كان هذا المرسوم هو آخر أعمال رمسيس الأول العامة. بعد ذلك أخذت حالته الصحية فى التدهور، فأشرك ابنه معه فى الحكم، ليعتاد الناس عليه ويحظى بالشعبية المطلوبة باعتباره الملك الآتى. كذلك أخذ فى إقامة تمثال له فى معبد منتو مدينة مادو (المدمور الحالية) شمالى طيبة مباشرة، كتب حول قاعدته الألقاب المقابلة للملك وابنه معا : رمسيس الأول «شبيه رع» وسيتى «نجم الأرض». وانحل هذا الرباط سريعا، فسرعان ما مات رمسيس الأول تاركا الملك لابنه الذى حاز لقب «شبيه رع عند الشروق» وغير اسمه إلى سيتى الأول. وبسرعة عدل اسم الملك الراحل حول قاعدة تمثال المدمود إلى اسم الملك الجديد، إذ رئى أنه من الضرورى أن يمثل التمثال الملك الجديد أمام إله المعبد.

وخلال فترة السبعين يوما التقليدية اللازمة لتحنيط الفرعون، وكان العمل يجرى على قدم وساق فى وادى الملوك لإعداد المقبرة. وكان رمسيس الأول قد أمر بنحت ردهة مقبرية مستطيل عميقة فى الصخور هناك أسوة بأسلافه. ولكن وفاته المفاجئة بعد ستة عشر شهرا فقط من توليه العرش لم تكن كافية للفراغ من إعداد المقبرة، فكان كل ما تم عمله هو إنشاء درجين شديدى الانحدار وردهة مؤدية إلى غرفة فرعية، وحتى هذه الأخيرة لم تكن جاهزة.

وباقى التصميم لم يكن قد خرج بعد إلى حيز التنفيذ. لذلك عدل المشروع الأصلى بتحويل الغرفة الفرعية إلى غرفة دفن، وفتحت من الغرفة على عجل منافذ إلى غرف جانبية خاصة بحفظ المتاع الجنازى للملك الميت.

وبسرعة جرى تنعيم الجدران وتبطينها ودهانها ثم زخرفتها بمشاهد للملك والآلهة، ومقتبسات من الكتب الجنازية نقشت على وجه السرعة إذ لم يسمح ضيق الوقت بعمل النقوش البارزة الرقيقة المنخفضة.

وفى أسرع وقت رسمت النقوش المختارة على التابوت الحجرى الخارجى

– وهو من الجرانيت الأحمر ولم يكن جاهزا بعد– باللون الأصفر (لا الحفر)، ثم وضع فى حجرة الدفن المعدلة استعدادا لاستقبال جثة الملك الراحل.

وأخيرا حان وقت تشييع جنازة الملك الراحل – رأس الأسرة الجديدة – إلى مثواه الأخيرة فى طيبة، ليرقد على بعد مئات قليلة من الياردات عن مثوى رئيسه السابق وصديقه حور محب. وأصبح سيتى هو الفرعون الجديد، رجل ذو حيوية متدفقة فى الثلاثينيات من عمره. وفى نفس الوقت – حسب الأعراف الجارية – صار رمسيس الصغير وريثا للعرش وهو بعد فى الثامنة أو التاسعة من عمره.

وكعادة الفراعنة فى ذلك الوقت لم يبرح سيتى الأول طيبة قبل أن يختار موضع مقبرته، فاختار لها مكانا مناسبا بوادى الملوك على مسافة من مقبرة أبيه. وأمر الملك قبل مغادرته طيبة باستكمال الإنشاءات بمعبد الكرنك.

ولما وجد أن النقوش البارزة فى بهو الأساطين لم ينفذ منها إلا القليل أمر بتنفيذها بأقصى سرعة، لذلك بدت عليها آثار العجلة والتسرع، فكانت النقوش الناتجة فقيرة خشنة تفتقر إلى السمو والجمال.

سيتى الأول (١٢٩٤- ١٢٧٩ق.م):

انفرد سيتى الأول بالسلطة، وما أن أصبح المتصرف الأوحد فى شئون مصر حتى أحس أنه قد آن الأوان لتحقيق هدفه، وكان هدفا مزدوجا : أن يكون تحتمس الثالث الجديد فى فتوحاته وانتصاراته، وأن يكون أمنحتب الثالث الآخر فى إنشاءاته وعمائره.

وبدأ باختيار إسمه الملكى، فاختار بصفته سيد القطرين اسما ملكيا مقتديا بأبيه هو «من ما عت رع» «الفاعل للصواب هو رع» فجمع فى إسمه شطرا من اسم تحتمس الثالث (من خير رع) مع شطر من اسم أمنحتب

الثالث لم يستخدمهما أحد بعده حتى زمن سيتى هما : «وريث رع» و«صورة رع» . ولم يكتف بهذا بل أضاف لإسمه الشخصى – سيتى – صفة مرتبطة بالآله بتاح هى «محبوب بتاح»، مما يدل على ميله إلى منف والهها أكثر من ميله إلى آمون ومدينته طيبة. وكصورة من صور حورس الصقر اكتسب صفة «الثور القوى المتجلى فى طيبة» مقلدا فى ذلك تحتمس الثالث مع إضافة «مغذى القطرين». ثم المحمى من ربتى الجنوب والشمال، وتلقب سيتى أيضا بلقب «محقق النهضة، ذى السلاح القاهر، هازم الأعدا».

وأما حورس الذهبى فهو «متكرر المظاهر، قوى الأقواس فى القطرين». كل هذه الألقاب لم تكن بلا مغزى. فأسلوبه فى اختيار أسمائه الرسمية وألقابه – المقتبس من سيرة عظام فراعنة الأسرة الثامنة عشرة – يحدد ويعلن أن سياسته هى تجديد الحياة فى مصر بكل الوسائل، بما فيها قوة السلاح.

بعد الفراغ من دفن أبيه، واطمئنانه إلى استقرار الأمور، بادر سيتى الأول بالوفاء بالشطر الأول من هدفه المزدوج : استعادة سوريا بالكامل وضمها للامبراطورية المصرية، وبذلك يستحيل على الحكام التوابع معاودة اللعب بالنار حسب أهوائهم.

ومهما كان الهدف صعبا فقد كانت نية سيتى الأول قد استقرت على تحقيقه، وسوف تنبئنا الحوادث عن مدى نجاحه فى ذلك. وكان حكام كنعان المحليون فى ذلك الوقت غير عابئين بأوامر الفرعون، وغارقين إلى ذقونهم فى نزاعاتهم الداخلية، وعلى حد أحد تعبيرات العصر كان « كل منهم يقتل قرينه».

أما أوامر الفرعون فلم يكن يعبأ بها أحد. ورأى الفرعون ضرورة تلقينهم درسا قاسيا لا ينسى، على أن يكون مباغتا وسريعا. وهذا ما سجله الملك فى نقوشه الحربية على جدران البهو الكبير بالكرنك بطيبة، بأسلوب اتسم بالقسوة المذهلة :

«السنة الأولى . نهضة الملك (من - ماعت - رع) (سيتى الأول)، الفياض بالحياة. احيط جلالته (علما) بما يلى : الشوسو - البدو الأعدء - يخططون للثورة. وقد اتحد شيوخ قبائلهم، واتخذوا مواقعهم على تلال خورو (فلسطين). (وهناك) قاموا بالتحريض على الفوضى والشغب، كل يقتل قرينه، انهم يتجاهلون أوامر القصر.

وقد سر الخبر الملك. والآن قرر الآله الطيب (الفرعون) بدء المعركة، ويسره أن يخوض غمارها (بنفسه)، فقلبه يفرح عند مشاهدة الدماء. وسوف يقطع رءوس الخارجين. فالقضاء على العصاة أحب إليه من يوم الفرح. وسوف يذبحهم جلالته بضربة واحدة، ولن يدع لهم وريثا، ومن يفلت منهم من بين يديه فسوف يساق إلى مصر أسيرا».

لقد اختارت قبائل الشوسو - بغباء - وقتا غير مناسب للتمرد أمام ملك كان يتحرق شوقا للدخول معهم فى معركة يشتت بها شملهم.

ومن ثم فى العام الأول تحرك سيتى الأول بجيشه فى صيف ١٢٩٤ قبل الميلاد، من حصن سيلى الحدودى، واندفع عبر ساحل سيناء نحو كنعان، قاضيا فى طريقه على أية مقاومة محلية حول الآبار أو فى القرى الصغيرة، حتى دخل غزة، العاصمة الإدارية لكنعان المصرية، بعد أن ألحق الهزيمة بقبائل الشوسو بالقرب منها.

ولم يشهد رمسيس هذه الحملة على أرجح الفروض، فلم تكن سنه تسمح بذلك. وكانت عدة جيوش سيتى الأول فى هذه الغزوة ثلاثة فيالق على الأقل، سمى كل منها باسم أحد آلهة الامبراطورية. بعد ذلك واصل الملك حملته شمالا ليحكم قبضته على كنعان، وربما يكون قد قصد مجدو حيث انتظر حتى وصلت إليه التقارير المهمة.

وقد سجل الملك فى نقش حفره بعد الحملة :

«فى هذا اليوم أخطر جلالته بالتقرير التالى : العدو الخسيس الذى خرج من مدينة حمص جمع جيشا كثيفا، واستولى على مدينة بيت شان. وتحالف مع أهل باحيل فتمكن من وقف رئيس رحوب عن التدخل».

معنى هذا التقارير ببساطة أن أحد الزعماء المعادين وأعوانه استولوا على مركز حراسة مصرى، وحاصروا مركزا آخر. وكان رد الفرعون على ذلك سريعا :

«لذلك : وجه جلالته فرقة آمون الأولى، ذات الأقواس الجبارة، إلى مدينة حمص، وفرقة رع الأولى، الفائقة البسالة، نحو المدينة المحتلة بيت شان، وفرقة ست الأولى، القوى الأقواس، لمقاتلة مدينة ينعوم. وفى مدى يوم واحد، خضعت كلها لسلطان جلالته !!».

بهذا تكون مدن سهل اسدرايلون ووادى شمال الأردن قد أخضعوا، ووجهت ضربة وقائية لينعوم لكف أى تدخل محتمل من جنوب الجليل. وبهذه المناسبة أقيم فى بيت شان نصب تذكارى، منه اقتبسنا العبارات السالفة. بعد هذه المعارك الثلاث الحاسمة، يظن أن سيتى الأول واصل تقدمه لاحتلال الجليل وساحل فينيقيا(١) الجنوبى، وربما يكون قد وصل إلى صور قبل عودته الظافرة إلى مصر وفى اعتقاده أنه حقق السلام فى كنعان(٢).

ولدى عودته الظافرة إلى حصن سيلى الحدودى غير الملك الطريق، وعبر الجسر فى موكب النصر، ليعطى الفرصة لكبار موظفى الإقليم كى يحيوه وينبئوه بالنصر، وفى أيديهم باقات الورود. وكانت هذه مجرد بداية.

(١) فينقيا : لبنان الآن .

(٢) كنعان : فلسطين.

فقد رؤى الملك فى كنعان مرة أخرى فى السنتين أو الثلاث التالية متوغلات شمالا على ساحل فينيقيا الشمالى وإلى الداخل. وبذلك أخضع ينعوم فى شمال كنعان تماما وفرغ من أمرها. ومرة أخرى سجلت الانتصارات على نصب بيت شان تشرح كيفية قمع الاضطرابات فى الجليل :

« أخطر جلالته بأن الخابيرو فى جبل اليرموك مع (قبيلة) التاياور قد ثاروا وهاجموا الآسيويين فى رحمة (مدينة). فأمر جلالته بتخصيص فصيلة من المشاة والعربات – من جيشه العرمرم– كى تتوجه إلى جاهى. وبعد مناوشات لم تتجاوز يومين عادوا سالمين من منطقة اليرموك ومعهم الغنائم... والأسرى».

تحقيق الهدف من الحملات :

توغل سيتى الأول شمالا داخل سوريا واسترد مقاطعة أوبى الواقعة جنوب سوريا، وثبت الحكم المصرى فى عاصمتها الإدارية كوميدى ، كما توغل شرق جبال لبنان حتى دمشق الفيحاء. ولدى عودته الظافرة من دمشق إلى بيت شان شيد نصبا تذكاريا آخر تخليدا لانتصاره، أقامه فى تلك الشهاب جنوب غرب عشتروت– هرنابيم القديمة.

وبذلك صار الساحل الفينيقى كله آمنا، وفيه صور وصيدا وجبيل وسامراء، تلك المرافئ البحرية التى كانت فى يوم ما تحت السيادة المصرية.

وأصبح بالإمكان مرة أخرى تصدير خشب الأرز الثمين إلى مصر، لصنع «مركب آمون العظيمة، ومن أجل بيارق آمون» حسب نقوش موجودة بالكرنك.

وكما عودنا سيتى الأول، سجل لدى مروره على صور فى طريق عودته نقشا آخر يمجد فيه انتصاره، ويفخر فيه باخماد القلاقل وفرض الجزية على مرتكبيها.

لقد حقق سيتى الأول فى حملتين أو ثلاث على الأكثر كما هو واضح انتصارات كثيرة . فأعاد سيطرة مصر على مستعمراتها السابقة في كنعان وأوبى، ودعم حقوق مصر فى نصف الساحل الجنوبى لفينيقيا، وباستيلائه على هذا الساحل اقتطع مقاطعة أمورو من أيدى الحيثيين- فيما عدا الجزء الشمالى الأقصى، وأصبحت مستعمرات سيتى ملاصقة للأراضى الخاضعة لنفوذ الحيثيين. وأصبح من المحتم أن تصطدم القوتان الكبريان.

وفى حملتيه الثالثة والرابعة التحم سيتى الأول فى معارك مع الحيثيين للسيطرة على جنوب فينيقيا، وكذلك لامتلاك إقليم أمورو. لكن هذا الموقف كان أكثر صعوبة من كل ما سبق. فحتى الآن كان سيتى الأول يحتذى مثال سلفه العظيم تحتمس الثالث: السيادة على كنعان، ثم السيطرة على مرافئ الساحل الفينيقى الكبرى، وانتظار الفرصة المناسبة للوثوب على قلب وشمال سوريا . لكن الحيثيين كانوا أيام سيتى الأول قد سيطروا على هذه المناطق الشمالية. وكانت الامبراطورية الحيثية فى ذلك الوقت قد أصبحت قوة رهيبة، أقوى بكثير من مملكة ميتانى المهتزة التى كانت موجودة فى عصر تحتمس الثالث. وحتى قبل شروعه فى حسم هذا الموضوع برزت إلى السطح -فى أماكن أخرى- مشاكل احتاجت لتوجيه الجهود إليها.

الأمير رمسيس ومبدأ عهده بالحروب :

عندما بلغ الأمير رمسيس العاشرة من عمره منح باعتباره «أكبر أبناء الملك رمسيس» اللقب الفخرى الضخم «القائد العام للقوات المسلحة»، وهو منصب بلا سلطات فعلية. ومع ذلك ظل رمسيس يفاخر بهذا اللقب طوال عمره، وكان على كبار موظفيه فى مستقبل الأيام أن يتذكروا ذلك جيدا . ولم يشترك الأمير فى غزوات أبيه لكنعان وظل آمنا فى الوطن لا يبارحه. فقد كان أبوه

حريصا جدا على سلامته. فلما شب الأمير واشتد عوده بدأت مخاوف أبيه تتبدد، وبدأ يعده للمستقبل ومنحه اللقب العظيم «ابن الملك الأكبر» ونائبه على عرش جب» وهو لقب يعنى صراحة أن الأمير قد أصبح الوريث الملكى.

فى السنة الرابعة أو الخامسة من حكم سيتى الأول أخذت الاضطرابات تشتعل فى المناطق السورية، وكان من المفروض أن توجه الجهود لقمعها، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان. فقد وردت أنباء بحدوث قلاقل فى ليبيا، فى أقصى الحدود الشمالية للدلتا.

وفوجئ سيتى الأول بذلك فرأي أنه من الأحكم تأمين الدلتا الواقعة فى صلب مصر قبل التفكير فى أى شىء آخر. وفى هذه الحملة على حدود الوطن سمح للأمير – وكان قد ناهز الرابعة عشرة من عمره تقريبا– أن يرافق الحملة وينال شرف الحرب والنصر.

وكانت الحملة موفقة وقصيرة لم يسمح فيها للأمير بالاقتراب كثيرا من الخطوط الأمامية، لكنها كانت مجرد بداية. وقد دلت نقوش هذه المعركة التى سجلت فى الكرنك على ضآلة دور الأمير فيها، لدرجة أن صورته لم تظهر فى التصميم الأصلى للمشاهد. ولكن سرعان ما أبرز بتكوينه الضئيل فى أحد المشاهد – يظهر أنه حشر فيه حشرا– ويبدو فيه كما لو كان «يساعد» أباه فى قتل أحد القواد الليبيين.

والآن وقد اطمأن سيتى الأول من جهة الغرب، فقد أمكن له أن يعود إلى الجبهة السورية فى السنة التالية (الخامسة أو السادسة) ليواجه الحيثيين. فى ذلك الوقت كانت مدينة قادش المحورية، فى وسط سوريا، قد خرجت عن طاعة الفراعنة منذ قرن تقريبا. فحدد سيتى هدفه وهو «قهر أرض قادش وأرض أمورو». وخط سير هذه الحملة ليس معروفا بالضبط، وإن كان من المرجح أنه

اتبع طريق تحتمس الثالث فنقل جيشه بحرا إلى فينيقيا ثم هاجم أمورو ليشل حركتها ولو مؤقتا، ثم انحرف إلى الداخل وهاجم قادش نفسها. وخلد سيتى الأول هذا الحدث التاريخى بإقامة نصب تذكارى فى قلب قادش نفسها كرسه للآلهة آمون وست ومنتو.

وللمرة الثانية نجد الأمير رمسيس يرافق أباه، ويشارك فى أحداث هذه الحملة المثيرة بنفسه - وهى أيام مجيدة بدا فيها وكأنما استعادت مصر كل مستعمراتها القديمة. ولكن الامبراطور الحيثى الجديد مواتاليس كان أيضا شابا فتيا، نشطا قويا، شديد المراس، فرفض رفضا باتا التنازل عن أى أرض كانت تحت سلطان أبيه أو جده، وأصر على استعادة قادش وأمورو وأعادتهما للحظيرة الحيثية.

وجرت بين الجانبين مفاوضات انتهت إلى الأخذ بسياسة الأمر الواقع، ووقعت بين الطرفين معاهدة فحواها : أن تعترف امبراطورية خيتا بحقوق مصر المشروعة وسيادتها على مرافئ جنوب فينيقيا، وفى المقابل تكف مصر عن التحرش بقادش وأمورو والمطالبة بهما. ورغم أن توقيع معاهدة بهذا الصدد أمر لابد منه، إلا أنه لم يشر إلى ذلك فى مصر بصورة مباشرة.

وبانتهاء السنة السادسة من حكم سيتى الأول يكون حساب مكاسبه قد أربى كثيرا على حساب خسائره. فقد رفع اسم مصر فى الخارج، واسترد لمصر بعض ممتلكاتها، وكان يمكنه - إذا رغب - مواصلة انتصاراته. لكنه رأى أن ما حققه من انتصارات قد أدى الغرض. هذا بالإضافة إلى أن مجابهة جيوش الحيثيين الكثيفة ليس لها أى داع.

أما الفتى رمسيس الثانى فيبدو أنه لم يستسغ ما فعله أبوه، وأصابته غصة من تخلى مصر عن حقوقها فى قادش وأمورو، إذ شارك بنفسه فى

غزوهما، واستمتع مع أبيه باستعادة جزء مما فرط فيه اخناتون من امبراطورية تحتمس الثالث الشاسعة. ولعله أسرها فى نفسه، وفكر أنه فيما لو كان مكان أبيه لفعل خيرا من ذلك. وسوف يظهر فيما بعد مدى تاثير هذا الموقف على تصرفاته بعد توليه حكم مصر.

أعمال السلم :

كل غزوات سيتى الأول وحملاته كانت ذات طبيعة موسمية، وكلها صيفية. ولم تكن أية حملة تستغرق وقتا يزيد على ثلاثة أشهر، وبعضها لم يتجاوز آسابيع قليلة. وأما باقى أيام السنة فكان الملك يقضيها فى مصر لتصريف شئونها الداخلية والاحتفال بأعياد الآلهة الكبار وأهمها عيد آمون الكبير فى طيبة أيام الشتاء الدافىء هناك، حيث يمضى جانبا من وقته فى جو مشمس دافىء بعيدا عن برد الدلتا.

وفيما عدا ذلك كان يمضى قدما فى تحقيق الشق الثانى من مخططه، الإنشاءات المعمارية العظيمة، التى تضاهى مبانى سلفه العظيم أمنحتب الثالث. ووجه إهتمامه نحو البهو المعمد الكبير بالكرنك، فشرع فى زخرفة نصفه الشمالى. واشتملت زخارفه الداخلية على مشاهد بالنقش البارز المنخفض الجميل موضوعها الطقوس المعبدية ومراكب احتفالات الاله آمون العظيمة.

أما من الخارج فقد زخرفت جدران هذا الجزء من البهو بست مجاميع من المشاهد بالنقش البارز موضوعها معارك الملك. وهى أشبه بالبانوراما أو الفيلم السينمائى، وكلها مستوحاة من معارك الملك فى كنعان وسوريا وليبيا، أساسها نقوش بارزة فارهة لانتصارات سيتى الأول وهو واقف أمام آمون.

فى هذه الأثناء كانت أعمال البناء جارية فى معبده الجنازى على البر الغربى، وزخارفه تنقش بنفس الأسلوب الرشيق. أما عمال دير المدينة فكانوا

يجتهدون في نحت حجرة دفنه في وادي الملوك على عمق كبير في قلب الجبل الصحراوي.

أما في مدينة أبيدوس المقدسة فكان العمل يجري على قدم وساق في بناء هيكل لعبادة أوزيريس وآلهة الامبراطورية بالحجر الجيري الأبيض النقي الأفخم من نوعه في هذا المعبد الرحب الجميل، المزخرف بنقوش بارزة نفذها كبار فناني العصر على أكمل وجه، ولونوها بألوان زاهية تبرز كثيرا من العمائر السابقة، وكان لنقاء حجر البناء الجيري الأبيض أكبر الفضل في هذا التشطيب المتقن.

وفي القطر الشمالي بدأت الأعمال الإنشائية الجديدة بمعابد رع اله الشمس في هليوبوليس. وأخيرا نظر إلى موطنه الأصلي شرق الدلتا فابتنى فيه لنفسه قصرا صيفيا رائعا طليت غرفه بالجص الأبيض المشرق تتلألأ أسافلها وأبوابها بكسوة من القراميد المزججة المعروفة باللونين الأزرق والأبيض.

وبذلك وفى سيتي الأول في السلم بما عاهد نفسه عليه. فحقق ذلك الرجل الذي لم يكن يعترف بأنصاف الحلول هدفه ذا الشقين: نجاح في الحرب، نجاح في السلم. وبذلك حقق من جلائل الأعمال ما يجعله في مصاف أعظم الفراعنة – كبطل حربي . وكنصير للآلهة كي يباركوه، وكي تقدره مصر وشعبها .

ولم ينس الملك – في خضم هذه الأحداث – رجاله المخلصين. كذلك وهو الفرعون الذي أتى من وسط الشعب، فإنه لم ينس أصله وظل وفيا لشعبه. ففي السنة السادسة من حكمه كان العمل يجري بلا كلل في المحاجر لتوفير متطلبات المنشآت الملكية، وكان سيتي الأول وراءهم يشد أزرهم ويسخو على معاونيه ومن معهم من عمال. وقد خلد ذكرهم في حفر في محجر السلسلة في هذه السنة يقول :

«كان جلالته فى المدينة الجنوبية (طيبة) يفعل ما يسر أباه آمون – رع ، ويوزع المغانم بعناية على الآلهة المصرية. لذلك أرسل جلالته صباح اليوم التالى رسولا على رأس حملة من ألف رجل من الجيش على مراكب ببحارتها، لنقل الآثار المصنوعة من الحجر الرملى لأبيه آمون – رع ولأوزيريس ومجمع الآلهة.

والآن زاد جلالته فى حصص القوة العسكرية ، من الدهن، ولحم البقر، والسمك، والخضروات الكثيرة بلا حساب، فأصبح نصيب كل منهم أربعة أرطال من الخبز، وكل يوم حزمة من الخضروات ونصيبا من اللحم المشوى، وغرارتين من الحبوب كل شهر.

وقد عملوا لجلالته (بكل اخلاص) وقلوبهم مليئة بحبه – وكانت أفكاره تعجب من رافق رسول الملك. فكل منهم كان لديه : أحسن الخبز، واللحم البقرى، والنبيذ، والزيوت، ونبيذ الرمان، وعسل النحل، والجميز، والعنب، والسمك، والخضروات، متوفرة كل يوم. وكذلك كانت باقة من الورد الكبيرة تهدى من جلالته إلى معبد سوبك اله السلسلة كل يوم (تحية له). كذلك كانت تخرج ست غرارات من الحبوب من مخازن الغلال لتوزع على النوتية الذين يحملون جند جلالته (على المراكب)».

هذا الكرم والإغداق على عمال المحاجر والقوة المخصصة للنقل، كان له أثره فى قيامهم بالعمل بهمة لا تعرف الكلل. وكانت المعابد العظيمة فى طيبة ترتفع فى البنيان بدون تراخ أولا بأول كلما غمرتها سيول المراكب بالحجارة الصلبة التى ترميها فى مواقع البناء.

الأمير رمسيس

نائبا للملك

تتويج رمسيس : الملك الطفل :

حوالى السنة السابعة من حكم سيتى الأول، كان الأمير رمسيس قد أصبح فى سن المراهقة - فتى فى حوالى السادسة عشرة من العمر. وفى هذه السن كانت التقاليد تقضى بأن يبدأ فى التدريب على مهام الملك : يشترك فى الحروب الخارجية، ويقوم بمهام تفتيشية، حيث يصعد فى النيل ثم يرجع ليطلع على سير الأعمال الإدارية والإنشائية.. الخ. والمرجح أن طبيعة هذه المهام كانت تدريبية تثقيفية في مرافقة أبيه غالبا.

وأدرك سيتى الأول ضرورة أخذ رمسيس بالحزم والجدية ليصبح صالحا لتولى الحكم بعده. فالأسرة الملكية أسرة جديدة ولابد من عدم ترك الأمور تسير على هواها، ولابد من إزالة أية بادرة من شك فى استمرار الأسرة. وفى يوم ما كان الملك موجودا وفى حضرته كبار رجال الدولة أمام جمهور كبير، فنادى بابنه نائبا للملك، وأضفى عليه كل مظاهر الملكية. وكانت هذه المظاهر فى الواقع شرفية أكثر منها فعلية لكن لها مغزاها الذى لابد قد فهمه الحضور. وما دام الأمير لم يصبح ملكا مشاركا بعد فقد كان هذا هو أقصى ما يمكنه الوصول إليه من سلطة وفى خطاب له ألقاه بعد سنوات من انفراده بالحكم أشار رمسيس إلى هذا الإجراء الغامض :

«عندما ظهر أبى للجمهور، وكنت حينئذ فتى يافعا تحت رعايته، تحدث عني :

«اجعلوه يبدو ملكا حتى أشاهد جماله وأنا ما زلت حيا!» لذلك أمر من

حضر من أمناء الديوان الملكى، ليضعوا التيجان على جبهتى. «ضعوا التاج الكبير على رأسه !». هكذا تحدث عنى وهو ما زال بعد على الأرض (أى حيا)، «سوف يدير هذه الدولة، وسوف يصرف شئونها، وسوف يقود شعبها». هكذا تكلم لأنه كان يحبنى من صميم قلبه. وجهزنى بأسرة من الحريم الملكى يلقبن «بجمال القصر». واختار لى زوجات.. واحضر لى محظيات لتنضم إلى الحريم».

وهكذا عين رمسيس ملكا اسميا، وخصص له طاقم كامل من الحريم لتكوين أسرته الجديدة، حسب المفهوم الشرقى السائد فى عصره. وكما فعل أبوه من قبل تلقب بألقاب مختارة. فكما كان أبوه «من ماعت رع» و«سيتى محبوب بتاح» سمى رمسيس نفسه «أوسر ماعت رع» وتعنى «القوى على الحق هو رع»، كما سمى نفسه «رمسيس (الثانى) محبوب آمون». ولاقى إعلان رمسيس ملكا ثم تتوجيه استحسانا عاما فى البلاط وبين الجمهور. كذلك فان أسرة رمسيس الجديدة من زوجات ومحظيات تبشر بنسل كبير وتضمن استمرار الخط الملكى الجديد.

أحوال البلاط الملكى فى عهد سيتى الأول وابنه :

بدءا من النصف الثانى من حكم سيتى الأول - حيث كان رمسيس فى ذلك الوقت نائبا للملك - بدأ ظهور شخصيات جديدة فى البلاط الملكى. كانت الملكة وقتئذ هى رفيقته العنيدة نوتيا سيدة وقور فى الأربعينيات من عمرها، لا تبدى إهتماما عميقا بالأمور السياسية، وتكن محبة عظيمة لابنها رمسيس. وكانت أخت رمسيس الكبرى شيا قد تزوجت - من أيام رمسيس الأول- من شاب يدعى تيا بن آمون واح سو. واستفاد النسيبان من وضع الأسرة المالكة وارتباطهما بها فحصل تيا على وظيفة رئاسية هى وظيفة «كاتب ملكى» فى السلك الإدارى. وعين أبوه آمون واح سو في وظيفة «كاتب مائدة» ملك القطرين

التى تجعله من المسئولين عن تموين القصر. وقد شاخ في الوظيفة، وكرمه الملك علنا أمام جمع :

«قال الملك لمرافقيه : احملوا ذهبا كثيرا للرجل الأثير عندى - المشرف على حريم القصر- حورى مين ! فقد عاش عمرا طويلا، وبلغ سنا كبيرة (وعاش حياة) سعيدة، وكان فوق الشبهات، ولم يبدو منه أى خطأ فى القصر الملكى، أرجو له أن يبقى ذا لسان ناطق، وأن يمشى سليما فى شيخوخته، حتى نهاية عمره حيث يرقد فى قبره بسلام».

ورد حورى وهو يرفل فى قلادات الشرف الذهبية ، شاكرا ممتنا:

«سيدى الحاكم الآمر، المحبوب مثل آمون! سوف تبقى هنا .. إلى الأبد كأبيك رع، ويطول عمرك مثله، سيدي الحاكم الآمر الذى حقق للناس الرخاء. والدى أسرنى بكرمه».

لكن بلاط سيتى كان به من الرجال من هو أعظم شأنا، وأشد تأثيرا فى إدارة البلاد، منهم الوزير نب آمون، ونائب الملك فى النوبة آمون ام أوبى المشهور بإخلاصه، وكان مسئولا أمام الملك عن مناجم الذهب من تلك المستعمرة الشاسعة. وكان البلاط يضم معهما نخبة من الرجال اللامعين.

وكانت هناك فرصة -فى مثل هذا البلاط المزدهر- لظهور بعض الشباب، ربما لمجرد شغلهم وظائف رنانة وإن كانت شبه شرفية، مثل رمسيس نفسه. من هؤلاء نخبة من الشبان كانت وثيقة الصلة بتتويج الأمير نائب الملك. منهم على سبيل المثال ياسر وهو ابن كبير كهنة آمون نب نترو، وأمه مريت رع، وقد التحق باسر بخدمة القصر كوصيف أو كأحد المرافقين الشخصيين للفرعون.

ونظرا لسلوكه الحازم الملتزم رقى وهو بعد فى العشرين من عمره إلي منصب كبير أمناء البلاط، مما أكسبه لقبين شرفيين هما : «كبير كهنة ربة

السحر العظيم» و«كبير أمناء سر الربتين» ويعنى ذلك أنه كان حافظ تيجان الملك جميعا: تاج القطرين، وغيره من تيجان كل من القطرين على حدة. لذلك يرجح أنه هو الذى وضع التاج بنفسه على رأس الفتى رمسيس الثانى عند تتويجه.

وكان الشاب آمون ام اينت فى مثل سن الأمير، ورفيق صباه. فلما أصبح رمسيس نائبا للملك ووريثا للعرش، أصبح الفتى بالتبعية رفيقه وتابعه، ففتح له الطريق لمستقبل زاهر، وهى ما تحقق فعلا.

وكان لآمون ام اينت أقارب ذوو نفوذ منهم عمه كبير كهنة الاله مين والآلهة ايزيس بقفط (شمال طيبة) وقائد فيالق النوبة - أى الساعد الأيمن لنائب الملك فى النوبة. ومنهم الفتى باكن خنسو مدرب الخيول الملكية، الذى التحق بعد ذلك بالسلك الكهنوتى المستديم فى خدمة آمون بطيبة، وسوف يرد اسمه كثيرا فى هذه السيرة.

وكان عشاحب سد من المقربين إلى كل من سيتى ورمسيس. وهو من معاصرى ياسر، وصل إلى رتبة قائد فيالق وهو مازال فى شبابه. وكان نشطا جدا فى عمله لدرجة أنه حصل على اللقب المرموق المحسود، رسول الملك إلى كل البلاد الأجنبية، بسرعة شديدة. ويبدو أنه كان موضع تقدير رؤسائه لحسن أدائه فى الداخل والخارج، فأضافوا إليه وظيفة «ساقى الملك»، وهى هنا تعنى أنه كان أحد كبار مرافقى الملك والأمير، وليس مجرد ساق يسقيهم الشراب. وقد اضطرته أعباؤه الوظيفية للسفر إلى سيناء فى السنة الثامنة من حكم سيتى الأول وما بعدها للتفتيش على مناجم الفيروز. وفى معبد الربة حتحور (سيدة الفيروز) القديم ترك بطاقة زيارته فى صورة نقش يقول:

«المجد لك، أيها الملك، صاحب الفيالق والعربات الكثيرة، من ماعت رع - سيتى الأول. والمجد لابنه أوسر ماعت رع .. المحبوب من حتحور، رمسيس الثانى!».

وبهذا الأسلوب اللبق يكون عشاحب سد قد أعلن عن ولائه للملك والأمير نائب الملك فى عبارة واحدة.

واتخذ عشاحب سد إسما «يدلل به على ولائه» هو «غنى الأعياد».

وكم من مرة اشتاق الملك إلى شيء غير موجود بمصر! فقد دخل إلي مصر فى ذلك العهد كثير من الغرباء - كنعانيين وسوريين - وأصبحوا جزءا من بنية ذلك المجتمع المصرى الامبريالى المتعدد الجنسيات، وأصبح من الأمور الشائعة بينهم استخدام أسماء يترددون بها إلى العرش. وممن احتفظوا باسمهم الأصلى ولم يغيروه رجل يسمى أورجى، وكان أحد قواد سيتى الأول. هذا الاسم فى اللغة الحورية - لغة شمال سوريا- ما هو إلا اختصار لإسم أورحى تيشوب الذى يعنى «إله العواصف إلا أن ولاءه لمصر- وطنه الثانى - كان أشد من ولائه لوطنه الأم الذى كانت أموره غير مستقرة. وله آثار تدل على الذوق والأسلوب المصرى الصرف.

الثورة فى الجنوب الأقصى :

فى شتاء السنة الثامنة من حكم سيتى الأول (١٢٨٧ ق.م.) سرت شائعات بقيام ثورة عارمة بعيدا فى كوش - فى أعالى النيل. وعلم بها الملك فى مشتاه الرسمى، طيبة، وعرف أن المنطقة الثائرة تقع فى بلاد أرم - بعد الشلال الثالث، غرب النيل. والمنطقة معروفة بخصبها، فهى خير بقاع النوبة فى الرى والزراعة، وحدود الإقليم حاليا هى المنطقة بين الكرما ودنقلة. وكان الجزء الذى يلى التلال الصحراوية هناك أرضا صحراوية جرداء تروى بالمياه الجوفية - المستديمة والمؤقتة. ورددت الشائعات أن أهل هذه البقعة من أهل ارم يخططون لمهاجمة الوادى الخصب وإزعاج الأهالى هناك ليستولوا على الماشية والمحاصيل. هذا ملخص ما علمه مساعدو نائب الملك بهذه المنطقة، وما نمى إلى

مسامع الملك. وتسرد النقوش التى سجلت فى العواصم الجنوبية هذه القصة على النحو التالى :

«السنة الثامنة – فصل الشتاء ... من حكم ملك القطرين من ماعت رع، حاكم طيبة، ابن رع، سيتى الأول، محبوب بتاح :

الآن كان جلالته فى مدينة طيبة، يقوم بما يسر أباه آمون –رع. وأخطر جلالته بما يلى :

«الأعداء بأرض ارم يخططون للثورة» .

فاهتم جلالته بالموضوع وكرس وقته لمعرفة خططهم بالتفصيل. بعد ذلك خاطب جلالته كبار الضباط، ورجال البلاد والحاشية : «ما هى ارم التافهة هذه التى تتجرأ وتعكر صفو الهدوء فى مدة حكم جلالتنا؟ سوف يقوم والدى آمون – رع باخضاعهم لى بحد السيف. أنا قادر على اخضاع أى قطر، بما فيه هذه الأراضى لسلطان جلالتنا!».

وعلى ذلك وضع جلالته خطة الحرب، وصمم على ذبحهم أينما كانوا، وضرب قواعدهم . ثم بعث جلالته حملة عسكرية كثيفة من المشاة والعربات. ووصل جيش جلالته إلى قلعة «حافظة سلام القطرين»، وذلك فى شهر الشتاء الثالث، اليوم الثالث عشر (أواخر يناير ١٢٨٧ق.م).

وتوجهوا رأسا إلى الصحراء لمحاربة المعتدين، فواجهتهم ذراع الفرعون القوية (أى جيشه) كأنها عاصفة من النيران. وعادت بعد سبعة أيام، وقد أخضعت ذراع الفرعون القوية الأعداء، ولم يفقد أحد – لا رجال ولا نساء. وغنمت ستة آبار فى نصر واحد – أسماؤها هى : تى باو . وتابنوتا، وتايروزو، وبئر (مجهول الاسم)، وكوروكاسا، وتوسارسو. وسيق سكانها تتقدمهم ماشيتهم إلي شط النهر الغربى أسرى (غنيمة لذراع الفرعون القوية)».

واحتوت قائمة الغنائم الرئيسية على أسماء ما يزيد على سبعمائة أسير.

ففى غارة سريعة استغرقت أسبوعا واحدا على الآبار (الأرجح أنها واحات صغيرة) التى تلى النيل، كان انفصال ارم عن السيادة المصرية قد أخمد فى مهده، وقضى على أية محاولة للانفصال فى وادى النهر.

هذه المعركة الحربية الصغيرة كانت آخر أعمال سيتى الأول فى ميادين القتال. وقد فرغ منها بسرعة، وقادها أحد قواد الفصائل. ورغم ذلك خلد نائب الملك بكوش، أمنمؤبى ذكراها، فأقام لذلك نصبين تذكاريين : أحدهما فى شاعت بجزيرة ساى - حيث يقيم : والآخر فى مدينة جديدة كان قد شرع فى بنائها لنقل العاصمة الإدارية إليها - فى جزيرة قريبة شمال جزيرة ساى (حاليا العمارة غرب على بر النيل الغربى).

وفى طيبة يبدو أن هذه الحملة الصغيرة كانت كافية لارضاء غرور الملك، لدرجة أنه أتى إلى مشاهد النصر العظيمة فى الكرنك والتى حفرت فى ذكرى معارك كنعان الكبرى وأبدل أسماء بعض الكنعانيين ليضع مكانها أسماء نوبية، متجاهلا تماما لأسماء الآبار، أو الواحات الصغيرة التى أخضعت فى الحملة.

الصحارى والمحاجر :

عقب أحداث ارم مباشرة اتجهت عناية الملك سيتى الأول وابنه الأمير رمسيس إلى مشاريع ذات طبيعة سلمية. والتفت إلى الصحراء الجرداء الشديدة الحرارة، التى لا تبشر بخير.

هذه الصحراء التى تقع بين البحر الأحمر والنيل. ولكن فى جوفها الذهب الذى كان يملأ نفوس الفراعنة اغراء. فإذا صعدنا فى نهر النيل إلى بعد ٧٠ ميلا بعد طيبة، ووصلنا إلى ادفو، نجد مقابلها مباشرة جزءا مما كان يسمى «أرض الذهب» التى تمتد بعيدا فى عمق النوبة.

فصمم سيتى الذى لا يعرف الكلل فى السنة التاسعة من حكمه على أن يشرف بنفسه على إنتاج الذهب فى صحراء ادفو. فقام في تلك السنة (يونيه ١٢٨٦ ق.م.) فى أوج الحر باختراق حوالى ٤٠ ميلا فى أعماق الصحراء، وفى جو قاتل لتفقد أحوال المناجم بنفسه ، فأصابه الغبار والعطش فوضع الترتيبات اللازمة لحفر بئر وتشييد معبد صغير بملحقاته يفيان بحاجة عمال مناجم الذهب.

وفى نفس هذا المعبد الذى بنى فى منطقة الكنايس أمر الملك بحفر نقش تسجيلى يشرح الاستكشافات الملكية للبحث عن الماء من أجل المنقبين عن مناجم الذهب :

«السنة التاسعة ، الشهر الثالث من الصيف ، يوم ٢٦ (أوائل يونيه ١٢٨٦ ق.م.) .. فى هذا اليوم عبر جلالته الصحراء إلى الجبال مباشرة. وكان فى قصده معاينة المناجم التى يستخرج منها الذهب. وبعد أن استمر جلالته لعدة أميال، توقف للاستراحة فى الطريق للتدبر. ثم قال «يا لصعوبة هذا الطريق الخالى من الماء! ماذا يفعل المسافرون ليطفئوا عطشهم؟ ومن الذى سيروى عطشهم ؟

الأرض التى بها الماء بعيدة والصحراء شاسعة، الويل لمن يعطش فى هذه البادية! كيف أرعاهم لأوفر لهم فرصة الحياة ؟ بعد أن وازن جلالته هذه الأمور فى ذهنه، استكشف الصحراء، بحثا عن موقع صالح لحفر بئر، وكان الاله مرشده حتى يحقق رغبات الذين يحبهم.

وكلف بنائى الحجارة بحفر بئر بين الجبال يغيث الملهوفين ويبرد قلوب من أنهكتهم شدة الحر. وقد بنى ذلك المكان باسم من ماعت رع (سيتى الأول) العظيم، وضخ الماء بغزارة، كأنه فيضان النيل عند أسوان..

ثم أعطى الملك أوامره لمدير الورش الملكية.. وعلى أثر ذلك نحت في هذا الجبل معبد لهذه الالهة : آمون ، ورع، وبتاح، وأوزيرس .. وبعد أن تم بناء هذا الأثر، عاد جلالته لتمجيد آبائه، كل الآلهة».

وحيث أن هدف سيتى النهائى كان الذهب – من أجل معبده فى أبيدوس، أعظم منشآت العصر– فقد سجل الملك فى نقش آخر تحذيرا منه للأجيال التالية كى لا يتدخلوا، وأن يبتعدوا عن عمال التعدين وعن إنتاج المنجم منه الذهب، لأن هذا الذهب يخص معبده العظيم. وهو فى النقش يبارك من يحترم رغبته، ويصيب لعنته على من تسول له نفسه الاستيلاء عليه :

«كل الملوك الذين سيدعمون ما رتبته .. سوف تباركهم الآلهة آمون، ورع حور آختى، وبتاح تاتنن، وأوزيريس، وسيحكمون البلاد وهم سعداء ..

أما هؤلاء الملوك الذين سيتجاهلون مخططاتى فى المستقبل، فان الآلهة ستمقت عملهم، وسيحاكمون فى هليوبوليس ، وستلقى محكمة الآلهة فى آتون مشتعل فى احمرار الجمر بمن لا يعبأ بى. ومن ينقض مخططاتى ستحطمه الآلهة، ثم تمزقه اربا اربا على المقصلة فى العالم السفلى.

وأى موظف يشجع سيده على نقل العمال للخدمة فى مجالات أخرى، سيلقى فى الجحيم، وتأكل النار جسده وتلتهم أطرافه !..

وكل من يصم أذنيه عن فحوى هذا المرسوم ، سيتعقبه أوزيريس، وتطارده ايزيس زوجته، ويتربص حورس بأولاده، وكل آلهة الجبانة العظماء ستنفذ فيه الحم».

هنا نشهد «لعنة الفراعنة» من هذا الزمن السحيق تنصب على كل من تسول له نفسه نقض خطط الفرعون الاقتصادية فى المستقبل. فما تصيب من أتوا على مر السنين والأحقاب للسياحة وإبداء تقديرهم للآثار الفرعونية !

الآن نعود لنتكلم عن الابن .

فى أثناء تجول أبيه فى الصحراء كان الأمير رمسيس يجد فى العمل فى جنوب مصر. وشوهد فى السنة التاسعة (الملك وابنه) يمشطان محاجر أسوان بحثا عن الجرانيت الجيد لصنع التماثيل العملاقة والآثار الكتلية.

وذكرت نتائج استكشافهما فى نقشين صخريين، أحدهما موجز:

«السنة التاسعة .. أمر جلالته بصنع تماثيل ضخمة من الجرانيت الأسود. وقد اكتشف جلالته محجرا جيدا لقطع الحجارة الجرانيتية السوداء لتشكيل التماثيل، التى سوف تكون تيجانها من الكوارتز الأحمر المقطوع من الجبل الأحمر. وهى لا مثيل لها منذ زمن رع. وسمى المحجر الذى اكتشفه جلالته باسم «محجر من ماعت رع ملك القطرين».

أما النص المسهب فاثبت أن الأمير رمسيس - أثناء رحلة أبيه من أجل الذهب - كان هو المشرف العام على هذه الأعمال الكبرى بأسوان، ولا نشك فى أن الأمير كانت معه بطانة من ذوى الخبرة فى هذا المجال:

«السنة التاسعة .. كلف جلالته عددا كبيرا من الورشين بإقامة مسلات ضخمة جدا، وتماثيل عملاقة رائعة باسم جلالته. فبنى مراكب كبيرة لنقلها من الحجر مع الموظفين وعمال النقل للإسراع فى العمل.

وكان ابنه الأكبر رمسيس يقودهم ويؤدى لجلالته خدمة عظيمة ».

الأمير رمسيس البنــاء :

كانت السنوات الست التالية سنوات سلام، ولكنها لم تكن سنوات تراخ ووداعة. وأصبح سيتى الأول فى الأربعينيات من عمره، وقلت لياقته البدنية، وكان لرحلته الصحراوية الصيفية أثر فى ذلك. وأخذ الإهتمام بالتنظيم الإدارى يهيمن

على فكره، ويستحوذ على جل وقته. وكان يمضى وقته بين قصره الصيفى فى منف حيث الهواء العليل فى الصيف، ثم ينتقل إلي قصره الشتوى فى طيقبة حيث يجد الدفء ويحتفل بعيد أوبت الكبير – عيد الآله آمون فى أشهر الشتاء.

وكان الملك فى مدة حكمه قد وفق فى جمع نخبة من الرجال الأفذاذ المخلصين حوله عاونوه فى إدارة قطاعات الدولة المختلفة. وفى هذا الوقت تقريبا– أى حوالى السنة العاشرة – خلت كبرى الوظائف الإدارية – وزير الجنوب ـ طيبة. فى ذلك الوقت لم يكن ياسر قد جاوز الثلاثين، فكان اختياره لهذا المنصب على صغر سنه ووظيفته كحافظ لتيجان الملك أمرا مستبعدا، لكن ليس فى نظر سيتى. وكانت لدى الملك فراسة عجيبة فى الرجال وتثبت الأيام عادة حسن اختياره، فاختاره لهذا المنصب.

وكم كان ياسر فخورا بهذا الصعود الصاروخى إلى الدرجات العليا، لكن ذلك لم يطح برأسه، فقد كان مافهما تماما لمسئولياته فى «خدمة الآلهة». وقد حفر نقشا فى هيكل مقبرته (رقم ١٠٦) بغرب طيبة يوضح ذلك :

«أمر مولاى بترقية خادمه المطيع إلى وظيفة الوصيف الأول بالقصر. ثم رفعنى إلى وظيفة كبير الياوران.. ثم رفعنى إلى كرسى الوزارة – المسئول عن تحصيل عوائد البلاد الأجنبية، الجنوبية والشمالية، لصالح مولانا الملك الظافر. ولما عهده فى من كفاءة رفع رتبتى وجعلنى مسئولا عن تحصيل الضرائب فى القطرين – من كل المحافظات المصرية فى الجنوب والشمال».

أما والد ياسر الكهل فاسندت إليه وظيفة كبير كهنة آمون بطيبة، تكريما له وتشريفا، وظل يشغل هذه الوظيفة المرموقة معظم أيام ذلك العهد.

فى هذه الأثناء كانت مشاريع البناء العظيمة جارية على قدم وساق. ففى أبيدوس كانت بنية المعبد الكبير فى طريقها إلى الانتهاء : فناءان مفتوحان

أماميان، وقاعتان عريضتان، وسبعة محاريب للآلهة الرسمية وأوزيريس وعائلته، وللملك أيضا، ثم الطاقم الأوزيرى الصرف، وبعد ذلك غرف متعددة للخدمات على أحد الجوانب، وكان نحت النقوش البارزة الرقيقة على الجدران يجرى بدقة -وذلك شيء طبيعي- فى خط سير يبدأ من قدس الأقداس متجها إلى المؤخرة. وتحت الأرض بنى سيتى صرحا تذكاريا له وللإله أوزيريس.

وكان دور الأمير رمسيس فى هذا كله هو دور المراقب لحسن سير هذه الأعمال الإنشائية. فيقول أن تكليفه بذلك كان منذ بداية تقلده منصب نائب الملك: «منذ بداية تعييني، وأنا مشغول هناك فى أبيدوس، فأنا الذى شكلت أبى من الذهب مؤخرا»، أى أنه أشرف على صب تمثال ذهبى جديد لسيتى الأول لمقصورة المعبد. وأخيرا رخص له أبوه ببناء معبد لنفسه فى أبيدوس هو الآخر، أصغر حجما بالطبع من صرح أبيه الهائل - حفظا لفارق المستوى بين الوظيفتين، الملك والشريك الأصغر.

لكن معبد رمسيس على صغره لم يقل لروعة وجمالا عن معبد سيتى الكبير. وقد بنى بالحجر الجيرى، بأيدى نفس مجموعة العمال على خير مستوى من الرقة والسمو. ولكن نقوشه لم تسم إلى مستوى نقوش معبد سيتى التى نقشت بالحفر البارز المنخفض الأصيل، فى حين كان الأمير رمسيس ضيق الصدر فسمح بتنفيذ نقوش معبده بأسلوب النقش العميق، وهو أسلوب أقل سموا وأصالة.

وفى طيبة تم الانتهاء من بناء بهو الأساطين الكبير بمعبد آمون بالكرنك، وقد قاربت نقوش نصفه الشمالى من الانتهاء، إلا الجزء الجنوبى للبهو المخصص لنقوء سيتى ورمسيس فإن قدرا كبيرا من زخارفه لم يفرغ منه بعد. هذا البهو مكتظ بالأساطين على مساحة ضخمة بطول ١٧٠ قدما فى عرض ٢٤٠ قدما (١٥٠م × ٣٠٠م تقريبا).

وصحن البهو قوامه اثنا عشر أسطونا ضخما، محمل عليها السقف المركزى الذى يرتفع إلى مستوى ٨٠ قدما (٢٧م تقريبا) فوق رأس الزائر. وعلى كل جانب أقيم ٦١ أسطونا ترتفع إلى نصف السقف المركزى (٤٠قدما) مما يضفى عمقا جانبيا كبيرا على البهو.

فإذا كانت الإضاءة معتمة فإن البهو يتخلله ظلام لا نهائى بين الأساطين المنقوشة. وكما فى الكنائس الكبرى يدخل الضوء من فتحات أو نوافذ سفلية وعلوية بالسقف على جانبى صحن البهو، فإذا وقع على النقوش الملونة يعطى بريقا كبريق الجواهر ينعكس من الجدران والأساطين معطيا إضاءة جزئية تتسلل إلى الظلام الغامض المنتشر على أجنحة البهو.

وعلى البر الغربى عبر النيل، كان معبد سيتى الأول التذكارى قد ضم هكيلا لرمسيس الأول، بينما توجد نقوش غائرة أخرى تخلد تتويج الملك الشاب رمسيس الثانى. والهيكل بهذا الشكل يعتبر هيكلا خاصا بالأسرة الملكية الجديدة. وكما حدث فى أبيدوس، سبقت الأعمال الإنشائية الأعمال الزخرفية ببون شاسع، لبطء تنفيب النقوش البارزة الزخرفية بأسلوب النقش البارز المنخفض.

بعيدا عن ذلك، وفى وادى الملوك المنعزل، كان عمال دير المدينة قد انتهوا من حفر مقبرة ملكية رائعة، تحتوى على ردهات متتابعة بطول ٣٠٠قدم تقريبا، متعمقين بالتدريج فى جوف الجبل الغربى، تحت إشراف المشرفين المحنكين باكى ونفرحتب الأكبر.

وفى نفس الوقت كان المصوران باى وباشدو المتمرسان فى فنهما يرسمان الخطوط المحيطية للنصوص والمشاهد بأيد ثابتة واثقة، ليقوم المثال المرهف بياى ومعاونوه بتفريغها، ثم يعود المصوران لتلوينها.

ولا يمكن أن يعزى الفضل لفريق دون فريق فى إتمام هذا العمل الرائع الذى مازال يحظى بإعجاب القرون المتتالية حتى يومنا هذا، فقد كان العمل نتيجة مجهود جماعى يستحقون عليه التقدير.

ويبدو أنه عندما شارف العمل بمقبرة سيتى على الانتهاء، سمح لرمسيس بالشروع بحفر مقبرته الخاصة فى وادى الملوك. وكان رمسيس هو المشرف على هذه الأعمال المعمارية، خصوصا ما كان منها بأسوان وأبيدوس.

وفى طيبة وقعت مسئولية الإشراف على المنشآت المعمارية على عاتق وزير الجنوب باسر، وكان المشرفون على عمال المقابر الملكية والكتبة مسئولين أمامه مباشرة . ويبدو أنه استعان بهذه القوة - أو بعضها- فى بناء هيكله الرشيق الخاص الذى بناه فى القطاع المخصص للنبلاء بغرب طيبة.

وخلف الكرنك -شرقى نهر النيل- كانت إهتمامات باسر بمبانى آمون أقل من إهتمامه بتجهيزها. ففى دور الصناعة بالمعابد كانت تماثيل أبى الهول والأوانى الجميلة وتماثيل الملك سواء كانت من الذهب أو من الحجارة النفيسة كلها تعرض عليه لمعاينة جودتها. ويوجد نقش فى هيكله الخاص يصوره وهو يخاطب أحد المثالين : «حياك بتاح أيها المثال ! جميل حقا هذا التمثال الذى تنحته لسيدى.

ليكن تشكيله حسب الطراز القديم - هكذا قال الفرعون». ويحق لباسر أن يفخر حقا بعمل هؤلاء الفنانين الأفذاذ، فقد كانوا السبب فى الاحتفاء به بعد ذلك إذ طوقه الملك أمام جمع بقلادات الشرف الذهبية، وهى مناسبة لم يتوان باسر عن تسجيلها فى هيكله الجنازى.

ونخص بالذكر من بين الفنانين البارعين الذى عملوا تحت امرة الأمير رمسيس والوزير باسر كبير المصورين بالكرنك. هذا الرجل كان سليل أسرة

متمرسة فى هذه المهنة، خدمت أمون فى مجال التصوير ستة أجيال متعاقبة. ورأس الأسرة وفد من كنعان أو سوريا ويسمى بثو - بعل، وسرعان ما اندمج هو وسلالته فى البيئة المصرية وتزوجوا مصريات. ويعود إلى هذا الرجل (ديديا) ومساعديه بكل أرجاء مصر - بمن فيهم عمال المقابر الملكية - الفضل فى وصول أعمال سيتى الأول إلى مستوى يرضيه ويجعل هذه الأعمال تنافس أعمال من سبقوه فى الحجم والروعة، خصوصا أعمال أمنحتب الثالث.

الشروع فى تكوين أسرة :

لم تقتصر أنشطة رمسيس على العناية بالإنشاءات المعمارية من مقابر ومعابد، فقد ذكرنا أنه كان فى بيته طاقم كامل من الحريم من كل نوع. وقد بدأ الأمير الصغير فى سنوات نيابته عن العرش، وبعد تتويجه ملكا شرفيا، بتكوين أسرته الخاصة. ومن المعروف أنه كانت له زوجتان أثيرتان هما : نفرتارى واست - نفرت.

والأنباء التاريخية عن أصول هاتين الفتاتين متضاربة. وتميزت نفرتارى دائما بقوة الشخصية، وكان رمسيس نفسه يقول عنها أنها لا تضارع فى «جمالها من بين جميلات القصر»، فهى فى نظره إذن أجملهن جميعا. أما أست نفرت فيبدو أنها آثرت أن تتوارى فى الظل.

وقد حملت الفتاتان وأنجبتا للأمير الكثير من الخلف : بنين وبنات. ففى السنوات العشر السابقة لموت سيتى الأول، كان لرمسيس من هاتين الفتاتين وحدهما عدد وافر من الأبناء(١) - خمسة من البنين وبنتان على الأقل من كل واحدة. وكان له فى نفس الفترة من غيرها عشرة بنين، بالإضافة إلى عدد من

---

(١) فلا يمكن أن يكون رمسيس هو فرعون موسى لأن فرعون موسى لم يكن له أبناء بدليل قول زوجته آسية: ﴿قرة عين لى دلك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ [القصص]

البنات لا نعلم عنهن شيئا . إذن فعندما اقترب أجل سيتى الأول كان القصر يعج بالمواليد الملكية الجديدة بخلاف من مات فى سن الطفولة. وبذلك أصبح سيتى جدا لعدد وافر من الأطفال.

أنجبت نفرتارى لرمسيس الثانى أكبر أنجاله، آمون حر ونمف، ومعناه «آمون على يمينه». وأنجبت له ايست نفرت ولده الثانى الذى سماه على اسمه رمسيس، ولا ننسى أن جده كان يسمى رمسيس أيضا . وأنجبت نفرتارى ثالث أولاده برى حر ونمف، وايست نفر الرابع خع ام واست «المشرق فى طيبة». ثم أنجبت له ايست نفرت كبرى بناته فسماها إسما كنعانيا صرفا هو بنت عنات ، أى «ابنة الآلهة عنات»، وبعد ذلك كثير نذكر منهم ابنته الرابعة من نفرتارى – مريت آمون، والمولودة السادسة عشرة مريت أتوم. وكان من نصيب ايست نفرت ابن الملك الثالث عشر مرنبتاح الغنى عن التعريف.

كل هؤلاء أعدوا ليقوموا بواجباتهم المستقبلة خير إعداد.

المعارك فى الجنوب والشمال

فى السنة الثالثة عشرة من حكم سيتى الأول كان الأمير رمسيس قد ناهز الثانية والعشرين، وأصبح مؤهلا لمباشرة بعض الحروب الصغيرة بنفسه. وقامت ثورة فى الجنوب –فى النوبة السفلى– رئى فيها رمسيس على رأس حملة متوجهة إليها يرافقه ولداه : آمون حرونمف أكبر أبنائه (٥سنوات) ، وخع ام واست (٤سنوات).

وحسب المقاييس العسكرية تعتبر هذه الحملة مجرد تجريدة تأديبية : هجوم بالعربات تلاه فرار النوبيين الثائرين إلى قراهم مذعورين كأنهم قطيع شارد من الغنم يصيحون بأن المصريين فى أثرهم.

وأخمدت الثورة فى ظرف ساعة أو ساعتين. هذا الهجوم قاده رمسيس بنفسه، وشارك فيه ولداه الصغيران، كل فى عربته، ولكن بشكل أكثر أمنا إذ لم يكونا فى المقدمة. وهكذا بدأ رمسيس عهده بالحرب.

ورغم تفاهة المعركة فقد كانت فى نظر رمسيس تستحق التنويه، ربما لأهمية موقعها على النيل. لذلك أمر الأمير بحفر معبد صخرى صغير (بيت الوالى)، بجوار كلابشة المشرفة على بقعة ضيقة من النهر.

وزخرف الجدار الشمالى من ردهة المعبد الأمامية بنقوش رمزية لمعارك الشمال -كنعان وسوريا- التى اشترك فيها رمسيس كمجرد مرافق لأبيه الملك.

لكن الجدار الجنوبى زخرف بنقوش حية مقصورة عليه، إشادة بنصره فى النوبة احتوت على : المطاردة ، تسلم الأسلاب والغنائم يرفعها له أميران ونائب الملك أمنمؤبى. وقد محيت صورة نائب الملك قرب الانتهاء من المعبد – ربما لوفاته «أثناء العمل» وربما «لاعتزاله الخدمة» لكبر سنه. المهم أنه قد خلفه فى المنصب أيونى من نينو بالفيوم.

وقد ترك لنا أثرا لأولى رحلاته إلى صحراء ادفو، هو مشهد يظهر فيه الرجل وهو يقدم فروض الطاعة والولاء لحورس بالقرب من معبد الملك الذى بنا لعماله فى منطقة تعدين الذهب.

ولم يكن سيتى الأول ولا ابنه رمسيس باللذين يسمحان بترك بلدهما عرضة للسلب والنهب، أو للغارات على حدودها. فقام رمسيس بتجهيز دورية لحراسة المداخل البرية والبحرية على النهر.

وعندما حاول قراصنة البحار – المعروفون بالشرادنة – أن يغيروا على البلاد فوجئوا بهذا الاستعداد، فاضطربوا وتشتت شملهم وأسر منهم عدد كبير جندوا إجباريا للعمل بالجيش المصرى.

وقد أثبت رمسيس رضاه عن هذا الإجراء الوقائى من خلال نقش سجله على نصب تذكارى :

«ها هو من أمكنه تشتيت المقاتلين البحريين، وأصبحت الدلتا آمنة. وجاوزت شهرته البحر .. والشرادنة الخبثاء الذين لم يعرف أحد من قبل كيف يتصدى لهم، أتوا من البحر بكل جرأة على متن سفنهم الحربية من قلب البحر. لم يكن يقف فى وجههم شىء من قبل، لكنه قهرهم بذراعه القوية (يقصد الجيش) وساقهم إلى مصر! .. رمسيس الثانى».

وفاة سيتى الأول :

هذا ما كان عليه الحال فى السنة السادسة عشرة من حكم الملك سيتى الأول. وبلد منضبط مستقر الأركان، محكوم حكما إداريا حازما، يتمتع بالرخاء والأمن فى الداخل، وله هيبته فى الخارج، امبراطورية واسعة مستقرة، ما أن تهب فيها ثورة أو عصيان - وكلها صغيرة - حتى يتم إخمادها بسرعة.

وشهد حكم ذلك الملك إزدهارا كبيرا فى الإنشاءات والمعمار. فبنيت المبانى العظيمة التى لم يبن مثلها منذ عهد امنحتب الثالث، تقربا للآلهة الكبرى. وزخرفت بزخارف رائعة - فى معظم الأحوال - تضاهى نظائرها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة.

فى هذه السنة كان سيتى الأول فى الخمسين من عمره تقريبا، وكان من المتوقع أن يستمر متربعا على عرشه عشر سنوات أخرى على الأقل. لكنه فى صيف ١٢٨٩ ق.م. ، وربما كان فى ذلك الوقت فى قصره الجديد قرب أفاريس، مات الملك فجأة، تاركا التاج والامبراطورية أمانة بين يدى رمسيس الثانى.

إذن لقد انتهى دور نائب الملك ، وأصبح رمسيس الثانى ملكا مطلقا . وهذا كان التخطيط منذ البداية.

الحرب والسلام

رمسيس الثانى - الفرعون المطلق

ما كاد يشرق يوم ٢٧ من شهر الصيف الثالث (أوائل يونيه ١٢٧٩ ق.م.) حتى أعلن التتويج رسميا بأسلوب تقليدى (فى الغالب من أفاريس المقر الرسمى الصيفى) وصيغته :

«الملك الصقر، الثور القوى، محبوب العدل والحق. هو المنتمى للربتين ، حامى مصر القاهرة للبلاد الأجنبية. حورس الذهبى، طويل العمر، صاحب الانتصارات العظيمة. ملك مصر العليا والسفلى، أوسرماعت رع« القوى فى الحق هو رع».

(أضيف بعدها فيما بعد : ستب - ان رع «المختار من رع»).

ابن رع «رمسيس الثانى، محبوب آمون»

وبذلك تولى رمسيس الثانى زمام الامبراطورية المصرى وهو بعد فتى فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره، لكنه متدرب على ممارسة مهام الملك، يملؤه النشاط، ويغلب عليه التفاؤل وتبدت له ظواهر الأمور، امبراطورية واسعة، يعمها الرخاء ويسودها السلام. وظن الملك الفتى المتفائل أن عهده يبشر بسلام طويل لا نهاية له.

وكالعادة كانت أول مهام الملك الجديد هى دفن الملك الراحل. وعند إعلان رمسيس ملكا بدأت فترة السبعين يوما المعهودة التى تتطلبها تجهيزات الجثة وتحنيطها فى هذه الأثناء أرسل الملك رسله إلى طيبة لسرعة تجهيز مقبرة الملك الراحل استعدادا لطقوس الدفن، وللإنتهاء من تجهيز المتاع الجنازى.

خلال هذه الفترة كان الملك رمسيس الثانى قد قرر بناء مدينة جديدة

نواتها قصر أفاريس الصيفى وملحقاته مع الثكنات العسكرية واختار اسما جديدا للمدينة هو بى – رمسيس عانختو «مدينة رمسيس الأكبر الظافر». لكنه كان من الضرورى التريث فى التنفيذ إلى ما بعد دفن الملك الراحل.

وحل موعد الدفن فى منتصف أغسطس سنة ١٢٧٩ ق.م. تقريبا (أوائل شهر الفيضان الثانى) . وتحرك أسطول المراكب الكبيرة جنوبا فى النهر حاملا مومياء سيتى الأول إلى مدفنه.

وتوقفت القافلة بعض الوقت فى كل من هليوبوليس ومنف حيث أعلن عن الوضع الجديد وشيع الملك الراحل بالدعوات واستقبل الملك الجديد بالترحيب. والحقيقة أن هدف التوقف الرئيسى كان الإعلام واقرار وضع الملك الجديد. واستمر الابحار بعد ذلك جنوبا فى رحلة مضنية ضد التيار لمدة أسبوعين على الأقل بعدهما ألقت السفن مراسيها فى طيبة.

وبعد أن تمت الطقوس التقليدية فى معبد سيتى الأول الجنازى قام رمسيس الثانى وأعضاء عائلته الأقربون بالاحاطة بتابوت الملك الراحل الذهبى، والموكب المرافق له من حملة المتاع الجنازى يتقدمهم الكهنة، لحراسته. وساروا على هذه الهيئة المهيبة فى الطريق الصحراوى حتى وادى الملوك.

وهناك أجريت آخر طقوس الدفن، وبعدها أحكم إغلاق المقبرة الضخمة وأخفيت معالمها. وعند العودة يرجح أن يكون الملك قد زار مقامه الخاص العظيم هناك قبل أن يعود إلى عالم الأحياء بطيبة.

وهكذا تحلل رمسيس الثانى من كل قيد، وأصبح فى حل من ممارسة عمله الجديد بكل حرية، مثلما فعل أسلافه جميعا. وفعلا رأس الملك احتفالات عيد أوبت الكبير فى سبتمبر– وهو من أهم أعياء آمون، وصاحب موكب آمون الذهبية فى رحلة الميلين من الكرنك إلى معبد الأقصر وسط هتاف الجماهير،

ذهابا ثم عودة بعد ٢٣ يوما – نهاية أيام العيد. وكان هذا أول مواكب الملك فى طيبة فى سنة حكمه الأول – كما ذكر فى تقرير متأخر.

مجلس طيبة الاستشارى :

فى أثناء مهرجان أوبت المذكور، كان الشروع فى اتخاذ بعض القرارات السياسة الهامة أمرا متوقعا لذلك ساد المهرجان جو من التوتر والترقب. وانتهز الملك الفرصة فأجرى حركة ترقيات بين كهنة آمون، وعين رئيسا جديدا لهيئة المعبد الكهنوتية

وكان منصب كبير كهنة آمون قد ظل شاغرا منذ وفاة نب نترو– أبو الوزير باسر. فعقد رمسيس الثانى اجتماعا لمستشاريه فى حضور تمثال الإله آمون الرمزى للتشاور فى الأمر. وعرضت الترشيحات على تمثال آمون، وبعد رفض الكثير منها، أوحى الإله لرايه -الكاهن الوسيط) بقبول اسم نب وننف، كبير كهنة ثنى بدندرة القريبة.

ولم يعلم الكاهن المحظوظ بهذا الاختيار إلا بعد وصول الملك إلى أبيدوس. وأجريت حركة ترقيات بين الرتب الصغيرة لكهنة المعبد. فرفع الكاهن باك أن خنسو الصغير الرتبة إلى درجة أستاذ «بكلية آمون للآباء المقدسين»– وهى خطوة نحو الوظائف المؤثرة. وفي غير المجال الكهنوتى رقى الملك رفيق طفولته آمون ام اينت إلى وظيفة قائد المركبات الملكية وناظر للخيل.

وقد أقر البعض فى وظائفهم، فاستمر باسر وزيرا للجنوب بطيبة ، وأيوني نائبا للملك بالنوبة – وانحصرت جهوده تقريبا فى مجال البناء وفى مقر نيابته الجديد – العمارة غرب– الذى شرع أمنمؤبى فى إنشائه قام أيونى بعكس إتجاه المعبد من الجنوب إلى الشمال حيث مدينة رمسيس الجديدة . وفى عكشة المجاورة للشلال الثانى كانت تصميمات المعبد الجديد جاهزة، وشرع فى بناء

سوره الخارجى (النطاق) منذ عهد سيتى الأول. وبعد استكمال المعبد كرس لعبادة رمسيس الثانى نفسه، «أوسرماعت رع». «الإله الأكبر، ملك النوبة» اقتداء بما فعله أمنحتب الثالث فى صولب وتوت - عنخ - آمون فى فاراس .

وهذه مجرد بداية متواضعة لتقرير سلطة الملك على نفس الأسس التى كانت متبعة فى الأسرة السابقة.

المنشآت الجديدة والترميمات بمعبد أبيدوس :

ومن ضمن ما اهتم به الملك أثناء المهرجان تنشيط العمل لإكمال بهو الأساطين بالكرنك، بعد أن أعطاه إسما جديدا هو معبد «رمسيس الثانى الفعال» - والمعبد يدخل ضمن أملاك الاله آمون. كذلك أمر الملك بسرعة الفراغ من اتمام معبد أبيه الجنازى على البر الغربى. والأهم من ذلك كله أن الملك رمسيس الثانى احتفل «بمد الحبل» - أى تحديد النطاق - لمعبده الجنازى المتسع : الرمسيوم، تمهيدا لإرساء أساساته.

ويشمل تصميم الرمسيوم ساحات وأبهاء[1] بطول ٦٠٠ قدم داخل نطاق الكرنك نفسه. وفى الخلف على البر الغربى بالأقصر، كانت هناك خطة موضوعة لبناء صرح ضخم وفناء أمامى بحيث يقام أمامهما مسلات وتماثيل، فأعطى رمسيس الثانى العمل هناك دفعة قوية بأن جعلهما يحملان اسمه.

وأخيرا اقترب موعد الرحيل، فى شهر الفيضان الثالث، يوم ٢٢ من السنة الملكية الأولى (منتصف اكتوبر) واصطفت المراكب الملكية الذهبية للملك والعائلة، يصدر عنها فى النهر بريق يخطف الأبصار، يصاحبها أسطول من المراكب أصغر حجما للأعوان

وتحرك هذا الركب الهائل مبحرا، تاركا خلفه الشواطئ السوداء المكللة

(١) أبهاء : جمع بهو .

بالزرع، وخلفها يتلألأ جبل طيبة الجنوبى بلونه الوردى تحت سماء زرقاء صافية ومع التيار اتجه الأسطول نحو الشمال، وبحارته يجدفون بمهارة، متجها إلى مقر الحكم الجديد، مدينة رمسيس على بعد مئات من الأميال عن طيبة.

لم يكد يمضى يوم أو يومان على وصوله حتى كان رمسيس الثانى قد انهمك فى تفقد أحوال معبد أبيدوس :

«السنة الملكية الأولى .. بدأت الرحلة، فنشرت الأشرعة، والمراكب الملكية تضىء المياه، وأبحر (الأسطول) شمالا للعودة إلى «مقر البسالة»، من ممتلكات رمسيس الثانى «صاحب الانتصارات العظيمة» . وانحرف جلالته لزيارة أبيه (أوزيريس)، فعبر مياه قناة أبيدوس ليقدم العطايا إلى ون – نوفر (أوزيريس) مع كل ما تشتهيه نفسه من النفسائ».

وما أن نزل الملك إلى البر حتى لاحظ أن سير الأمور متعثر فى مقابر أبيدوس ومعابدها :

«وجد المبانى والمقابر فى جبانة الملوك السابقين بأبيدوس متداعية وعلى وشك الانهيار، وأجزاء منها لم تستكمل بعد.. والجدران مهملة ومتروكة بدون اكمال، وحتى حجارتها لم تكن مرصوصة. وما بدى فيه لم يلبث أن تفتت وعاد ترابا، ولم تستمر أعمال البناء .. بعد أن رحل أصحابها إلى السماء. ولم يجدد أى من الأبناء أثر أبيه فى الجبانة.

والحقيقة أن مقدمة ومؤخرة معبد من ما عت رع (سيتى الأول) كانتا فى طور الإنشاء عندما انتقل إلى السماء، وآثاره لم تستكمل، ولم ترتفع أعمدته على شرفاتها، وتمثاله راقد على الأرض لم ينحت حسب الأسلوب المتبع فى الورش المقدسة. وتوقف تقديم العطايا، ومن ثم توقفت الخدمة الكهنوتية. ونهبت المنتجات الحقلية، وحدود الحلول علاماتها غير ظاهرة على الأرض ».

ولم يتغاض رمسيس الثانى عن مثل هذا التقصير فى استكمال صرح أبيه الراحل. ونلفت النظر إلى أن التقرير السابق لم ترد فيه اشارة إلى اهمال فى الأعمال الجارية بمعبده هو نفسه المجاور لمعبد أبيه، ولعل هذا مرجعه إلى سوء تقدير المشرفين على العمل فى المعبدين فدفعوا العمل الخاص بالفرعون الجديد على حساب العمل فى صرح سيتى الأول، الملك الراحل. ولعل سيتى الأول كان يتابع سير العمل بنفسه عندما كان رمسيس نائبا للملك مشغولا بالأمور فى طيبة، حتى حانت له هذه المناسبة.

لذلك جمع الملك مجلس البلاط، وبعد أن أدوا فروض التحية والولاء، تحدث إليهم عما يجول بخاطره :

«انظروا، لقد جمعتكم لأعرض عليكم ما بفكرى .. لقد فكرت فرأيت أن أجل الأعمال هو تكريم من رحلوا عنا. أن العطف نعمة، ومن الخير للابن أن يهتم بأبيه. وقد عزمت على أن أخصص المنح لمن ماعت رع (سيتى الأول) ، حتى يقال لى إلى الأبد، «أن ابنه هو الذى خلد اسمه!» وبذلك ينعم على أبى أوزيريس، ويطول بقاء ابنه حورس (الفرعون) لأننى فعلت كما فعل..».

بعد هذا الكلام الذى احتوى أيضا على كلام مجمل عن فترة نيابته للملك – بأسلوب خطابى – شرع الملك فى سرد التفاصيل :

«رسم جلالته باعطاء الأوامر لمديرى الورش. وخصص الجنود، والعمال، والمثالين . وكل فيما يخصه عليه أن يشترك فى بناء معبد أبيه، وترميم ما تهدم فى الجبان».

وبذلك تحددت المخصصات والخدمات، وتقدم العمل ونحتت التماثيل، وسجلت أملاك المعبد وأوقافه، وتحدد سلكه الإدارى، وأسند الإشراف العام إلى كبير أمناء المبنى.

وفى هذه الأثناء كان رمسيس قد قام بالترتيبات لإجراء مراسم تعيين كبير كهنة آمون، كما استقر الرأى عليه وتشرف نب وننف بتقلد مهام الوظيفة في حضور الملك والملكة نفرتارى ورجال البلاط. وقد سجل لنا الكاهن مشاهد من هذا التقليدى فى هيكله الجنازى الواسع غرب طيبة ، وسجل الحدث نفسه كتابة بالنقش البارز :

«السنة الأولى ، الشهر الثالث للفيضان – عندما أبحر جلالته شمالا – من طيبة – بعد أن أدى مايسر آمون – رع. وموت .. وخنسو.. فى مهرجان أوبت الرائع . فرجع ونزل فى أبيدوس ..

وأدخل كبير كهنة آمون (المختار) نب وننف للمثول بين يدى الملك. وكان حتى هذه اللحظة كبيرا لكهنة الاله انحور، والربة حتحور ربة دندرة، وكبيرا لكهنة جميع الآلهة المحلية فى الجنوب من طيبة إلى طينة (ثينه) شمالا (قرب ابيدوس).

عندئذ خاطبه جلالته ، «أنت الآن كبير كهنة آمون! والمتصرف فى خزائنه وصوامع غلاله – وأنت المهيمن على أملاكه. وأوقافه تحت سلطانك، ومنذ الآن عهدنا إلى ابنك بأوقاف حتحور ربة دندرة ليرث وظائف أسلافك، التى هى وظائفك حتى الآن. أقسم برع الذى يحيا لى ويحبنى، وأبى آمون الذى يؤثرنى، لقد عرضت على آمون أسماء الهيئة الكهنوتية بالكامل بما فيهم كهنة آمون، ومعهم كبار موظفى أملاكه الذين كانوا ماثلين أمامه (أى تمثاله المنقول)، فلم يرض بأحد منهم، حتى ذكرت أسمك.

لذلك عليك الاخلاص فى خدمتى، ما دام قد اختارك بنفسه! وعلمى بك قديرا، فابذل جهدك حتى يصطفيك لنفسه – وأنا كذلك. وبذلك يعينك فتبقى مديرا لأملاكه، ويطول عمرك هناك، ويسمح لجسدك أن يستقر فى أرضه بمدينته (بعد موتك).

بعد ذلك سلمه جلالته خاتمين للتوقيعات وصولجان تقلد الوظيفة إلى منصب كبير كهنة آمون، والمشرف على خزائنه وصوامع غلاله وعماله .. وكل الصناع بطيبة. وبعث رسولا يعلن فى أنحاء البلاد أن أملاك آمون وأوقافه وهيئة موظفيه تخضع لسلطة (نب وننف) بتقليد من الحاكم باسم آمون (رمسيس الثانى)، عاش إلى الأبد».

بعد ذلك أبحر الكاهن جنوبا إلى معبده الجديد، وعاد الملك إلى شئون معبد أبيدوس. وبعدها أبحر شمالا للإشراف على تخطيط مقره الصيفى الجديد -مدينة رمسيس- حيث كان فى نية الملك أن يجعلها تنافس فى روعتها الحاضرتين العتيدتين - منف وطيبة.

بحث فى العقيدة (فلسفة الدين):

مرت السنة الثانية من حكم رمسيس بسهولة ويسر. ولكن رمسيس كان قد استقر عزمه على تغيير صياغة ألقابه قليلا. كان أبسط أشكال اسمه باعتباره ملكا للوجهين - مصر العليا ومصر السفلى - أوسر ماعت، مع ألقاب أخرى أحيانا والإسم مؤلف على غرار إسم أبيه من ماعت رع. ولم يعد هذا يروق لرمسيس فأضاف إليه ستب ان رع (المختار من رع)، فجعل صورة إسمه الجديد أوسر ماعت رع ستب- ان - رع (القوى فى الحق هو رع، الملك المختار من رع).

وذلك يحدد بداية موجة سوف تعطى فى المستقبل دفعة قوية لتأكيد العلاقة الخاصة بين رمسيس الثانى واله الشمس رع بمدينة هليوبوليس، فمن «ابن رع» تطور إلى ممثل رع الشخصى، وأخيرا إلى تجسيد الاله نفسه (أى أنه اله يسعى فى الأرض).

وفى أسوان أقيم نصب تذكارى ضخم لمجرد التذكير باستمرار محاجرها

في العمل وللإشادة بأعمال نائب الملك السابق فى قمع متمردى النوبة والقراصنة الذين هاجموا الوجه البحرى.

فى السنة الثالثة (١٢٧٧ ق.م) كانت الساحة الأمامية الكبرى والصرح الضخم والمواجهة بمعبد الأقصر قد اكتملت تماما، وبدىء فى أعمال الزخارف ذات الطبيعة المتأنية. وفى النص التكريسى أعلن رمسيس أنه «بنى بيته الخاص»، بعد أن تتبع فى الملفات المعبدية القديمة عقيدة غامضة تدعى أن آمون هو الاله المطلق، وأنه (رمسيس) هو المخول للبناء من أجله. أما على العالم الأرضي فهو الموكل أيضا بأمر أعمال آمون. وسجل النص بأسلوب أبوى :

«بالنسبة لهذا الاله الطيب (الملك)، كان قد بلغ الغاية فى العلم والكتابة مثل تحوت (اله الحكمة)، يعرف حقائق الأمور، خبير بقواعد السلوك .. والآن فرغ جلالته من البحث فى السجلات واطلع على مدونات «بيت الحياة»، فكشف عن أسرار السماء وخفايا الأرض، حتى انتهى إلى طيبة. ووجد أن طيبة هى عين رع بذاتها.

وهى أول قطعة من الأرض ظهرت عند بدء الخلق، منذ وجدت هذه الأرض (أرض مصر)، وكان أمون رع هو الملك، فأضاء السماء، وأشرق فوق قرص الشمس، ليرى إلى حيث وصلت أشعة عينيه فنشرت النور. فى عينه اليمنى ، فى إقليم طيبة، وفى مدينتها، فى «هليوبوليس الجنوبية» (التى هى طيبة نفسها). وعينه اليسرى، فى إقليم هليوبوليس -فى «هليوبوليس الشمالية» (أى هليوبوليس الحقيقية)- كذلك ملك مصر العليا والسفلى، آمون رع : الأبدى فى اسمه، الخالد فى طبيعته، الباقى فى مادته (أى جسمه)».

هذا البحث الطريف لم يقصد به أن يقتصر على النظرة الفلسفية فى الدين، فهو فى الحقيقة قاعدة يبنى عليها التطبيق العملى، فسرعان ما شرح الملك أسلوب تطبيقه :

«قال الملك أوسر ماعت رع ، المختار من رع (رمسيس الثانى) للنبلاء الحاضرين، أنا الواحد الذى تظهر على يديه الأعمال المفيدة ... "انظروا الآن لقد استقر رأيى على تنفيذ مشاريع (لآمون ...) ، وإقامة منشآت بمعبده جنوب (الأقصر). وتكلم الملك، فأصدر تعليمات بتنفيذ العمل .

على أن تشارك القوات المسلحة فى التنفيذ، (مع أسطول) يتناسب حجمه مع عدد البحارة المتوفرين لأعمال النقل شمالا وجنوبا .. (وتكون معهم) ... جراياتهم من الحبوب، (وما يحتاجونه) من الملابس، ولا يقولن أحد، آه .. ينقصى (هذا أو ذاك!) لقد انتهى العمل فى السنة الثالثة - شهر الفيضان الرابع، يوم ١٠ .. وصناعتها كلها على أكمل وجه، من الجرانيت .. ومن الحجر الأبيض الصلب، ومن كل أنواع الحجارة الجميلة الأصلية» .

وهكذا ارتفع سور الفناء الأمامى الجديد، والصرح وبوابته والتماثيل وصفوف الأعمدة الجديدة اللامعة تحت الشمس المشرقة القوية.

الذهب فى تلال النوبة النائية

وفى منف كان الفرعون الشاب النشيط قد تحول إهتمامه إلى الذهب. فالمشاريع الضخمة التى ينفذها تحتاج للبذل والسخاء من المعدن النفيس - الذهب. وبذلك الح على فكرة موضوع الحصول على الذهب لحاجته إليه. وكان لابد من السعى إليه فى تلال النوبة النائية بالصحراء الشرقية.

ووردت التقارير للملك بأن هناك ترسيبات غنية، إلا أنها فى منطقة جدبة، لا ماء فيها، قاتلة لأطقم التعدين. فآلى رمسيس الثانى على نفسه - وهو لم يبرح مقره - على حل مشكلة الماء بهذه البقعة، وسجل ذلك فى نقش بارز بمناسبة أحد احتفالات الأعياد اليوبيلية.

«السنة الثالثة – شهر الشتاء الأول، يوم ٤ (ديسمبر ١٢٧٧ ق.م.) تحت (حكم) رمسيس الثانى. الآن فى أحد هذه الأيام، تصادف أن كان جلالته جالسا على العرش المصنوع من معدن الالكتروم (مزيج طبيعى من الذهب والفضة)، وعلى رأسه العصابة ذات الريش الطويل. (وكان) يفكر فى أرض الصحراء المحتوية على الذهب، عاكفا علي دراسة الخطط الصالحة لحفر آبار الماء بطول الطرق الشاقة لحلوها من الماء، تبعا للتقرير الآتى : يوجد ذهب كثير فى صحراء أكوياتى ولكن الطريق إليها شاق لوجود مشكلة شحة الماء.

وأية إرسالية للموقع لن يصل إلا نصفها، وسيموت الباقون (من الرجال) مع الحمير التى تسبقهم من شدة العطش. ولا يمكن أن نجد لهم ما يحتاجونه من ماء الشرب، لا فى ذهابهم ولا فى عودتهم، ليملأوا منه القرب. ولهذا السبب لم يجلب ذهب من هذه الأرض بتاتا، بسبب الحاجة إلى الماء.

عندئذ قال جلالته لحامل الأختام الواقف بجانبه «الآن ادع كبراء البلاط، ليقوم جلالتنا بالتشاور معهم بشأن هذه الأرض. سأتولي الأمر بنفسى !» وفي الحال دعوا للمثول بين يدى الاله الطيب (الملك) .. متهللين خاضعين .. وتحدث الملك إليهم عن طبيعة هذا البلد، وتناقش معهم فى ذلك، وفى كيفية حفر بئر فى الطريق إليه

عند ذلك قالوا لجلالته : «أنت مثل رع فى كل ما عملته، وما يشتهيه قلبك لابد أن يتحقق، فإذا أردت فى الليل شيئا، فما أن تبزغ الشمس حتى يكون قد حدث.. فى الحال ! فإذا قلت للماء «تفجر من الجبل !» فسوف يفيض الماء من الجبل تبعا لأمرك، وبغزارة كما لو كنت رع بعينه، الشمس عند الشروق فى صورته الحقيقية (أى أن الملك هو التجسيد الحى لاله الشمس رع) أما أرض أكوياتى فهذا ما قيل عنها – تقرير من نائب الملك بالنوبة مرفوع إلى جلالتكم. هذه البلاد تعانى من نقص المياه منذ أيام الاله (أى منذ الأزل)، ويموت الناس

بها من العطش. وحاول كل الملوك السابقين حفر بئر هناك، ولم يفلحوا . وحاول سيتى الأول كذلك .

ففى أيامه دفعهم إلى حفر بئر بعمق ٢٠ كوبيت (١٨٠قدما). ثم تركوها غير جاهزة، لأن الماء لم يظهر، ولكن – طبعا– إذا قلت أنت لأبيك اله النيل .. «اجعل الماء يفيض من الجبل» ، سوف يفعل استجابة لطلبك ...»

فقال الملك لهؤلاء النبلاء. «صحيح ، صحيح حقا كل ما قلتم يا أصدقائى ! لم يعثر على الماء قط فى هذه البلاد منذ أيام الاله، كما تقولون . لكنى أنا الذى سوف يحفر بئرا تدر الماء كل يوم (كما فى مصر) – وسيرشدنى آمون أبى ... والالهة الصقور . وآلهة النوبة ... » . عندئذ سيمجد الكبراء الههم، ويركعون له، ويعلوصياحهم.

ثم قال جلالاته لكبير الكتاب الملكيين .. (ارسل رسالة إلى نائب الملك بالنوبة نصها : ابعث بمجموعة كشفية) إلى منتصف المسافة إلى أكوياتى، واسمح لهم بالبحث شهرا كاملا، ثم ارسل (تعليماتك) إلى هؤلاء العمال ونصها: (التعليمات الآن قد فقدت) (يعنى ألا يعودوا ويستمروا فى التنقيب – المترجم).

(فأرسل كبير الكتاب الرسالة وقام نائب الملك) بتنفيذ ما جاء بها .

وعندما بعث (الرجال للحفر) قال النوبيون (وغيرهم) : ما كل هذا الذى يفعله نائب الملك ؟ هل هنا حقيقة (ماء وهل) سيتحقق ما أمر به الملك، ويظهر الماء فى الطريق إلى أكوياتى ؟ لم يحدث شيء كهذا منذ أيام الملوك السابقين.

عندئذ حضر رسول يحمل رسالة من نائب الملك بالنوبة، (هذا نصها ....) «أواه، سيدى الملك، (سارت الأمور بالضبط) كما خرجت الكلمات من فيك ! وظهر الماء (فى البئر) على عمق ١٢ كوبيت (١٨قدما)، عمق الماء فيها ٤ كوبيت (٦ أقدام).

وتفجر الماء كأنما بفعل الاله، لأنه راض عن اخلاصك! لم يحدث مثل ذلك أبدا من قبل. وفاض السرور بعمدة أكوياتى. وأتى الناس من كل فج عميق ليشاهدوا البئر التى أوجدها الملك، فمياه العالم الآخر نفسها تشد أزره حين يحفر (بئرا فى الجبل) ! هذا ما تلاه كبير الكتاب فعلا نقلا عن رسالة نائب الملك.

بعدها عم الحبور والبشر رجال البلاط .. (وقالوا «ما أنت الا تحوت بعينه)، ولك خطط فعالة عندما تنفذ. وما تقوله (يتحقق يقينا! ...)».

من الآن سيطلق على البئر اسم «بئر رمسيس الثانى الباسل فى (فعاله؟)».

وهكذا بضربة معول، وربما بضربة حظ، عثر مندوبو الملك على الماء فى الصحار القاحلة بوادى العلاقى، وأصبح تعدين الذهب ممكنا ويبدو أن الملك فى كل أفعاله كانت لديه اللمسة السحرية.

مباشرة حرب سوريا

هذا هو الفرعون الذى ما كاد ينفرد بالحكم حتى دانت له الأمور، وكان النجاح حليفه فى كل أعماله، يأتى المعابد العظيمة، ومرسم الآثار الناجح، موجد الماء لعمال تعدين الذهب، معطى الوظائف العليا لمن يستحقونها، قامع الثورات الصغرى بأسلوب متمكن – فلماذا لا يجرب لمسته السحرية فى مجال آخر ، الحرب .

واختار أن يجرب حظه فى ميدان يسوده التوتر فى جبهة ظلت نائمة عشر سنوات كاملة – هى جبهة سوريا التى ضمها أبوه إلى مصر بعد نصره على الحيثيين فى قادش. وكانت قادش نفسها مع مملكة أمورو المجاورة لها قد ضمهما تحتمس الثالث إلى مصر.

لكنهما فقدتا منها بسبب إهمال أخناتون وأتباعه، لذلك لم يذكره رمسيس الثانى أبدا إلا بصفة «مجرم أخيتاتون»، وقد رأينا أن سيتى الأول أعاد فتح قادش، لكنه ردها إلى الحيثيين على اثر معاهدة لم يرض عنها رمسيس وظل أمرها يراوده.

ولما كان الفرعون الشاب بطبيعته متفائلا، فقد آلى على نفسه أن يسترد لمصر كل فتوحاتها السابقة خطوة خطوة. فوضع لذلك مخططا يبدأ بامتلاك الساحل أولا ثم استعادة مستعمرة أمورو، وبعدها قادش، ومنها إلى قلب سوريا الشمالى حتى حلب.. وليحاول الحيثيون أن يوقفوه إذا شاءوا

لذلك توجه رمسيس الثانى فى السنة الرابعة - صيف ١٢٧٨ ق.م. غالبا - إلى سوريا. فى ذلك الوقت كانت كنعان خاضعة له، لذلك سرعان ما وصل إلى الأراضى الساحلية بفينيقيا الجنوبية وأحكم قبضة مصر على صور وجبيل. ويبدو أنه تجاوزهما على الساحل واستولى على عرقاتا بعد حصار.

وبذلك سقطت أهم مدن فينيقيا فى قبضته. ومن محور ارتكازه المأمون هذا توغل فى العمق وجهة الشرق بين الجبال لمهاجمة دولة أمورو. ورغم جهلنا بتفاصيل الأحداث الا أن نتيجتها كانت استيلاء الفرعون على أمورو فى خلال شهرين، وأصبح يهدد قادش نفسها.

وفى هذا أخذ بنتو شينا ملك أمورو على غرة وأسقط فى يده حيث فاجأه الغزو بعد عشر سنوات من الهدوء فلم يتمكن حتى من الاستنجاد بسيده امبراطور خيتا (بلاد الحيثيين) القابع فى آسيا الصغرى البعيدة. لذلك لم يستطع سوى الخضوع لمصر مقابل دفع جزية سنوية. ولما كان يخشى أن يعزله الحيثيون ويتهموه بالتمرد، لذلك أرسل للامبراطور الحيثى - مولاه السابق- برسالة بها يقطع علاقته به.

وبهذا النجاح فى أول «حملة ظافرة» لرمسيس الثانى فى عهده الجديد، بدت له الأمور وردية. فارتد جنوبا على مهل ميمما شطر فينيقيا، وأقام أنصابا شتى في أماكن عديدة اشادة بها النصر: نصب تذكارى فى جبيل سنة ٤، وآخر على ضفاف نهر الكلب فى نفس السنة، وربما ثالث فى صور. المهم أن أمورو قد عادت إلى الحظيرة المصرية. وعندما عاد بموكبه الظافر إلى عاصمته بى رمسيس كانت عينه على قادش ليفتحها فى الصيف المقبل ! وظن الفرعون المتفائل أن استعادة الامبراطورية المفقودة بالكامل قد أصبح قاب قوسين أو أدنى.

لكن الطرف الآخر لم يسكت . ففى أقصى الشمال حيث البلاط الحيثى – على سهل الأناضول المرتفع – كانت الأمور مختلفة تماما. فقد وصلت إلى الامبراطور مواتاليس رسالة بنتو شينا الرسمية سريعا، تخطره باضطراره للانسلاخ عنه والإنضمام إلى مصر. وعلى أحسن الفروض يمكن اعتبار الرسالة حيادية. كيف يمكن للامبراطور القبول بذلك ؟

وبسرعة ومض فى ذهن مواتاليس حل ثلاثى : استعادة أمورو حماية قادش وما حولها : وتوجيه ضربة قاسية للفرعون الشاب، وتردعه فلا يمكنه بجيوشه أن يهدد ممتلكات الحيثيين فى سوريا بعد ذلك أبدا

وحسب تقاليد العصر توجه مواتاليس إلى الآلهة فى خبتا يطلب عونهم. وأقسم أمامهم أنه سوف يغدق عليهم بالعطايا الثمينة إذا يسروا له استعادة أمورو :

« فى أى حملة يقودها جلالتنا، آه يا آلهتى لو أيدتمونى فغزوت مملكة أمورو – سواء بقوة السلاح ، أو بايثارها لسالمتى – وأفلحت فى أسر ملك أمورو، فسوف ... أغدق عليكم بسخاء، آيه يا آلهتى!».

بعد هذا القسم شرع مواتاليس فى تنفيذ ما استقر عليه عزمه. ومن الشتاء إلى أوائل الربيع أحكم استعداداته (سنة ١٢٧٤ ق.م.) واتصل بالملوك من حلفائه وأتباعه ليعد جيشا كثيفا مدربا، ربما كان أكبر جيش حشدته الامبراطورية الحيثية فى تاريخها كله. وقد ورد فى تقارير مصرية بعد ذلك أن هذه القوات حشدت من ست عشرة مقاطعة ومملكة حليفة سوى القوات الحيثية نفسها، وأن عدة هذه القوات ٢٥٠٠ عربة قتالية وفرقتان من ١٨٠٠٠ و١٩٠٠٠ مقاتل على التوالى. وسواء أكان العدد صحيحا أم مبالغا فيه، فانه يدل على أن مواتاليس أفلح فى جمع قوة ضاربة كبيرة ليضرب بها ضربته القاضية.

انتزاع النصر من براثن الكارثة

رحلة سريعة :

فى جو الربيع المشرق الدافىء - (نهاية ابريل سنة ١٢٧٤ ق.م.) - ساد الهرج والمرج مدينة بى رمسيس، بشرق الدلتا. فأخذت كتائب المشاة تحتشد، وقوافل عربات القتال تلف وتدور ليروض سائقوها خيولهم الجامحة، وفتحت خزائن السلاح على مصراعيها لتتدفق منها السهام والسيوف والحراب والأقواس ليحصيها الكتبة المتمرسون ويسلموها للقواد كل حسب حصته.

وعلى بعد من الثكنات العسكرية كان الملك يشاور أركان حربه ويضع اللمسات الأخيرة لخطة سير الحملة الجديدة. واستقر الرأى على أن يقود الملك بنفسه الجزء الأساسى من الجيش عن طريق البر إلى كنعان ثم جنوب سوريا حتى يصل إلى قادش، بينما تسلك القوات المعاونة (المدد) طريق الساحل الفينيقي ثم تنحرف للداخل شرقا لتلتحم بالقوات الرئيسية بقيادة الفرعون فى قادش، على أن يكون وصولها فى نفس اليوم الذى تصل فيه القوات الأساسية. وأخيرا أعلن ملخص خط السير :

«بعد أن أعد جلالته فيالقه وعرباته القتالية، والشرادنة الذين جندهم جلالته بعد أن انتصر عليهم ، والجميع فى السلاح والعدة ، شرحت لهم خطط الحملة. ثم يعمم جلالته شطر الشمال بقواته. وقد بدأت المسيرة بشكل جيد ، فى السنة الخامسة ، فى شهر الصيف الثانى، اليوم التاسع واجتاز جلالته القلعة الحدودية عند سيلى، جبارا مثل منتو عند ظهوره. وارتعدت فرائص البلاد الأجنبية كلها أمامه، فسارع حكامها بحمل الجزية، وبادر الثائرون بالاستسلام، خوفا ورهبة من جبروت جلالته».

وسار رمسيس على رأس جيشه الذى قسمه إلى أربع فرق : آمون، ورع، وبتاح، وست، بأسماء كبار الآلهة. وكان فى معيته أحد الوزراء وبعض أولاده الصغار فى حشد من أفراد العائلة الملكية، بالإضافة إلى عدد من حريمه وحرسه الخاص، راكبا عربته الذهبية المتلألئة . وفى خط سيره مر بغزة، ثم عبر كنعان بسرعة، ثم صعد فى طريق الجليل، وتجاوز بحيرة الحولة صعودا إلى الممرات التى تخترق وادى البقاع العريض المرتفع بين سلسلة الجبال التى تفصل بين لبنان والأراضى غير اللبنانية، وتقدمت القوات بثبات :

«اخترقت قواته الشعاب الضيقة، كما لو كانت تمشى فى شوارع مصر».

وفى وادى البقاع العريض، وصل رمسيس إلى مدينة «رمسيس التى تقع فى وادى الأرز»، وربما يقصد بها كوميدى، وهى قريبة من عاصمة أوبى الإدارية.

ففى مدى شهر واحد فقط من مبارحة الأراضى المصرية - أواخر مايو سنة ١٢٧٨ ق.م (السنة ٥- شهر ٢ صيفا- يوم ٩)، كان رمسيس «فى حملته الثانية الناجحة» قد عسكر فى خيمته على تل (كيموات هرميل) جنوب قادش. «وبدا بهيا كأنه الشمس المشرقة، وقد لبس درع منتو»، وكان كل شىء يبدو مطمئنا صباح هذا اليوم، على بعد أميال قليلة من قادش.

وتعجل الملك الشاب في الوصول إلى قادش . فسار فى حاشيته وأركان حربه وحرسه الخاص ميمما نحو الشمال، تتبعه أولى فرق الجيش، فرقة آمون. أما الفرق الثلاث الأخرى فكانت منتشرة على بعد عدة أميال من المقدمة، لذلك شرعت فى التجمع تدريجيا قبل الزحف. وفى أثناء اختراق غابات لابوى للوصول إلى المخاضة عبر نهر العاصى بالقرب من شبتونة، وقع فى أسر قوات الملك رجلان من قبيلة الشاسو من المنطقة الحدودية شبه الصحراوية.

وتعهد الرجلان أن يضمنا تأييد شيوخ قبيلتهما وولاءهم لمصر والانسلاخ عن الحيثيين. وفى الحال أمر رمسيس باستجوابهما: أين كان هؤلاء الشيوخ ؟ فأجاب الرجلان على الفور : «أنهم موجودون حيث يوجد امبراطور الحيثيين، وأن الحيثيين الأعداء فى حلب شمال تونب، وأن الامبراطور يخشى التقدم نحو الجنوب منذ سمع أن الفرعون يزحف نحو الشمال !».

الو صول المأمـون :

وسر الفرعون سرورا بالغا بهذه الأنباء. فالامبراطور الحيثى قابع فى الشمال وبينه وبين سوريا ١٢٠ ميلا، ومتقاعس عن القتال لا يريد صداما. وصدق الفرعون الخبر لأنه أراد تصديقه، واعتبر أن ما قالاه هو الحقيقة. ولم يحاول الملك ولا مخابراته الاستمرار فى استجواب الشاهدين أكثر من ذلك. واجتاز الملك المخاضة وهو فرحان ثم عبر السهل المؤدى إلى قادش، تتبعه عن قرب فرقة آمون. لقد كان النصر سهلا فى الحملة السابقة، والآن تبدو الأمور حسنة، واطمأن الملك ومرافقوه إلى ذلك ومضوا متثاقلين وقد تركوا الحذر متجهين شمالا فى السهل ليختاروا مواقعهم ، ويعسكروا شمال غرب قادش.

وتقع قادش فوق ربوة على لسان أرضى بين نهر العاصى – الذى يجرى شمالا ويخترق الجزء الشرقى من المدينة – وبين رافد آخر يجرى من الغرب

ويصب فى نهر العاصى نفسه شمال غربى المدينة، مما يوفر بعض الحماية للمدينة. وقد شق أهل المدينة قناة صناعية عرضية من الرافد تصب فى النهر جنوبى المدينة. وبذلك تحولت قادش عمليا إلى جزيرة محمية يصعب اقتحامها

تحطم الأوهـام :

ما أن عبر رمسيس وحاشيته وفرقة آمون المصاحبة له الرافد الغربى عصر ذلك اليوم ، حتى شرع الجميع فى نصب معسكراتهم فى مواجهة المدينة مباشرة. وجمع بهم الخيال فتصوروا أن بامكانهم وضع الحصار عليها فى اليوم التالى، واستقر الفرعون على عرشه الذهبى انتظارا لوصول الفرق الثلاث الأخرى.

ولكن سرعان ما وقع شىء لم يخطر لهم على بال. ويتلخص هذا الحدث فى أن جهاز الاستخبارات العسكرية المصرية أرسل بعض الكشافين للاستكشاف والتجسس وتمكنت إحدى الدوريات من أسر جاسوسين من جواسيس الحيثيين، فأحضروا بسرعة للمثول أما الفرعون الذى عقدت الدهشة لسانه :

«فسألهم الفرعون –من أنتم ؟ فردوا– نحن من جنود امبراطور الحيثيين! أرسلنا لنستكشف موقع جلالتكم. فقال لهم جلالته – وأين هو .. أين امبراطور الحيثيين؟ احترسا فقد سمعنا أنه فى حلب شمال تونب. فأجابا – رويدا أيها الملك، ان امبراطور الحيثيين قد أتى فعلا بجيشه يؤازره حلفاؤه من بلاد كثيرة .. ولعلمك فهم معسكرون خلف قادش القديمة على تعبئة ومتهيئون للحرب والقتال».

واندهش الملك ، فقد صدق أن الحيثيين فى حلب على بعد مائتى ميل وإذا بهم لا يفصله عنهم سوى ميلين اثنين.

وغضب الملك غضبا شديدا وجمع هيئة القيادة العليا وقص عليهم هذا الخبر الرهيب :

«انظروا يا حضرات حكام المناطق ويا كبار ضباطى لما يجرى. لقد ظلوا (المخابرات) يرددون : «ها، ان امبراطور الحيثيين فى حلب، بعيدا فى الشمال، شمال تونب !.. والآن، فى هذه الساعة، سمعت من هذين الجاسوسين الحيثيين، أن امبراطور الحيثيين وحلفاءه فى جيش جرار، وهم متوارون الآن خلف قادش القديمة، ومع ذلك لم يستطع قوادى وضباطى أن يكتشفوا أنهم أتوا !».

وصب الملك جام غضبه على جهاز مخابراته .

وحسب المعلومات الجديدة شرع رمسيس فى اتخاذ إجراءات مضادة فعالة وسريعة تحسبا من أى هجوم مفاجىء. وفى ذلك الوقت كانت فرقة رع قد بدأت تعبر السهل نحو المعسكر. ولكن فرقتا بتاح وست كانتا متأخرتين ولم تعبرا نهر العاصى بعد. وأسرع الملك بارسال وزيره متبوعا بحامل كئوسه وأحد الكشافين لاستعجال فرقة بتاح التى كانت ما تزال فى غابات لابوى وأرسل معه رسالة عاجلة نصها : «اسرعوا بالزحف ! سيدكم الفرعون يقف فى المعركة وحيدا !» ورتب الفرعون تأمين ابعاد العائلة الملكية من الميدان بالفرار غربا تفاديا للخطر المحدق، وجعل على رأس المسيرة الأمير برحرونمف . عندئذ وقعت الواقعة.

ثبت صدق أقوال الجاسوسين تماما. إذ أن الملك مواتالليس بعد حشد جيوشه الكثيفة - التى قد يكون عددها قد أربى على ضعف جيش مصر- زحف بالجيوش داخل سوريا الغربية، وعسكر خلف سلسلة الأشجار والمخابىء الأخرى على الشاطئ الشرقى فى مواجهة قادش.

وكان كشافوه يراقبون مسيرة الجيش المصرى فى الجنوب. فأرسل

الامبراطور هذين الرجلين من قبائل الشاسو ليحتالا على تضليل الفرعون المختال. وفي هذه الأثناء أخذ يعبئ قوته الضاربة المكونة من العربات العربية كى تندفع غربا عبر مخاضة العاصى المنخفض- جنوب قادش مباشرة - لينقضوا عليها فى اللحظة الحرجة بقيادة الأمراء الحيثيين.

الكارثــة

كان رمسيس وقواده يتشاورون فى خطط الطوارئ، فجأة حلت الكارثة. فقد ظهرت عربات الحيثيين الحربية على حين غرة وهى تتجه صفا صفا من النهر غربا لتعبر سهل قادش، وأخذت تطيح بصفوف فرقة رع التى فوجئت بالهجوم، فشقتها شطرين ثم اندارت عليهما لتشتت شملهما. وتحطمت صفوف فرقة رع من هول الهجوم والمطاردة الدموية من عربات الحيثيين الحربية وفرت نحو المعسكر، حيث فرقة آمون المرافقة للملك.

وكانت فرقة آمون حتى هذه اللحظة سليمة لم تمس. وعند رؤية الغارة - الفارين تتبعهم عربات العدو مصفرة الجو من حولها ومندفعة نحو المعسكر فى شراسة - تفرق شمل فرقة آمون هى الأخرى وتشتتوا شذرا مذرا. واندفعت عربات الحيثيين لتطوق المعسكر وتصول فيه وتحول بدون رادع.

واندفعت فصيلة من المقاتلين والعربات فى دروعهم نحو الجانب الجنوبى للمعسكر ولكن بدون جدوى. وبدا للعيان أن الخسارة لا محالة واقعة ، وأن الفرعون سوف يهزم، وأن أحلامه لابد أن تتبدد. وبدا أن الامبراطور الحيثى مواتاليس قد أمسك بزمام الأمور وأنه فى طريقه إلى القضاء على أحلام منافسه قضاء مبرما.. إلى الابد.

لكن رمسيس لم يذهله الموقف أمام هذه الأحداث المتلاحقة، وأدرك أن عليه أن يتصرف بسرعة وفى الحال صاح بقائد عربته وقفز إليها وأخذ يحاول

تجميع قواته لكى تشد أزره ولكن دون جدوى. وألفى نفسه وحيدا ! لكنه كان مستعدا حتى وهو وحيد لمقاتلة الحيثيين ومقارعتهم وفى ذلك يقول :

«عندما رأى منا حامل درعى عربات العدو الكثيرة تحاصرنى اصفر لونه وتسمر مكانه رعبا وصاح فى جلالتى: « يا الهى الطيب، والأمير الجبار ... نحن نقف وحدنا أمام العدو. وقد فر مشاتنا وعرباتنا وتركونا! لماذا تبقى لتنقذهم ؟ لنكن واضحين، انقذ نفسك وايا، يا أوسر ماعت رع! » عندئذ قال جلالته لحامل درعه : قف مكانك واثبت يا حامل درعى! سأواجههم مثل منقار الصقر، وسأعمل فيهم تقتيلا وتذبيحا وألقيهم أرضا!».

ولم يتمكن الملك إلا من جمع شرذمة ممن حوله، بهم أخذ يهاجم المغيرين هجوم اليائسين، وآلاف من الأفكار تتوارد على خاطره : إلى متى تصمد فيالقه الفارة المذعورة، والصلاة لآمون الذى طالما أخلص فى خدمته كى يخرجه من ورطته، وكثير غير ذلك. وست مرات على الأقل التحم مع العدو فى قتال شرس ليحدث ثغرة وارتباكا فى صفوفهم.

فى ذلك الوقت العصيب، جاءته النجدة من جماعة منسية تماما فى خضم المعركة ، إذ جاء المدد من ساحل أمورو، وقوامه النيريانيون الذين وصلوا إلى الميدان فجأة علي تعبئة رائعة والتحموا فى القتال على الفور. وألفت عربات الحيثيين نفسها بين المدد الذى يهاجم جناحها الأيسر ورمسيس والقلة التى معه تهاجم بضراوة جناحها الأيمن.

وأحست القوة المهاجمة بالخطر الذى يتهددها وخشيت مغبة حصارها والقضاء عليها، فتقهقرت ولكن بثبات نحو الجنوب مبتعدة عن طائلة المصريين حتى تعيد تنظيم صفوفها لتعاود الكرة من جديد، فتقضى على الهجوم المضاد للمصريين، قبل أن يتعزز ويستفحل أمره.

لكنهم فى ذلك لم يفلحوا !، لأن رمسيس الثانى لم يعطهم الفرصة وانقض عليهم ، فبدأ القتال يحتدم بين الطرفين، وضغط المصريون على عربات العدو فدفعوها للخلف جنوبا ثم شرقا حتى بلغوا شاطئ النهر من حيث أتوا .

ولم تفلح موجة العربات الثانية التى دفعت على عجل لنجدتهم فى انقاذ الموقف، بل وجدت نفسها متورطة في الارتباك الذى حدث فى صفوف العربات الحيثية.

فى ذلك الوقت كان امبراطور الحيثيين الحذر - واتاالليس - مستعدا بين قواته المعبأة المستريحة. وكان صوت المعركة يصله فى معسكره فيتقلل راضيا، ظنا منه بأن عرباته قد نفذت ما عهد إليها به. وفجأة تحول رضاه إلى ذهول، وهو يرى عرباته قد بدأت فى الظهور فى حالة فرار واضحة، وهى تتجه نحو النهر لا تلوى على شىء، وفى أعقابها القوات المصرية تطاردها بلا هوادة وعلى رأسها الفرعون نفسه .

وأصاب الامبراطور الذهول وهو يشاهد بنفسه أن جيشه يتشتت، ويقع جمعهم فى الماء، أميرهم وحقيرهم، سابحين إلى الضفة اليمنى طلبا للنجاة والرجوع إلى صفوفهم الآمنة، وهم يتدافعون فيقعون فى الطين. ومن المضحك المبكى أن أمير حلب نفسه قد أصابه ما أصابهم فوقع أثناء تقهقره فى النهر وابتلع كمية كبيرة من المياه، لدرجة أن أعوانه قلبوه من عقبيه ليفرغوا ما بجوفه من ماء.

الغار مع العار :

بعد أن عبرت آخر فلول الحيثيين إلى الضفة الأخرى، وبدأت العربات المصرية في الانتشار لحراسة البر الغربى للنهر، أصبح رمسيس الثانى هو المسيطر على الموقف. وأخيرا، قرب إنتهاء المعركة ظهرت طلائع فرقة بتاح وعلى

رأسها الوزير. وبسرعة انشغلوا فى حصار الأسرى، وأخذوا يجمعون الأسلاب ويحسبون الخسائر البشرية بأسلوب رهيب بقطع يد من كل جثة ثم إحصائها

فى هذه الأثناء كانت فلول فرقة رع المذعورة، وفرقة آمون المدهوشة تنضم بالتدريج إلى قوات المدد الرئيسية من فرقة بتاح والحلفاء. وأوجز رمسيس وصف ما حدث فيما يلى :

«وجاء جيش لتقريظى مدهوشين مما صنعته ...» فأسرع بشجب جبنهم وعدم تنظيمهم «ماذا تنتظرون أن يقول الناس عندما يسمعون (انكم) فررتم عنى، وتركتمونى وحيدا؟ وأنه لا جندى ولا ضابط ولا قائد حاول أن يساعدنى فى القتال ! لقد قهرت الملايين من الأراضى الأجنبية، وخرجت بالنصر فى طيبة وحدى والاله موت راض. وللحق وجدت جياد عربتى العظيمة ! هى التى وجدتها وأعانتنى وأنا وحيد أحارب الجيوش الأجنبية. وسوف أنحنى لها بنفسى وهى تتناول علقها كل يوم أمام ناظرى فى قصرى. وإليكم من وجدته يمد يد المساعدة فى المعركة : انهم قائد عربتى ومنا حامل درعى وحملة كئوسى. فهم شهود المعركة ، وهم من وجدتهم (بجانبى)».

ومع الغروب والحضور المتوانى لفرقة ست ذهب المصريون إلى معسكرهم ليستريحوا بالليل. أما عبر النهر فكان معسكر الحيثيين يعج بالنشاط ويحتشد لتقييم المعركة والتعرف على نواحى الخلل فى حربهم، وأدركوا واقع الأمر، فقد منيت فرقتا آموت ورع من جيش مصر بخسائر جسيمة. وخرجت فرقتا بتاح وست سليمتين، ومعهما الامداد والقوات المعاونة. أما فى معسكرهم هم فكانت كل قوات المشاة الكثيفة سليمة لم تمس، بالرغم من أن خسائر العربات كانت فادحة . لكن الطلب الجلل الذى أقض مضجع مواتاللیس ومجلس حربه كان خسارة عدد من القادة، وان كان أمير حلب قد نجا بعد حادث تجرعه الماء وخسر الملك اثنين من اخوته، واثنين من حاملى دروعه، وأمين سره، ورئيس

حرسه المخصوص وأربعة من قواد عربات المقدمة، وستة من قيادات الجيش من مختلف الرتب.

فيما عدا الخسائر الأخرى العرضية وكانت نتيجة تقييمهم للوضع تتلخص فى أن الفشل سببه الرئيسى بنية رمسيس الثانى القوية وشجاعته الفائقة، ثم وصول المدد الذى لم يلحظوه، ثم القبض على جاسوسيهم.

نهاية المعركة :

فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، اعتقد رمسيس الثانى أنه يستطيع أخذ زمام المبادرة فعبأ قواته بسرعة وأخذ يهاجم الحيثيين بعنف مثل هذا الهجوم لو كان على غرة ومعززا بعربات حربية تفوق ما لدى العدو، كان من المرجح أن يؤتى ثماره ويزعزع مراكز الحيثيين ويدفعهم إلى التقهقر.

ولكن الحيثيين كان لهم التفوق العددى، كما أن قواتهم كانت جيدة التنظيم، لكن سلاح عرباتهم كان جريحا. لذلك وجد كل من الفريقين نفسه فى وضع لا يحسد عليه فلم يستطع الحيثيون رد المصريين على أعقابهم، كما وجد المصريون أنه ليست بهم طاقة لمقابلة قوات مواتالليس المتماسكة. فانفصل الجيشان وكفا عن القتال ترقبا لما سوف يحدث.

ورأى مواتالليس الحكيم، الأمين على سياسات بلده أن الطرق الدبلوماسية هى خير وسيلة لحل العقدة. وكان هذا الملك المجرب هو بعينيه – منذ خمسة عشر عاما مضت – الذى حقق السلام مع سيتى الأول على أساس اعتراف الطرفين بالأمر الواقع، وضمن احتفاظ الحيثيين بأمورو وقادش.

فكان أن بادر مواتالليس بارسال وفد للفرعون حاملا معه مقترحات الصلح. وتفاصيل ذلك كله مجهولة. لكن يمكن القول بأن مواتالليس بدأ بتهنئة الفرعون على بسالته ثم دخل فى الموضوع : الصلح على أساس الأمر الواقع.

وجمع رمسيس مستشاريه وعرض عليهم مقترحات الحيثيين ليستشف ما في صدورهم :

«وقالوا في نفس واحد : السلام شيء عظيم، يعلو على كل شيء، يا مولانا الملك، ولا يوجد من يعارض التسوية إذا أبرمتها أنت، فمن ذا الذي يجرؤ على الوقوف في طريقك يوم غضبك ؟».

واستنتج رمسيس أن الجيش قد اكتفى وليست لديه رغبة في مزيد من الصدام مع الحيثيين، أو حتى مجرد مهاجمة قادش كذلك لم يستسغ أن يقر السلام على أساس افلات قادش وأمورو من أيدي المصريين، وهو الذي كان معترضا على ذلك في نفسه أيام أبيه.

لذلك عزم رمسيس على حل المشكلة بصورة مؤقتة محتفظا لنفسه بحق العودة عندما يتيسر الحال مستقبلا. فرفض توقيع أية معاهدة تحتوي بنودها على اتفاقية بشأن قادش وأمورو. وفي مقابل ذلك وافق على وقف القتال هذه المرة. ورأى أنه بذلك يمكنه أن يأمر جيشه بحزم متاعه وبدء التحرك الطويل في الطريق إلى الوطن، وفي خاطره أنه يستطيع معاودة الكرة ومهاجمة سوريا في أي وقت يشاء .

وكان في هذا متفائلا أكثر مما يجب، وربما يكون قد خانه بعد النظر. فعلى الرغم من فشل مواتاليس في أبعاد عدوه الزئبقي السريع الحركة. أو توقيع سلام حقيقي معه، إلا أنه حصل على فرصة ذهبية يلتقط فيها أنفاسه.

العودة للوطن في جو عاصف :

تحرك الجيش المصري الضخم جنوبا، في أواخر شهر الصيف الثالث، فعبر نهر العاصي عند شبتونة إلى كنعان ويمم وجهه شطر مصر. وفي بداية السنة السادسة ، في الشهر الرابع، كان قد جاوز القلعة الحدودية المصرية عند

سيلى، متوجها للدلتا ليصل إلى العاصمة الصيفية. ودخل رمسيس المدينة فى موكب حافل يتقدمه الأسرى والغنائم راكبا عربته المتلألئة واتجه نحو ساحة قصر بى رمسيس فى ذروة حرارة شمس يونيه / يوليه ١٢٧٤ ق.م.

أما فى الشمال فما كاد رمسيس يرحل حتى أصبح مواتالليس هو سيد الموقف. والحقيقة أن انتصار رمسيس عند قادش كان نصرا شخصيا هزيلا، إذ ترك رمسيس – ثانى أيام المعركة – الميدان وآثر ألا يورط جيشه فى قتال آخر، وعاد للوطن. وأثبتت الأسابيع التالية أنه فى ميدان السياسة انهزم رمسيس هزيمة مؤثرة. فما أن خلا لمواتالليس الجو والتقط أنفاسه حتى أحكم قبضته على قادش ثم تحرك غربا لاخضاع أمورو. وهناك خلع مواتالليس ملك أمورو المذكور بنتوشينا عن عرشه، وأحل محله ملكا جديدا هو شابيلى. وأبقى الامبراطور على حياة بنتوشينا لكنه نفاه إلى هاتوساس حيث استبعده خاتوسيلى آخو الامبراطور بعد ذلك.

إذن فقد حقق مواتالليس هدفه السياسى الرئيسى برد قادش وأمورو إلى حظيرة الحيثيين، رغم عجزه عن دحر رمسيس الثانى. وبعد أن فرغ من ذلك رأى أن بإمكانه تحقيق المزيد من أطماعه ودفع المصريين إلى الوراء أكثر فأكثر ففى الوقت الذى كان رمسيس يقترب فيه من أراضى الوطن، كان مواتالليس يقود جيشه ويتجه به جنوبا بدلا من العودة به إلى وطنه فى الشمال، فعبر وادى بيكا، وهدد المركز المصرى فى كوميدى، ثم اتجه شرقا خلال جبال لبنان القديمة لاحتلال دمشق ومستعمرة أوبى المصرية.

وكان لدى المصريين ما يشغلهم من الهموم عن التفكير فى أمر قادش وأمورو. وكانت النتيجة أن توسع الحيثيون وضموا إلى ملكهم ما ضموا غنيمة باردة. فإذا كان رمسيس قد كابر ورفض التوقيع على معاهدة «معقولة»، فقد كان عليه أن يدفع الثمن.

فى ذلك الوقت حل موعد الأعياد فى خيتا، وكان على الملك أن يعود إلى بلاده ليشهد الاحتفالات الدينية ويشكو الآلهة على الانتصارات التى حازها. لذلك توجه إلى الوطن، وترك خلفه أخاه العنيف وذراعه اليمنى - خاتوسيلى - لتنظيم شئون المستعمرة التى وضعوا يدهم عليها حديثا، مستعمرة أوبى.

ولكن نجاح الحيثيين فى هذه الجبهة جاءت مقابله خسائر مؤثرة على جبهة أخرى ففى غمرة أحداث قادش الدموية، انتهز ملك آشور الجرىء، حداد نيريرى الأول الفرصة، ووضع عينه على أرض هانيجالبات، وهى ما تبقى من امبراطورية ميتانى العظيمة وقت حكم أخناتون.

وقد كانت هانيجالبات موضع نزاع قديم بين الحيثيين والأشوريين وفى موقعة قادش تحالفت مع مواتالليس وأصابها بعض الخسائر بلا شك، وهى وقت لم يتوقعه الحيثيون ولا أهل هانيجالبات زحف الأشوريون غربا وقهروا الملك وأساشاتا وضموا هانيجالبات إلى الأملاك الآشورية، التى امتدت بذلك حتى منعطف نهر الفرات الغربى.

وفى أعقاب الغزوة، وفى نشوة النصر، كتب حداد نيريرى إلى مواتاللّيس رسالة ليس فيها شىء من الكياسة والدبلوماسية المعهودة بين الأقران. وفى الرسالة ادعى لنفسه، بحق الغزو، لقب «الملك الأعظم» (مركز القوة العظمى)، وعرض على الامبراطور أخوته أو الدخول فى حلف معه، وفى حالة رفضه فسوف يقتحم عليه سوريا إلى جبال عمانوس ومن يدرى فربما توغل فى خيتا نفسها

وإزاء هذه الرسالة الاستفزازية، اشتعل الامبراطور غضبا ورد عليه ردا لاذعا :

«انك تطنطن بانتصارك على واساشاتا وأرض الحوريين، وقد غزوتها ولا

شك عنوة. وهزمت حليفى ونصبت نفسك «ملكا أعظم». لكن ما هذا الذى لا تفتأ تردده عن «الأخوة».

أنت وأنا هل ولدنا من أب واحد وأم واحدة ؟! (بالعكس) ان أبى وجدى لم يتعودا على الكتابة إلى ملك آشور عن «الأخوة»، فكف عن معاودة الكتابة عن الأخوة والملك الأعظم فلست أرغب فى مناقشة الموضوع» .

اذن لم تكن محصلة حرب قادش كلها مغانم للحيثيين. فأوبى التى ضموها ضئيلة الأهمية إزاء تهديد سوريا كلها من الشرق بعد ضياع الدولة التى كانت حامية لحدودها، دولة هانيجالبات. وللحقيقة قام على حكم هانيجالبات ملك جديد – شاتوارا الثانى – وكان مستعدا للنضال ومحالفة الحيثيين ضد آشور، ولكن ما حدث بعد ذلك لم يفلح فى تعزية مواتاالليس عن مصابه بأسر واساشاتا ووقوعه بين براثن الذئب الأسيوى بعد انتهاء معركة قادش بفترة وجيزة.

الصراع من أجل سوريا

الاحتفالات والترقيات والإنشاءات بأبى سمبل :

استقر رمسيس الثانى فى عاصمته الصيفية بى رمسيس التى أخذت تتسع بسرعة حينئذ وفى قصره بالمقر رأى رمسيس الثانى أن يخلد انتصاره الذى انتزعه من براثن الهزيمة فى قادش. فلو لم يخاطر بنفسه فى شرذمة من مرافقيه الذين جمعهم على عجل ويحقق الانتصار.

فماذا كان يحدث لمصر؟، كانت طبعا قد أصبحت بلا قيادة، وفقدت امبراطوريتها، ولكن الشجاعة والبسالة والجرأة التى ظهرت منه شخصيا هى التى حسمت الموقف. وان كانت المعركة لم تسفر عن احتلال قادش، أو أن الحيثيين بعد رحيله استرجعوا أمور وضموا أوبى المصرية .

فإن ذلك فى نظر الفرعون المتفائل المختال شىء يسير يمكن معالجته خلال سنة أو اثنتين ما دام القائد سليما معافى. فسوف يتطور بآلات الحرب ويجدد جيشه ويرفع مستوى قيادته وكفاءتهم ويهتم بموضوع الذكاء الحربى (المخابرات).

فبطولته فى قادش لم تكن فى نظره نهاية حلم، ولكنها كانت بداية مرحلة استفاد منها. فهى لديه المقدمة لإنجازات كثيرة وعظيمة سوف يحققها فى مقتبل الأيام.

واحتفالا بالحدث العظيم : الفرعون وحده بشجاعته وبسالته وجرأته يحول الهزيمة نصرا، رأى أن تسجل «ملحمة» مصورة بالنقوش البارزة السامقة تصف الموقعة. فأمر كبار كتابه وفنانيه بتأليف وتصميم هذه الملحمة، قبل تنفيذها على الجدران والصروح بمعابد مصر الكبرى.

وسرعان ما فرغوا من وضع التصميم المطلوب بأسلوب التصوير ذى البعدين، الذى لم تعرف مصر غيره طوال العصر الفرعونى :

اللوحة الأولى :

تحتوى على مشهدين فى قصة ملحمية: تصوير المعسكر المصرى وعرش الملك واستجواب كشافى الحيثيين وهجوم العربات الحيثية على المعسكر، ثم وصول المدد .

اللوحة الثانية :

الملك فى عربته وهو يهاجم الأعداء ويقاتلهم بشراسة وبسالة. واضطرار العدو للتقهقر بلا نظام لدرجة وقوعهم فى نهر العاصى، بينما يقف ملك الحيثيين على الجانب الآخر للنهر عاجزا عن التصرف، وحوله جيشه الذى لم يشترك فى

المعركة مشلولا عن الحركة. وباللوحة اطار علوى بداخله تصوير لقلعة قادش الحصينة. ولم تخل اللوحة من روح الفكاهة بتسجيلها لأمير حلب فى وضعه المقلوب عندما كان أعوانه يفرغون جوفه من الماء.

اللوحة الثالثة :

لوحة فرعية عبارة عن منظر مثول الأسرى أمام الملك ، ثم الملك والأبناء يسرقون الأسرى والغنائم ويهبونها للآلهة ، يصاحب ذلك عدة نصوص شعرية تتحدث عن يده الحملة. ثم المفاجأة التى حلت بالجيش المصرى، وطرد الحيثيين، ثم معركة اليوم الثانى، ثم «التماس» الحيثيين للصلح.

هذه خطة لتصميم عظيم لا يقل روعة عن برامج الصوت والضوء الحديثة، سرعان ما شرع فى تنفيذه علي الجدارين الخارجيين الشمالى والغربى لمعبد رمسيس الجديد بأبيدوس، ثم على كل الجدار الخارجى الجنوبى لبهو الأساطين الكبيرة بالكرنك (استبدلت هذه المشاهد فيما بعد بمناظر تعالج حروبا أخرى) ، ثم بطول مدخل الكرنك الجنوبى من الجانب الغربى ، وكذلك فى ثلاثة مواضع بمعبد الأقصر : واجهة الصرح، وخارج البهوين، ثم مرتين فى ساحات معبد الرمسيوم الخارجية عبر النهر. وسوف نرى أن نموذجا آخر خلدته آثار النوبة البعيدة (فى القاعة الرئيسية لمعبد أبى سنبل الكبير).

وعندما تيقظ رمسيس الثانى لفشل جيشه المزدوج ، فى حرب الذكاء (المخابرات) وفى المعركة، يبدو أنه أجرى تغييرات جذرية فى مراكز القيادة العليا بالجيش، إلا أن هذا الموضوع ألقى عليه التاريخ ستارا كثيفا كالعادة. ولما كانت الترقيات تتبع التخفيضات عادة فإن الاستنتاج يكون له ما يبرره.

فنلاحظ مثلا أن آمون ام اينت - رفيق الفرعون القديم - رقى إلى منصب رسول الملك لكل البلاد الأجنبية. ويقول الرجل بهذه المناسبة موضحا

طبيعة عمله الجديد : «ارفع له (الفرعون) تقارير عن أحوال البلاد الأجنبية كلها». وواضح من هذا أن رمسيس قد أجرى تغييرا فى «جهاز المخابرات والمعلومات». وما هذه الا عينة.

ولكن رمسيس الذى لا يتطرق الكلل إلى نفسه كان لديه مزيد من الوقت يمضيه فى وضع مشاريع معمارية بعد الفراغ من مشاكل الحرب والسياسة. واتجهت عيناه هذه المرة نحو الجنوب، إلى النوبة. فعلى بعد أميال قليلة من أكشا شمالا، وعلى بر النيل الغربى يوجد جرفان عاليان ميلهما شديد جدا، يتركبان من صخور رملية وردية اللون، ظاهران من الوادى الضيق هذه هى صخرة ايشك - أبو سمبل الحالية فقرر الملك نحت معبدين فى هذه الصخور الحية ففى الجرف الجنوبى نحتت واجهة كبيرة يتناسب حجمها مع الصروح الضخمة، أقيمت فيها أربعة تماثيل عملاقة للملك وهو جالس، يزيد ارتفاع الواحد منها على ٦٥ قدما، لتكون بمثابة مدخل يؤدى إلى معبد كل أبهائه منحوتة فى الصخر الحى بطول ١٦٠ قدما فى قلب الجبل نفسه. وعلى الجدار الشمالى من الداخل لأول هذه الأبهاء - وهو بهو معمد - صورت معركة قادش لتشغل كل هذا الجدار.

هذا الصرح الكبير كرس كمعبد تذكارى لرمسيس الثانى فى النوبة، تحت رعاية الاله آمون - رع . وفى الجرف الشمالى الذى يبعد عن الأول عدة مئات من الياردات، أقيمت واجهة أخرى كمدخل لمعبد صخرى آخر منحوت داخل الجبل لمسافة ٨٠ ياردة . وقد كرس رمسيس هذا المعبد لعبادة الالهة حتحور، باسم الملكة نفرتارى. فى هذا المعبد يخيم الجو العائلى على صورة ستة تماثيل واقفة عملاقة للملك والملكة تزين الواجهة. ومعها تماثيل أصغر حجما لأطفالهما. وبذلك استغل الفرعون موضع الجرفين الفريد فى بناء معبدين واحد له والآخر لملكته المقربة.

وترك منفذو هذين المشروعين التوأم بصماتهم للأجيال التالية منوهين بعملهم الضخم. فقد صور ايونى - نائب الملك ومدير المشروع التنفيذى المقيم - مشهدا لنفسه وهو واقف أمام الملك، بالضبط بحذاء حافة الواجهة الشمالية لمعبد الملكة - تنويها باشتراكه فى العمل.

وعلى العموم كان هذا آخر أعماله الكبيرة، إذ عين بعده نائب ملك جديد ليكمل العمل، هو حقا نخت. وكان الرجل الثانى على المستوى التنفيذى فى بدء تشييد معبد أبى سمبل، هو آشا - هيسيد وهو من أتباع الفرعون الثقات وساقى الملك الذى رقى إلى منصب كبير السقاة وتسمى باسم رمسيس - عشاحب سد، تعبيرا عن ولائه للفرعون هذا الرجل ما أن وصل إلى الموقع - كمشرف مقيم - حتى وجه نشاطه المعهود نحو عمل الإجراءات اللازمة للبدء فى تشييد المعبد الكبير. وقد ترك لنا بطاقته - كما فعل ايونى - فى نقش بارز عميق يبدو فيه واقفا أمام الفرعون معلنا :

«انظر ، ان ذهن الملك متيقظ لتحين اللحظة المناسبة لتقديم القرابين لأبيه - الاله حورس محا- فى الحقيقة ليبنى له معبدا يعيش ملايين السنين، ويقوم بتنفيذه قوة من العمال قوامها الأسرى الذين طالتهم ذراعه القوية من كل البلاد الأجنبية ، فملأ مزارع الآلهة بالأطفال السوريين كغنيمة وقد كلف ساقى الملك مجددا بالسيطرة على أرض كوش، باسم جلالته العظيم ..».

وهكذا نرى أن عشاحب سد كانت له سلطات مطلقة، للسيطرة على النوبة، وهو ما قد يكون ايونى منى بالفشل فيه. فأضيف إلى أعبائه تسهيل العمل فى المعبد الجديد الضخم. وقد أطلق اسم محا على الجرف الجنوبى، وخصص لعبادة الآله حورس المحلى، تحت اسم ابشك . أما الجرف الشمالى فاطلق عليه اسم حتحور. ولكن حورس المحلى لم يقدر له أن يكون له ظهور فى معبد الملك بعد ذلك.

الصحوة والثورة :

لم تشهد فترة الاثنى عشر شهرا بين منتصفى سنة ٦ ، ٧ الملكيتين – بما فيها صيف ١٢٧٢ ق.م. – حركات حربية ذات بال . ويبدو أن رمسيس الثانى ركز إهتمامه فى هذه المدة على إعادة بناء جيشه المهلهل وتنظيمه. ومن الطبيعى أن تكون آلة الحرب فى شكلها الجديد بحاجة إلى التدريب والتجريب. ومن المرجح أن يكون الملك قد اختار ميدان التدريب بعد تحديث جيشه فى جبهة يذكرها جيدا منذ شبابه هى جبهة ليبيا الساحلية، فى حملة سهلة لردع هذه الجبهة وكفها عن إثارة أية مشاكل له إذا رأى التوجه إلى سوريا.

فى ذلك الوقت كانت سحب الاضطرابات تتكثف على الجبهة السورية بالذات. فقد أدى انسحاب رمسيس من قادش، وخروج أوبى من قبضته بدون أن يظهر من الملك أى رد فعل مناسب بالإضافة إلى عدم عودة الملك إلى سوريا فى حملة صيفية فى ذلك العام، كل هذه العوامل أدت إلى اعتقاد كنعان بأن ذلك دليل ضعف.

فبدأ حكام كنعان يتغاضون عن دفع الجزية لجباتها من المصريين. وفى نفس الوقت كانت هناك ممالك فتية قد بدأت فى الظهور، منها مثلا مملكة مؤاب التى تلى البحر الميت، ومملكة أدوم سير جنوبها مباشرة، وهاتان المملكتان رفضتا السيادة المصرية.

ومن جهة أخرى بدأت قبائل البدو من سير – المعروفة بالساشو – فى الإغارة على قلب كنعان. وخلاصة ذلك كله أن جبهة سوريا شهدت فى هذه الفترة اضطرابات خطيرة لم تشهد مثلها منذ عشرين عاما– أى منذ أيام سيتى الأول. ومع ذلك فلم يستطع رمسيس الثانى أن يحرك ساكنا هذا الموسم بالذات.

فلما كان الربيع التالى بين سنتى ٧ ، ٨ (صيف ١٢٧٢ ق.م.) أخذ رمسيس بين يديه أزمة الأمور، وقاد حملته الصيفية فوصل غزة بسرعة، وأوقف حكام كنعان التابعين عند حدهم، فأيقنوا أن الوضع لن يتغير. وفى هذه الحملة تمكنت احدى الفرق المصرية خفيفة الحركة من طرد الساشو ودفعهم نحو الشرق خارج حدود كنعان كلية.

وبعد ذلك تعامل رمسيس مع شرق فلسطين، فأرسل الأمير الكبير آمون حرخبشف (عرفناه من قبل باسم آمون حرونمف) على رأس فرقة سريعة الحركة فعبر تلال النقب عبر الوادى الصخرى جنوب البحر الميت ثم صعد إلى ادمون سير فغزا مدنها.

ثم اتجهت قوات الأمير شمالا عبر منحدر زرد العميق إلى قلب مؤاب وعلى طول الطريق التقليدى المعروف باسم «الطريق الملكى السريع» لغزو بوتارتو (رابا باتورا). وفى نفس الوقت كان رمسيس نفسه يزحف صانعا قوسا فى اتجاه عقرب الساعة ليتمم تحركات الأمير - عبر جبل كنعان المركزى الرملى ويتجاوز أورشليم (القدس الحالية)، ثم فوق الأردن حتى يتجاوز أريحا والحد الشمالى للبحر الميت، ثم يتجه جنوبا فيخترق مؤاب لضرب مدينة ديبون.

وبعد الاستيلاء على هذه المدينة اتجه رمسيس جنوبا عبر وادى أرنون وروافده، للالتحام بالأمير آمون حرخبشف.

بهذا تكون كنعان قد أخضعت وهدأت، ويكون في وسع رمسيس أن يتطلع إلى الشمال مرة أخرى، فيستمر صعدا فى «الطريق الملكى السريع» فيمر يهشبون، وعمون، ويتجاوز عشتروت- قرنايم إلى دمشق صاعدا منها إلى كوميدى، فيسترد مستعمرة أوبى المفقودة ويعيدها للسيادة المصرية. وبانجاز كل ذلك يصبح رمسيس فى حل من العودة للوطن مطمئنا ظافرا.

العودة لمهاجمة سوريا :

أخيرا أحس رمسيس أن بإمكانه خوض المغامرة واسترداد سوريا . فقام فى الربيع بين سنتى ٨ ، ٩ (١٢٧١ ق.م) بالقضاء على آخر جيوب المقاومة فى شمال كنعان، وسيطر على الخارجين فى تلال الجليل (ماروم وبيت عنات)، واحتل ميناء عكا .

ومن عكا أصبح فى وسعه أن يصول ويجول على طول ساحل فينيقيا الجنوبى، شمالى عكا، وبذلك يثبت حقوقه فى ميناءى صور وعكا، وفى بيروت وجبيل وأولازا وارقاتا ثم سامراء. ويعتقد أنه أشاد بذلك فى نقوش حفرها فى صخور مدخل بحر الكلب

إلى هنا لم يحرك الحيثيون ساكنا، ولم يحاولوا رد الاعتداء. فلو توقف رمسيس عند هذا الحد لكان خيرا له. لكنه لم يفعل، بل واصل تقدمه وأسرع يفرض الحصار على أمورو وقادش، فاتخذ طريقه إلى الشرق ثم توغل إلى الداخل عبر وادى الاوليثريروس هابطا شمالا إلى وادى نهر العاصى. بذلك يكون رمسيس الثانى قد توغل فى أرض يسيطر عليها الحيثيون، لم تطأها قدم الجيش المصرى منذ مائة وعشرين عاما .

ولم يكتف بذلك بل افتتح دابور «المدينة التى افتتحها جلالته فى أرض أمورو» عن نص سجل سنة ٨، الواقعة على حدود أمورو الشمالية.

بعد ذلك إتجه رمسيس شمالا واحتل مدينة تونيب المستقلة. وفى دابور نفسها، أعلن الفرعون صراحة عن امتلاكه لها بإقامة تمثال لنفسه فى هذه المدينة. وبامتلاك مجرى نهر العاصى الأوسط أمل رمسيس الثانى أن يتمكن من تضييق الخناق على شمال سوريا الواقع تحت سيطرة الحيثيين، فقد شطرت أمورو وعزلت عن قادش واستحال عليهما الاتصال بالحيثيين وحكامهم

فى حلب شمالا، أو قرقميش وبلاد خيتا الحقيقية. وحقق رأس الجسر هذا الذى صنعه رمسيس نصرا مؤقتا له على أمورو وقادش المعزولتين، وهذا بدوره خطوة كبيرة للتوسع فى شمال سوريا نفسها.

وحيث أن كل حملات رمسيس موسميه، لذلك يرجح أنه عاد إلى عاصمته بى رمسيس فى أوائل السنة التاسعة محققا إنجازات عظيمة - وإن كانت وقتية، خصوصا أن الحيثيين لم يحركوا ساكنا هذه المرة.

أما السبب فى صمت الحيثيين فكان له ما يبرره. فبعد ربع قرن من حكم حافل مات امبراطورهم مواتاليس - وقت حملة سوريا المشار إليها غالبا- فحدثت أزمة فى تولى العرش وسبب الأزمة أنه لم يترك وريثا شرعيا لأنه لم ينجب من كبرى ملكاته ولدا ذكرا، وكل ما كان له من ذكور غلام صغير إسمه أورحى - تيشوب من إحدى محظياته .

وأصبح هذا الغلام ملكا تحت إسم مورسيل الثالث. وشعر الملك الشاب بتضاؤل نفوذه بجوار نفوذ عمه هاتوسيل رجل خيتا القوى، الذى يعتبر رجل الساعة.

ولما كان مورسيل لا يثق فى عمه هذا فقد عمل على إبعاده إلى حدود خيتا الشمالية ولم يبق فى حوزته سوى قوات ضعيفة، وحدد له مهمته التى تنحصر فى السيطرة على قبائل الكاسكيان القوية الشكيمة.

لذلك كله توجس مورسيل من مبارحة الوطن كى يعالج مشكلة سوريا تاركا خلفه عمه الطموح. وكانت النتيجة أن فوض نائبه فى سوريا - ملك قرقميش- فى التصدى للهجمات المصرية على الجبهة السورية، وهو إجراء ولا شك قليل الفاعلية.

المأزق السورى :

بمجرد عودة رمسيس إلى مصر، لم يجد جواسيس خيتا وقرقميش صعوبة تذكر فى تحريض المدن المحتلة مثل أوبى ودابور على إبعاد المفوضين المصريين والعودة إلى حظيرة الحيثيين. فمصر بعيدة جدا، وجيوش قرقميش وحلب ونوحاس قريبة جدا مشكلة لها تهديدا مباشرا لذلك عادت هذه المراكز بعد فترة احتلال مصرية قصيرة إلى الخضوع لحكم الحيثيين.

لذلك عاد رمسيس على رأس حملة جديدة فى السنة العاشرة (١٢٧٠ق.م) وأعلن عن اجتيازه لأراضى فينيقيا بإقامة نصب تذكارى عند نهر الكلب. ثم سار فى إتجاهين شرقا وشمالا فاسترد دابور .

ولم ينس الفرعون المتباهى وهو فى منتصف الثلاثينيات أن يتيه بقوته البدنية، وتوجد له فى ذلك نقوش في الأقصر والمسيوم يظهر فيها رمسيس الثانى وهو يطلب سهامه على دابور، ومعها نص مسجل يقول :

«هذا الأسلوب فى حصار ومهاجمة هذه المدينة الحيثية التى بها تمثال لجلالته، قد طبقه جلالته مرتين، فى حضور فيالقه وعرباته التى يقودها لمهاجمة هذه المدينة الحيثية العدوة الواقعة فى منطقة مدينة تونيب فى أراضى النهرين. وقد أخذ جلالته درعه الواقى ليلبسه – بعد ساعتين (من القتال السافر) وهو واقف أمام فيالقه وعرباته مهاجما تلك المدينة الحيثية، بدون دروع. عندئذ فقط عاد جلالته ليأخذ درعه الواقى مرة أخرى، كى يلبسه. والآن ، لقد استمر ساعتين يهاجم مدينة الحيثيين العدوة ... بدون أن يلبس درعه ».

هذا النص الثقيل الممل يدل على شىء واحد، وهو أن رمسيس كان على رأس جيشه يقاتل ببسالة. ولا شك أنه كان محظوظا إذا لم تحسبه سهام العدو والذى لاشك فيه أنه أخضع دابور ثم عاد إلى مصر.

وكالعادة ما كاد رمسيس يبتعد حتى ارتد السوريون ببساطة إلى الحظيرة الحيثية. ترى كم سنة ضاعت فى هذا الأخذ والرد؟ لا أحد يدرى ، لكنه رمسيس المكابر الذى ظن أنه يمكنه السيطرة على الأحداث.

وعلى الرغم من عناد رمسيس وإصراره، إلا أنه أدرك أخيرا أنه ما دام قد عجز عن إخضاع شمال سوريا كله حتى نهر الفرات وطوروس فلن يتسنى له المحافظة على وسط سوريا هادئا.

من أجل ذلك أوقف حملاته الشمالية على سوريا فى السنوات من الحادية عشرة إلى السابعة عشرة، وقنع بالسيطرة على مستعمرات مصر التقليدية، وكف عن محاولات التوسع، «حول بصره إلي جبهات أخرى.

أما على الطرف الآخر فى خيتا، فقد كانت الأمور بين الامبراطور مورسيل الثالث (أورجى – تيشوب) وعمه الشديد المراس قد وصلت إلى نقطة اللاعودة.

الخروج - حول بنى إسرائيل من مصر :

كانت شرق الدلتا منذ العهود القديمة من المناطق التى تعددت بها الجنسيات والألسن. وبعد نهاية الدولة القديمة بدأ توافد الساميين عليها يتزايد أثناء الدولة الوسطى حتى بلغ الذروة فى عصر الهكسوس وبعد أن استقروا فى شرق الدلتا بدأوا فى التغلغل فى خدمة البيوت المصرية فانتشروا لدرجة أنهم عرفوا فى أعالى النيل.

ومن الأمثلة المشهورة فى تيار الهجرة إلى مصر فى عصر الهكسوس هجرة يوسف (عليه السلام) (خروج : ٢٧ ، ٢٩-٥٠). وفى عصر الدولة الحديثة، أحكم عظماء فراعنة الأسرة الثامنة عشرة الرقابة على ممر سيلى الحدودى.

لكن المستوطنين فى الدلتا كان عددهم قد زاد بشكل ظاهر إلى عدة ألوف، معظمهم من الكنعانيين والعموريين والحوريين من أسرى الحروب الذين سخروا للعمل فى مزارع المعابد الكبرى ومرافق الدولة الرسمية.

فلما نشطت حركة بناء المخازن والصوامع لتخزين الريع من الغنائم والجزية حشد عدد كبير من الأجانب بالدلتا للعمل فيها بالسخرة. كذلك جندوا للعمل الاجبارى فى بناء السدود وغيرها من الأشغال العامة.

وتلغلغل هؤلاء الأجانب فى المجتمع المصرى، فلم يقتصر وضعهم على الطبقات الدنيا فى المجتمع. فبالإضافة إلى التجار وأعضاء السلك الدبلوماسى، كان هناك أحرار من المستوطنين تدرجوا فى وظائف الدولة إلى أعلى الدرجات مثل القائد أورحيا الذى وصل إلى رتبة الفريق فى الجيش وأصبح منتميا إلى الطبقة العليا فى المجتمع . وكان من هؤلاء أيضا بعض المقربين من الفرعون نفسه، حملة كئوس (سقاة) بل ومستشارون للملك.

وفى عهد الملك حور محب يحتمل أن يكون الملك قد سخر الدرجات الدنيا منهم فى أعمال البناء بشرق الدلتا نفسها، عندما قام بتوسيع معبد ست بأفاريس.

ومن بين هذه المجموعات كانت هناك مجموعة عرفت باسم الهابيرو وأصلها غامض، وسخرت فى أعمال كثيرة منها العمل المضنى فى مشاريع البناء وعندما كان رمسيس الثانى فى أواسط عمره، كانوا يعملون له : «الجنود والعابيرو الذين ينقلون الحجارة لعمل الصرح.. من أجل رمسيس الثانى». ومعنى ذلك أن هذه الفئة كانت تعمل بالسخرة إلى جانب الجنود المصريين المجندين تجنيدا اجباريا، فتوجه جانب منهم للعمل فى المشاريع العمرانية وهى حالة كانت شائعة جدا فى مصر القديمة.

وتذكر التوراة أنهم «بنوا للفرعون مدنا للتخزين (صوامع ضخمة لتخزين الغلال) منها بينوم ورمسيس » (خروج ١١:١). وواضح من النص أن المقصود بمدينة رمسيس فى التوراة ، مدينة بى رمسيس عاصمة الفرعون الصيفية.

وتذكر التوراة أن موسى عاد إلى مصر ليطالب الفرعون باطلاق الإسرائيليين من نير السخرة. وبعد أخذ ورد ومقابلات متعددة وافق الملك العنيد على السماح للإسرائيليين بأن يرحلوا عن مصر. وهو لم يفعل ذلك على رضى منه ولكن بعد أن رأى من الآيات ما جعله يؤثر رحيلهم. فتحت ضغط ما شاهده من كوارث: فيضان مدمر للنيل، تدمير للمحاصيل، انتشار الأمراض وتفشى الطاعون. ثم جاء موت ولى العهد (آمون حرخبشف) فكسر صلف الملك وغروره فأجاب موسى إلى طلبه[١].

واتخذ اليهود فى هجرتهم من مصر طريقهم من بى رمسيس جنوبا ثم شرقا حتى سكوت ؟، ثم اتجهوا شمالا بحذاء البحيرات المرة. لقد أصبحوا محصورين ! ولم يفلت رمسيس هذه الفرصة، فأرسل فى أثرهم تجريدة كبيرة من العربات الحربية حاصرت «هذا العدد الضخم من عمال السخرة» (خروج ١٣ : ٧) .

لكن رياحا عاتية هبت علي البحر الأحمر والبحيرات، ففرقت الماء فرقين وأوجدت للإسرائيليين طريق الفرار وما أن تابعتهم العربات حتى انطبق عليها البحر فغرقت ووقعت بين المصرين خسائر فادحة. «وعلى الشاطئ المقابل كان النصر لبنى إسرائيل، لا لجحافل الفرعون» (خروج ١٥).

وآثر الإسرائيليين ألا يتخذوا طريقا نحو كنعان لكى لا يقعوا تحت طائلة الفرعون وأتباعه بسهولة. لذلك مضوا جنوبا وشرقا متوغلين داخل سيناء نفسها

(١) لم يتفق كل المؤرخين وعلماء المصريات وعلماء الآثار على تحديد شخصية فرعون موسى وإن الأكثرون يعتقدون أنه رمسيس الثانى بسبب ذكر كلمة رمسيس فى التوراة ، والمعروف أن التوراة حرفت.

وعند جبل سيناء، أصبحوا شعبا لهم « ملكهم الكبير»، وباركهم اله آبائهم الذين أخرجوهم من مصر، ووفروا لهم الفرصة (خروج ٢٠) للحياة بصورة أكثر استقرارا وعقلانية بعد أن طرحوا فكرة الخضوع لأيديولوجية اليد الحديدية.

هذه الواقعة التى تسميها التوراة بواقعة الخروج، لانجد لها أثرا فى نقوش رمسيس الثانى المتصفة بالتغالى والغرور ولعل ذلك أمر طبيعى، فمن ذا الذى يشيد بذكر خسارة مثل سرب عرباته الذى أغرق فى اليم، أو المتاعب المتوقعة لفقدان مثل هذه القوة العاملة الضخمة التى أصبحت تفتقدها الورش وقمائن صناعة الطوب وبسرعة غطى على أخبار المحن، فالطاعون والمرض والسيول كلها ذكريات أليمة مضت يجب نسياتها، وحتى العبرة التى تدل عليها هذه الأحداث سرعان ما أسدل عليها الستار وذهبت فى زوايا النسيان.

على أى الحالات كانت خسارة مصر الامبريالية خسارة مؤقتة بخروج اليهود. لكنه بالنسبة لليهود أنفسهم كان حدثا تاريخيا ضخما، أحدث تأثيرا عميقا فى مجريات التاريخ العام خصوصا من الناحية الروحية والعقائدية. وتذكر الأدبيات الإسرائيلية (خروج ١ :٢٠) شيئا عن الدولة الحديثة فى مصر، فتذكر طرفا من أخبار مجتمع دير المدينة (العمالى) ، وشيئا عن حصص الطوب الموكولة للمسخرين، واستعمال التبن مما له أهمية فى المقارنات مع البرديات فى الدولة الحديثة. وفيها ذكر حتى لنظام الأجازات بدير المدينة.

كذلك تذكر قسوة الفرعون فى معاملة العمال الأجانب - فى النوبة تحت اشراف نائب الوزير ستاو - وتجرى مقارنة بين هذه المعاملة والمعاملة الرفيعة التى يجدها العمال المصريون. كذلك تتحدث هذه الأدبيات عن صلف رمسيس وعناده المستمر. والمعتقد أن هذه الوقائع حدثت فى وقت ما خلال الثلاثين سنة الأولى من حكم رمسيس الثانى الطويل- ربما سنة ١٥، والكتابات اليهودية تتوافق على أية حال مع هذا التاريخ.

المغامرة الأفريقية

الجبهة الشمالية الغربية :

كان رمسيس الثانى مشغول البال دائما بالجانب الآخر من الدلتا، الجبهة الليبية، وهى جبهة شارك أباه فى حملته عليها وهو بعد أميرا والآن، وقد أصبح ملكا وأثناء فترة الهدوء الإجبارى بعد قادش، قرر رمسيس الأخذ بسياسة طويلة المدى للسيطرة علي الشريط الليبى الساحلى وفرض الرقابة الدائمة على سكانه.

من أجل ذلك أخذ فى دعم سلسلة من المستوطنات بطول حافة الصحراء الغربية بالدلتا من منف وحتى البحر، كان يبنى فيها أحيانا معابد جديدة لآلهة المنطقة الغربية المحلية. هذه المستوطنات ما هى الا مدن صغيرة قديمة لم يبق منها اليوم سوى أطلالها وهى : أكوام أبوبللو، والحصن، وفيرين، وعبقان، والبرتوجى.

بعد ذلك بنى الفرعون سلسلة من الحصون على حافة الدلتا قرب البحر المتوسط وتنتشر غربا لمسافة طويلة نحو الغرب، خلف الساحل الليبى، هذه المنطقة تبدأ من الغربانية الحديثة والعلمين (ذات الشهرة العالمية الآن) وتنتهى فى أم الرخم وطولها ٢٠٠ ميل من منبع «النهر العربى».

والمعروف حاليا من هذه السلسلة من الحصون ثلاثة فقط بين الواحد والآخر مسيرة يومين على الأكثر للمترجل ويوم واحد لراكب الدابة أو العربة التى تجرها الدواب. مثل هذه الحصون يسهل عليها أن تراقب تحركات قبائل البدو الليبية أو أية جماعات أخرى قد تأتى من الغرب الأقصى. بذلك يكون من السهل كشف أية تحركات مريبة وارسال أخبارها بسرعة، أو طلب الإمدادات العسكرية لمواجهة أى تهديد بالغزو فى وقت مناسب.

وبذلك تكون حماية مصر من هذه الجبهة قد توفرت، هذا المخطط أثبت نجاحه طوال حياة رمسيس الثانى، كما أنه فعال فى فرض رقابة عادية روتينية على المنطقة. وأيا كان الحال، فهذا النوع من الحصون الذى يضم حاميات وثكنات عسكرية كان ضروريا للغاية فى تلك الأيام.

وتذكر الروايات التاريخية أنه فى زاوية أم الرخم ، على بعد ٢٠٠ميل من أرض الوطن كان قائد أحد الحصون هو نب رع الذى كان كاتبا ملكيا وقائدا عسكريا ومحافظا فى نفس الوقت (يعنى أنه حكم القلعة حكما عسكريا مدنيا معا). وكان الحصن الذى يحكمه يضم داخل أسواره ثلاث بنايات رئيسية واحدة منها على الأقل كانت معبدا .

العودة إلى ارم في النوبة العليا :

ظلت النوبة ساكنة لمدة تقرب من جيل كامل. وقبل ذلك كان الملك سيتى الأول قد أدبها بشدة، كما قام الأمير رمسيس أثناء نيابته بحملة عسكرية صغيرة لتأديب منطقة بالنوبة السفلى. ويبدو أنه خلال العشرين سنة الأولى من حكم رمسيس الثانى ثارت الذكريات القاتمة لهاتين الحملتين فى نفوس النوبيين.

ومما اشعل الموقف وزاده سوءا تصرفات نواب الملك بالنوبة، فقد كان حكمهم المستمر، وافراطهم الدائم فى استغلال مناجم الذهب وتسخير الأهالى فى أعمال التنقيب واستخراج الذهب وفرضهم للضرائب التى تثقل كاهل الاقتصاد النوبى الضعيف - شيئا يثلج صدر الملك لا الأهالى.

لذلك لم يكن هذا الحكم من عوامل استقرار المنطقة، لأن هذه التكاليف المرهقة كانت عاملا من عوامل الإثارة التى تدفع الشيوخ المحليين إلى الثورة والتحدى - شجاعة أو يأسا- للتخلص من الإدارة المصرية

فى ذلك الوقت فكر رمسيس الثانى بتذكيرهم بأيام سيتى الأول فأرسل حملة عسكرية فى الوقت المناسب لتعزيز موقف نائب الملك فى النوبة. وأشرك رمسيس فى الحملة أربعة من أولاده الأمراء منهم ست أم ويا ولده الثامن، والأمير مرنبتاح ولده الثالث عشر وكانا فتيين فى العشرينيات من عمرهما. ولتوقف العمليات على الجبهة السورية كانت تلك الحملة بالنسبة لهما فرصة جيدة للتدريب واكتساب شيء من الخبرات العسكرية. ولاشك فى أن الحملة أدت ما عليها بسرعة. وكانت حصيلتها أسر سبعة آلاف أسير نوبى والقضاء على ثورة ارم وقمعها بصورة تجعلها غير قادرة على القيام بأية محاولة مستقبلية لمقاومة الحكم المصرى.

وعندما أريد الإشادة بالحملة وجد أن جدران معبد العاصمة الإقليمية «رمسيس المدينة» ليس بها فراغ لتسجيل مثل هذا الحدث المحلى فنحتت مشاهد القتال المطلوب حفرها على الطلاء الخارجى السميك لجدران بوابة المدينة الرئيسية، مع البوابة الغربية حتى يراها الرائح والغادى فلا ينسى جبروت رمسيس الثانى وأفاعيله فى أهل الجنوب، وبذلك لا تسول له نفسه محاولة اشعال الثورة مرة أخرى.

وسجل هذا النصر فى أبيدوس أيضا بشكل مختصر، أضيف إلى البوابة البرجية الثانية لمعبد رمسيس الثانى هناك. ولكن يبدو أنه حدثت بعض الارتباكات والموانع فلم تستكمل تلك النقوش.

الســـــلام

العا صفة قبل الهدوء - أزمات الحيثيين

الأزمة الأولى : ثورة القصر فى خيتا

مضت سبع سنوات كان الملك مورسيل الثالث (هو نفسه الفتى أورحى تيشوب) يحكم امبراطورية خيتا بصفته الملك الأكبر ابن امبراطور الحيثيين. وكانت ثقته فى عمه هاتوسيل شبه معدومة. وقد سبق أن ذكرنا أن الامبراطور نفى عمه هذا إلى أقصى حدود خيتا الشمالية بحجة الدفا ع عن الحدود.

وتحت نفس الستار أخذ العم يجمع المنشقين من كل نوع ويضمهم لخدمته. ولارتيابه فى عمه أخذ الملك يقلص بالتدريج حجم مقاطعة هاتوسيل حتى قصرها على مدينة رئيسية واحدة هى هاكبيس، التى كان هاتوسيل ملكها المحلى وأسقفها منذ عينه الملك الراحل مواتالليس هناك.

وأخيرا انقطعت الشعرة التى كانت تربطهما : عزم أورحى تيشوب علي تجريد هاتوسيل حتى من هاكبيس نفسها، فأحس هاتوسيل أن العزل والاعتقال سوف يتبعان هذه الخطوة حتما، فلم يعد يحتمل فاتهم أورحى تيشوب بأنه هو الذى فتح باب العداء وجاهر بذلك برفع موضوع النزا ع بينهما للحكم فيه إلى كل من الربة عشتار ربة ساموحا التى يعتبرها الحامية له وراعيته، وكذلك إلى اله الجو بمعبد نيريك.

وتقدم زورحى تيشوب بقواته نحو عمه لاعتقاله، لكن هاتوسيل أفلح فى تطويق الملك عند ساموحا نفسها وتمكن من أسره. وظهر هاتوسيل فى صورة المنتصر، وأصبح للحيثيين ملك جديد هو هاتوسيل رجل العصر القوى. وقد اعتلى العرش تحت اسم هاتوسيل الثالث وبجواره زوجته التى أصبحت الملكة

بودوخيبا. ولم يقم هاتوسيل بإعدام غريمه أورحى تيشوب واكتفى بنفيه إلى إمارة نوهاسى الواقعة شمال سوريا.

وقعت هذه التطورات فى السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس الثانى. ومن الطبيعى أن رسل الملك ومخابراته كانت تحيطه علما بمثل هذه المعلومات والأحداث الدامية أولا بأول، خصوصا وأنها كانت تحدث فى قلب امبراطورية خيتا العظيمة – غريمته اللدود. ومن عجائب القدر أن يجد رمسيس الثانى نفسه قد غرق إلى أذنيه فى خضم هذه الأحداث.

الأزمة الثانية : التهديد بالحرب مرة أخرى :

لم يقنع الفتى أورحى – تيشوب بالمكوث ساكنا فى منفاه بنوهاسى، فبدأ فى التآمر بمؤازرة بلاط ملك بابل البعيدة. ولكن مؤامراته اكتشفت فنفاه هاتوسيل إلى مكان ما على ساحل البحر – ربما يكون قبرص. ثم أن هاتوسيل الثالث أجرى اتصالات دبلوماسية مكثفة بملوك الدول الكبرى الأخرى للحصول على اعتراف كامل بمشروعية حكمه. وبمضى الوقت أمكنه أن يدخل فى حلف مع كاوشمان تورجو ملك بابل. كذلك سعى للتقارب مع شلمنصر الأول ملك آشور الجديد الذى اعتلى العرش في وقت قريب عقب اعتلاء هاتوسيل عرش خيتا.

ولم يبق غير مصر التى استمرت العلاقات بينها وبين بابل متوترة . ولم يبق غير مصر التى استمرت العلاقات بينها وبين بابل متوترة. ورغم نجاح دبلوماسية هاتوسيل الشرقية، إلا أن مشاكله لم تنته. فقد أفلح غريمه الثائر أورحى تيشوب فى الفرار إلى مصر نفسها.

وفى حدود السنة الثامنة عشرة من حكمه كان فرعون مصر رمسيس الثانى قد وجد نفسه مضطرا للترحيب بامبراطور خيتا المخلوع – فى بهو

الاستقبال بعاصمته الصيفية بى رمسيس- الذى هو ابن قرينه اللدود مواتالليس الذى أشهرت قادش إسمه.

هذا الذى حدث يعتبر أكبر تهديد يمكن أن يواجهه هاتوسيل. فما العمل إذا آثر عدو قديم رهيب مثل رمسيس أن يؤيد حق أورحى تيشوب فى المطالبة بعرش خيتا؟ لذلك بادر هاتوسيل - بكل حزم - إلي مطالبة رمسيس بتسليم الفتى اللاجئ، ولكن رمسيس رفض.

ولم يكن لذلك معنى إلا الحرب ! فاستعد هاتوسيل لتحريك قواته وبادر كاوشمان تورجو حال علمه بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر، كما عرض استعداده لإرسال فيالق من جيشه - بل وقيادتهم بنفسه - لمؤازرة هاتوسيل فى نزاعه مع مصر. ورفض هاتوسيل هذا العرض بلباقة وآثر أن يباشر حربه بنفسه.

ولم يحدث فى تاريخ الشرق الأوسط القديم أن تلبدت الغيوم بمثل هذه الكثافة ولا حتى في قادش. أما رمسيس الثانى فيحتمل أن يكون قد عبأ جيشه واتخذ العديد من فيالقه مواقعهم شمال مستمرة كنعان -فى مجدو وبيت شان- فى حالة استعداد لضرب الشمال دفاعا عن الامبراطورية المصرية فيما تحول التهديد الحيثى - البابلى إلى حرب حقيقية.

وفى انتظار ما تسفر عنه معلومات مخابراته، أخذ رمسيس فى تأكيد ولاء الحكام التابعين له.

وقد أقام رمسيس الثانى نصبا تذكاريا رسميا فى بيت شمان في السنة الثامنة عشرة، فصل الشتاء الرابع، اليوم الأول (فبراير١٢٦١ ق.م.) - يعكس وجوده مدى حدة النشاط فى السنة الثامنة عشرة.

الأزمة الثالثة - تحلل ملكة هاتيجاليات :

حدث فى السنة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة على الأكثر تحول دراماتيكى أدى إلى تصعيد الأزمة. ففى مملكة هانيجالبات كان أميرها شاتورا الثانى قد تمكن لبعض الوقت من المحافظة على عرشه بالاقرار بتبعيته للسيادة الآشورية – بعد خلعهم للملك السابق واساشاتا.

ولكن شاتورا الثانى لم يلتزم بالولاء لملك آشور الجديد شلمنصر الأول، وارتد ببساطة إلي الحظيرة الحيثية. لكنه كان مدركا تماما أن رد الفعل الآشورى آت لا محالة. فقام شاتورا بالتعاون مع جاره الحيثى ملك قرقميش ببذل جهدها لاتقاء الضربة باحتلال الممرات والطرق ومراكز المياه.

ولم يلبث شلمنصر الأول أن وجه ضربته إلى شاتورا الثانى وحليفه الحيثى، بمنتهى العنف، فحطم دفاعات هانيجلبات واجتاحها كلها حتى وصل إلى أبواب قرقميش الواقعة عبر الفرات مباشرة.

وأسر من هانيجالبات ٤٠٠ر١٤ رجل واحتلت عاصمتها وتسع مدن كبيرة أخرى ودمرت ١٨٠ مستوطنة. والأهم من ذلك أن الآشوريين أظهروا أنهم جاءوا هذه المرة ليبقوا، لذلك أدمجوا مملكة هانيجالبات فى الامبراطورية الآشورية (سوريا) نفسها، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك أبداء. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت جبهة آشور الأمامية الممتدة عبر الفرات مواجهة للامبراطورية الحيثية مباشرة، وملاصقة – بل ومهددة أحيانا – للمقاطعة السورية التابعة لهذه الامبراطورية. وبذلك قضى بكل قسوة على الوجود الميتانى ثم الهانيجالباتى الذى استمر قرونا يثير القلاقل فى المنطقة.

هذه الضربة الفجائية الفاجعة نزلت على رأس هاتوسيل كالدش البارد. وأدرك هاتوسيل من فوره أن عليه رغم تحالفه مع بابل (العراق)، أن يجابه العدو

فى جبهتين، الجبهة الشرقية والجبهة الجنوبية على حدود امبراطوريته الشاسعة. وكانت الحرب على الجبهتين معا مستحيلة، فكيف يمكن التخلص من هذه الورطة؟

الســــلام

التحول المفاجئ فى موقف هاتوسيل :

كان من المستحيل على هاتوسيل أن يتقدم بمقترحات للسلام إلى آشور المنتصرة فى مثل هذه الظروف المخزية، فما كان الملك ولا مستشاروه بالذين يقبلون بمثل هذا الهوان.

ولكن ماذا عن مصر؟ يمكن تكييف موقف مصر حيال أورحى نيشوب وتأييد رمسيس الثانى له على أنه ترهيب أكثر منه تهديدا. حقيقة أن مصر تستضيفه ويجد الترحيب فى البلاط الملكى، لكن مصر لم تحاول أبدا مهاجمة الأراضى الحيثية. إذن يمكن أن تتغير السياسة الحيثية تجاه مصر، مع حفظ ماء الوجه والاحتفاظ بقدر معقول من مظاهر الشرف والكبرياء.

لذلك بدأ الملك فى جس النبض للتعرف على احتمالات تحقيق السلام بين الدولتين - مصر وخيتا. ولإنجاح مسعاه مكث مدة يعمل على تصفية الجو، لم يتخذ فيها أية اجراءات عدوانية فى سوريا. وجرت بين الدولتين مفاوضات لا نعلم عن تفاصيلها شيئا، لكن الطرفين توصلا فى النهاية إلى الاتفاق وأصبح فى الإمكان توقيع معاهدة بين البلدين وتبادل الوثائق الخاصة بها.

وقد استمر الأخذ والرد للتوصل إلى هذه المعاهدة سنتين قضاها مبعوثو الدولتين فى بحث التفاصيل. سعيا بين العاصمتين العتيدتين، بى رمسيس الوارفة الظلال ذات النخيل فى سهل الدلتا الدافئ وهاتوسا الوعرة المرتفعة فوق

سهل الأناضول العالى المتفرع. والرحلة بين العاصمتين يقطعها الرسول السريع فى نحو شهر، أما الوفود الكبيرة فتحتاج لضعف هذا الزمن.

المعاهدة - اقرار السلام :

وأخيرا، سنة ٢١ من حكم رمسيس الثانى (نوفمبر/ ديسمبر ١٢٥٩ق.م)، تحركت من هاتوسا كوكبة من العربات الفاخرة، ميممة نحو بى رمسيس عبر سوريا

«سنة ٢١ شهر الشتاء الأول، يوم ٢١، تحت حكم ... رمسيس الثانى . هذا اليوم، تنبه، كان جلالته فى مدينة بى رمسيس، يفعل ما يسر (الآلهة ...) وقد حضر (رسل مصر الثلاثة ...) ومعهم المبعوثان الأول والثانى تيللى نيشوب وراموس مبعوثا خيتا، ومبعوث قرقميش يابوسيلى حاملا معه اللوح الفضى المرسل من حاكم خيتا الأكبر هاتوسيل الثالث إلى الفرعون، لطلب السلام من صاحب الجلالة رمسيس الثانى ».

لا شك أن الموقف كان مؤثرا ومفعما بشتى الانفعالات والمشاعر بالنسبة لرمسيس الجالس على عرشه تحيطه مظاهر الأبهة فى قصره الكبير بالدلتا، وهو يدعو الرجال الستة ليتقدموا نحوه ويكشفوا أمام ناظريه عن اللون الفضى الكبير المتلألىء، محفورا عليه سطور طويلة من كلمات مرصوصة حروفها متشابكة ذات زوايا حادة يتميز بها الخط المسمارى.

وفى وسط اللوح من وجهه وظهره صور محفورة للآلهة والملوك محاطة بحلية مستديرة، تصحبها كتابة هيروغليفية غريبة الشكل لم يسبق لرمسيس ولا لبلاطه أن رأوا مثلا أبدا.

هذا الشىء – اللوح – الأجنبى الغريب يعتبر التوقيع النهائى الشاهد على

انتصاره على الحيثيين فى سوريا. وكما كان الحال مع الملوك السابقين بمن فيهم أبيه فقد ارتبط مع النظام الحيثى بمعاهدة سلام رسمية لا يمكنه التحلل منها. وانتهى عهد الحروب والانتصارات، وضاعت منه إلى الأبد قادش وأمورو.

فى مقابل هذه الخسارة، كان هناك تعويض مناسب. لقد انقطعت أسباب الشك والترجس فى سوريا، فما كان فيها مصريا سيظل مصريا. كما ضمنت مصر حقوقها فى الهيمنة على المرافىء الفينيقية. والأفضل من كل هذا فقد وافق هاتوسيل على السماح للمبعوثين المصريين بالمرور شمالا حتى أوجاريت، وهو حق لم تحظ به مصر منذ أيام أمنحتب الثالث السعيدة - أى منذ قرن تقريبا.

ولا شك أن الفرعون الذى بلغ الآن أوسط العمر أصبح أقل استعدادا لخوض معارك حربية عنيفة، لذلك فان حسم الصراع غير الحاسم سلميا يوفر له الجهد والوقت لتوجيه اهتماماته إلى ميادين أخرى غير الحرب. هذه هى دلالات اللوح الفضى، الذى حفظت منه نسخ أكثر تواضعا فى ملفات هاتوسا.

بينما حفظ النص المصرى المكتوب على ورق البردى فى ملفات الخارجية المصرية فى بى رمسيس. والنص المصرى موجود بمصر، أما الحيثى فغير موجود بتلك البلاد لكنه موجود فى بابل التى كانت لغتها هى اللغة الدبلوماسية فى ذلك العصر.

وحسب المتبع قانونا فى حالة توقيع المعاهدات الكبرى - تبعا للأعراف الدولية - كتبت المعاهدة المتكافئة بين النظيرين من نسختين متتامتين، إحداهما موجهة من هاتوسيل إلى رمسيس الثانى والأخرى من رمسيس إلى قرينه. وتتابعت فقرات المعاهدة لتقرير انتهاء الخصومة بين الدولتين، والتحالف الأخوى بينهما (عبر عنه فى المعاهدة برابطة الأخوة)، والتعاهد على عدم الاعتداء بين الطرفين، والدفاع المشترك ضد أى طرف ثالث - غير مصرى ولا حيثى -

يحاول الهجوم على أحد طرفى المعاهدة، وتأمين حقوق تولية العرش فى الدولتين، والتعهد بتسليم الفارين واللاجئين لبلدهم الأصلى على أن يلقوا المعاملة الإنسانية اللائقة.

أخيرا تنتهى المعاهدة بالتصديق على وضعها موضع التنفيذ، ويشهد الملكان ويباركان هذا الاتفاق، ويتضرعان إلى الألف اله الحيثى والألف اله المصرى أن يصبوا لعناتهم على من تسول له نفسه خرق المعاهدة، وأن يباركوا من يحترمها وينفذها.

مثل هذه الوثائق الرسمية الكبيرة كانت قليلة الانتشار فى مصر، حيث كلمة الفرعون هى العليا. لكنها فى الامبراطورية الحيثية كانت شيئا مألوفا وشائعا بين الملك الأعظم والحكام الموالين له، لذلك كان من السهل تكييفها لتصلح للتعامل بين ندين متكافئين.

وقد ترجم النص المصرى للمعاهدة من مسودة مسماوية إلى الهيروغليفية ونقشت على جدران معبد الرمسيوم فى طيبة.

والص يبين بجلاء الأسلوب القانونى الوقور لهذا العصر. وهى النص المصرى يوجه هاتوسيل الخطاب إلى رمسيس :

«الآن فيما يتعلق بعصر موتالليس حاكم الحيثيين الأكبر، أخى، لقد حارب رمسيس الثانى، حاكم مصر الأكبر. لكن، ومنذ الآن يشهد هاتوسيل ... (ويقر) معاهدة على أساس العلاقة التى أقرها كما أقرها ست - على المملكة المصرية والمملكة الحيثية أن تتهيا أسباب العداوة بينهما إلى الأبد.

يشهد هاتوسيل الثالث ... أنه يربط نفسه بمعاهدة مع رمسيس الثانى .. ابتداء من اليوم، لاقرار السلام (وتوطيد) الأخوة الحميدة بيننا إلى الأبد، فيصبح هو ودودا مسالما معى وأصبح ودودا مسالما معه إلى الأبد.

هاتوسيل الثالث حاكم الحيثيين الأكبر لن ينتهك حرمة الأراضى المصرية أبدا، للاستيلاء على شيء منها. ورمسيس الثانى لن ينتهك حرمة الأراضى الحيثية أبدا للاستيلاء على شيء منها.

وبخصوص المعاهدة التى كانت سارية المفعول أيام سابيلى ليوما الأول... كذلك المعاهدة التى كانت قد وقعت أيام مواتاليس، .... فأنا الآن ملتزم بهما.

ويشهد رمسيس الثانى... (أنه أيضا) ملتزم بهما. والسلام الذى أصبح مسئوليتنا منذ اليوم، نحن ملتزمان به وسنعمل بمقتضى هذه العلاقة المستقرة.

وإذا جاء عدو آخر ليعتدى على أراضى رمسيس الثانى فأرسل إلى حاكم الحيثيين الأكبر يقول، «هلم، تحالف معى شده !» فان حاكم الحيثيين سوف يعينه ويذبح أعداءه. لكن إذا لم يكن حاكم الحيثيين الأكبر قد طلب إليه الحضور بشخصه فى هذه الحالة سوف يرسل فيالقه وعرباته القتالية وسوف يذبحون أعداءه، وبنفس الكيفية سوف يتصرف رمسيس الثانى حيال هاتوسيل.

وإذا حدث أن فر واحد من المصريين أو اثنان أو ثلاثة ولجأوا إلى حاكم الحيثيين الأكبر، فسوف يقوم حاكم الحيثيين الأكبر باعتقالهم وردهم إلى رمسيس الثانى حاكم مصر الأكبر. وعند رد أى شخص وتسليمه إلى رمسيس الثانى، ليكن معلوما أنه لن ينتقم منه، وأن بيته وزوجاته وأطفاله لن يصابوا بأذى، وأن اللاجيء نفسه لن يعدم. وليكن معلوما أنه لن يضار بسمل عينيه أو إتلاف أذنيه أو فمه أو رجليه . (والخلاصة) أنه يجب عدم توجيه أية تهمة إليه».

هكذا تستمر بنود المعاهدة معالجة موضوعات أخرى :

والآن بخصوص بنود المعاهدة المبرمة بين حاكم الحيثيين الأكبر ورمسيس الثانى حاكم مصر الأكبر، فقد سجلت (البنود) على هذا اللوح الفضى.

وبالنسبة لهذه البنود فهناك ألف آله، ذكورا وإناثا فى خيتا، وألف اله، ذكورا وإناثا فى مصر- كلهم شهود معى، وقد استمعوا إلى هذه الشروط، (ونخص بالذكر) :

إله الشمس، إله السماء، ربة السماء بمدينة عرينة، إله العواصف، إله السماء، إله الأعاصير لدى الحيثيين ... إله عرينة، آلهة العواصف فى زبالاندا وبتى ياريك، وهساسبا، وسارسا وحلب ....، وعشروت ربة مملكة خيتا، ... ربة كارلنا، وربة ميدان القتال، وربة نينوى..، ملكة السماء، والآلهة - الآلهة التى يحلف بها .. أنهار دولة خيتا، وآلهة كزوو انتا.

آمون ورع وست، الآلهة ذكورا وإناثا، وأنهار وجبال المملكة المصرية، والسماء، والأرض، والبحر الكبير، والريح، والسحب الرعدية. (المقصود الآلهة الكبرى والصغرى). وبخصوص هذه البنود المسجلة على اللوح الفضى : كل من لا يلتزم بها، فإن الألف إله الحيثى مع الألف إله المصرى ستدمر منزله وأرضه وخدمه».

ولا شك فى أن المصريين قد انبهروا بالرسوم المحفورة وسط الحليين المستديرتين على جانبى اللوح الفضى. وعندما أمر الملك بحفر المعاهدة فى طيبة، أضاف الكتبة فى نهايتها وصفا قوليا لما هو مصور داخل الحليتين المستديرتين. وهذه فى الواقع ليست الا نسخا على الفضة لأختام الدولة الحيثية الكبرى وملوكها (كان التوقيع يبصم عادة على ألواح طينية).

«فى وسط اللوح الفضى يرى المشاهد :

صورة مطعمة تمثل إله العواصف وهو يعانق ملك الحيثيين الأكبر، وحوله اطار منقوش عليه : خاتم إله العواصف، إله السماء ، خاتم معاهدة مبرمة بين هاتوسيل الثالث، حاكم الحيثيين الأكبر، الباسل»، ابن مورسيل الثانى، حاكم

الحيثيين الأكبر، الباسل» أما النقش المحيط بالصورة فهو: «خاتم رب العواصف، إله السماء».

ويعقب هذا الوصف وصف مشابه للخاتم المنقوش على وجه اللوح الآخر، حيث توجد صورة لربة الشمس بعرينة مع الملكة بوبو خيبا مرفق معه بطاقة تحتوى على نصوص مناسبة. ونجد هنا أن كتبة رمسيس الثانى قد سجلوا بدقة أقدم وصفا لأختام الدولة الحيثية، المسجلة على اللوح الفضى، يتطابق مع أختام الوثائق بالملفات الحيثية - وعلى وجه التحديد نعرف أختاما مشابهة يظهر فيها اله العواصف معانقا لأحد الملوك الحيثيين، مصحوبا بحلقة منقوش عليها نص مسمارى محيطة بحافة الخاتم المستديرة، مع بطاقة منقوش عليها نص بحروف هيروغليفية حيثية (أى غريبة عن الهيروغليقية المصرية) داخل حقل الختم نفسه.

تبادل التهانى :

كان توقيع المعاهدة مناسبة رسمية لاظهار السرور والبهجة، تبادل فيها بلاطا ممتلكى مصر وخيتا رسائل التهانى والأمانى. ولم يقتصر الأمر على الملكين بصفتهما الموقعين عليها. ففى الجانب الحيثى كان هاتوسيل الثالث قد اعتاد أن يشرك معه زوجته بوبو خيبا فى كافة شئون الدولة الهامة.

وما أن أرسل زوجها بالتهانى لرمسيس فى هذه المناسبة حتى أعقبتها بوبو برسالة تهنئة مماثلة إلى الملكة نفرتارى، الملكة الرسمية بجوار رمسيس فى سنة ٢١. وتملكت روح المعاهدة أيضا البلاط الملكى المصرى، فبالإضافة إلى رمسيس نفسه أرسلت الملكة الأم النبيلة بتهانيها إلى خيتا وكذلك فعل أمير التاج حينئذ، الأمير ولى العهد ست حر خبشف والوزير باسر. أما الملكة نفرتارى فقد عبرت عن شعورها الجياش حيال رسالة ملكة خيتا برسائل تهنئة مماثلة لأختها

الحيثية، على لوح طينى بالخط المسمارى الذى كتبه كتاب إدارة الخارجية المصرية فى بى رمسيس نصه :

«تقول نايتيرا (نفرتارى) ، ملكة مصر العظمى :

تسير الأمور معى – أنا أختك – سيرا حسنا، كذلك أمور بلادى. وأتمنى أن تكون الأمور عندك أيضا على ما يرام فيما يخصك ويخص بلادك. لقد لاحظت وشيكا يا أختى أنك كتبت إلى لتطمئنى على أحوالى ، كما نوهت لي عن العلاقة الجديدة من السلام والأخوة التى التزم بها الملك العظيم، ملك مصر الذى أصبح يساند أخاه ملك الحيثيين الأعظم.

وأتمنى أن ينعم عليك اله الشمس (المصرى) واله الأعاصير (الحيثى) بالسعادة والسرور، وأن يحفظ اله الشمس السلام ويباركه، ويوطد روابط الأخوة بين ملك مصر العظيم وأخيه ملك خيتا العظيم إلى الأبد.

ومن الآن فأنا على علاقة من الصداقة والأخوة مع أختى الملكة العظمى فى خيتا.. من الآن وإلى الأبد».

كانت العلاقات الدولية مجالا جديدا غير مألوف بالنسبة لنفرتارى وتكشف رسالتها المتكلفة ذلك بكل وضوح.

ولاثبات العلاقات الودية الجديدة عمليا تبادل بلاطا الدولتين الهدايا، فأرسلت نفرتارى مجوهرات وأقمشة مصبوغة وأثوابا ملكية إلى «أختها». أما أمير التاج ست حرخبشف فيقرر : « لقد أرسلت الآن هدايا إلى أبى (ملك الحيثيين) حملها (الرسول) باريخ ناوا ».

وبدأت العلاقة الجديدة تتقدم بصورة مبشرة. فكان المبعوثون المصريون يحملون أوانى الزهور باسم رمسيس الثانى ويسلمونها للقصر المحلى بمدينة أوجاريت. وأصبح هاتوسيل الثالث مطمئنا إلى إمكان مواجهة أشور أو الأعداء

المحليين فى شمال أو غرب وطنه وهو على ثقة بأن مصر ملتزمة قانونا بمساعدته، أو على الأقل عدم عرقلته. وهذا يناسبه تماما.

وبعد سنوات معدودة مات كادشمان - تورجو ملك بابل، تاركا عرشه لشاب صغير هو كادشمان - انليل الثانى، الذى وقع تحت تأثير زمرة مضادة للحيثيين - ومؤيدة للآشوريين - فى البلاط البابلى يتزعمها الوزير الرهيب اتى - مربوخ - بالاتر . لذلك لم يسترح هاتوسيل من جهة هذه الجبهة.

أما فى مصر فقد أصبح رمسيس الثانى فى وضع يمكنه من توجيه جهوده إلى مشاريع أخرى، مثل اكمال حفر معبديه الصخريين الكبيرين بأبى سمبل. ولكن هذه البداية الجديدة لم تخل مما يشوبها، ففى سنة ٢٢- وربما ٢٣- ماتت أمه الملكة الأم تويا، السيدة الهادئة اللبقة، التى رحلت وهى فى الستينيات من عمرها. ومن أجلها أعد لها ابنها البار مقبرة رائعة فى وادى الملكات بطيبة، ثم قام بدفنها فيها.

مخلفات الماضى - التوتر عقب المعاهدة:

هذا التحول الجذرى فى العلاقات كانت له مشاكله ، خصوصا إذا كانت الصداقة الواجبة يتحتم أن تحل بعد عقدين (٢٠سنة) من الحروب وما يقرب من قرن من الحروب المتقطعة. فمثلا كان ملك دولة ميرا الصغيرة بآسيا الصغرى من الحمق بحيث سال رمسيس الثانى عن أورحى - تيشوب الحيثى اللاجىء السياسى إلى البلاط الملكى المصرى. فرد عليه رمسيس بخشونة وغلظة :

«أما عن مسألة أورحى - تيشوب ، فهى ليست كما تصورها وعليك أن تتذكر حسن العلاقات التى أرسيتها.. أنا الملك العظيم، ملك مصر مع أخى ملك الحيثيين».

وعلى الرغم من إغلاق ملف الحروب، ظل موضوع أورحى - تيشوب له حساسيته. وربما يكون هاتوسيل قد رغب فى تطبيق بنود المعاهدة بأثر رجعى ليستعيد خصمه. فإن كان ذلك قد حدث فعلا، فلابد أن رمسيس قد رفض طلبه فقد عاش أورحى تيشوب ضيفا على البلاط الملكى المصرى لأكثر من عشر سنوات تالية على المعاهدة. وفى الجانب المقابل، ربما يكون رمسيس الثانى قد حاول عمل تعديلات فى الحدود السورية لصالحه، فرفضها الجانب الحيثى بدوره .. وفى الوقت الذى كان كلا الملكين يشعران فيه بالحساسية حيال مسألة أورحى تيشوب، كان هاتوسيل يشعر بالحساسية أيضا تجاه اللهجة المتعالية التى أعتقد أن رمسيس الثانى كان يستخدمها فى رسائله إليه، ويشعر أنها لهجة لا تليق الا بمن هو دونه فى المنزلة، لا لهجة الند للند. فأرسل له رمسيس منكرا لهذا الظن ومؤكدا لأخيه :

«سمعت توا بكل الكلمات التى حررها لى أخى قائلا :

«لماذا تكتب لى يا أخى كما لو كنت واحدا من رعيتك؟» والآن كتبت لى تقول، «كما لو كنت واحدا من رعيتك» - وكتب أخى يقول أن هذه العبارة تكررت منى!... لقد أنجزت أشياء عظيمة فى كل الدول، فأنت بحق الملك الأعظم فى بلاد الحيثيين . وقد أقر إله الشمس واله العواصف بجلوسك على عرش الحيثيين - عرش أجدادك. لماذا أكتب أنا إليك إذن باعتبارك واحدا من الرعية ؟ لابد أن تتذكر أننى أخوك. كان يجب عليك أن تكتب كلاما مبهجا (مثل) : «أسعد الله كل أيامك !». ولكن بدلا من ذلك تتفوه بهذه الكلمات الجوفاء، التى لا تصلح أن تكون رسالة !».

هذا جزء من رسالة، نلاحظ فيه أن رمسيس اعترف بلباقة .. بعد أن استوفى نقطة المساواة - بهاتوسيل المغتصب خلفا شرعيا لجده الصلب العود سوبيلو ليوما - الذى حاول رمسيس عبثا افشال نجاحه ! بعد ذلك تطرق

رمسيس إلى موضوعات أخرى : المبعوثين، الهدايا المتبادلة حيث أشار رمسيس إلى أن هاتوسيل لم يرسل إلا عبدا واحدا، وحتى هذا كان معوقا ! وإرسال أطباء مصريين إلى أرض الحيثيين، وإرسال أعشاب معينة - وهذان (الأطباء الأعشاب) كانت قيمتهما كبيرة والطلب عليهما مستمر من الحيثيين فى السنوات المقبلة.

على أى الحالات توقفت الاحتكاكات بالتدريج، بعد أن تعلم الشريكان كيف يتعايشان مع أوجه الضعف والقصور واختلاف وجهات النظر الثقافية. ووجه هاتوسيل ضيقه وتبرمه، بدلا من ذلك نحو بابل حيث اتهمه ملكها الشاب كادشمان - انليل الثانى بمحاولة التدخل لافشال تجديد العلاقات الدبلوماسية بين بابل ومصر. وشجب هاتوسيل هذا الاتهام، فهو الآن حليف لمصر، فلماذا يعترض على عودة العلاقات بين بابل ومصر؟

وفى النهاية تحسنت العلاقات بين مصر وبابل بشكل ملحوظ لدرجة أن رمسيس قبل بضم أميرة بابلية إلى حريمه. ورغم اظهار عدم المبالاة، يبدو أن هاتوسيل كان متوجسا من هذا التقارب فى العلاقات المصرية - البابلية. وزاد من قلقه أن ملك بابل الجديد كانت علاقاته ودية مع ملك آشور.

فاذا تكون محور ثلاثى من مصر وآشور وبابل، فسوف يكون وبالا على الحيثيين، فيصبحون معزولين تماما فى المجال الدبلوماسى للدول العظمى فى ذلك العصر. «إذا لم تتمكن من ضربهم فانضم إليهم!» وهذا المثل ليس حيثيا صرفا، ولكن هاتوسيل تبناه بمضى الوقت.

لقد انقضت فترة معقولة منذ تحللت وذابت دولة هاتيجالبات. وأحس هاتوسيل أن بإمكانه بدء التفاوض لتوثيق العلاقات بينه وبين شلمنصر الأول الملك الآشورى. بذلك تتم حلقة العلاقات - خيتا وآشور، وبابل ومصر وخيتا (أى حلفين) -

وبذلك فانه على كل الجبهات سيقف القراصنة وقبائل البدو الشمالية معزولين، ويصبح عالم الشرق الأدنى القديم أكثر استقرارا وأكثر أمنا من عهود كثيرة سابقة.

العرض الملكى الدولى

المساومات حول العروس

بمرور السنين استقر التحالف المصرى الحيثى بصورة جعلت هاتوسيل الثالث يطلب إلى رمسيس الثانى أن يوافق على التقدم بخطبة ابنته ليتزوجها، توثيقا للتحالف بينهما. وقبل رمسيس هذا العرض سريعا، وعبر هاتوسيل عن سعادته بذلك، وبادله رمسيس نفس الشعور.

هكذا بدت الأمور فى أوائل السنة الثالثة والثلاثين من حكم رمسيس، (خريف ١٢٦ ق.م.) والرسل الملكية تسعى بلا هوادة بين العاصمتين. وفى هذه الاتصالات وبإيماءة من التفاخر الطائش، وعد هاسوتيل المتباهى بهدية عرس (دوطة) رائعة مع العروس: «ستكون دوطتها أكبر من دوطة ابنة ملك بابل. ومن دوطة ابنة ملك (بارجا؟) ... وسأرسل ابنتى هذا العام، وستصحب معها أيضا خدما ومواشى وأغناما وخيولا، إلى أرض آيا - فهل يرسل أخى رجلا لتولى شئونهم فى آيا ..!.

واستجاب رمسيس للطلب وهو مسرور، وأوجز ترتيبات استقبال العروس مع هدية العرس عند عمود الحدود الحيثى بايا جنوب سوريا، القريب من مقاطعة أوبى المصرية :

«لقد كتبت الآن إلى محافظ سوتا، فى «رمسيس المدينة» (كوميدى) بأوبا، لكى يتسلم هؤلاء العبيد من الكشكان، وجماعة الخيل، وقطعان (المواشى)،

وأسراب (الغنم) التى ستحضرها (العروس)، وسوف يرافقهم حتى تصل العروس إلى مصر.

(إضافة إلى ذلك كتبت) إلى محافظ بتاح (...) فى مدينة رمسيس (غزمة؟) بأرض كنعان .. (يمثل ذلك). أما ما كتبته (إلى)، «تولى أمر احتياجات مرافقى العروس -فإن ما طلبته- سوف أصدر أوامرى بتنفيذه كما طلب أخى!».

ويبدو أنه عندما وصلت المفاوضات إلى هذا الحد، حدثت بعض المعوقات على الجانب الحيثى، مما تسبب فى لوم رمسيس لهم، فبعد الوعد بعروس وهدية عرس عظيمة، تعطل كل شيء .

لكن توبيخ رمسيس لم يصل إلى هاتوسيل على الفور، إذ لا شك فى أن الامبراطور كان «خارج العاصمة» لحضور أحد الأعياء أو الشعائر المحلية العديدة، التى تضطر هؤلاء لكثرة التنقل فى البلاد. فوقعت الرسالة فى يد الملكة بوبو خيبا بدلا من الامبراطور فتولت هى الرد عليها. ولم تكتف بجواب عادى كعادة زوجها، لكنها ردت ردا مستفيضا لاذعا بدورها.

وكان رمسيس قد قابل تباهى هاتوسيل بشأن الدوطة (خصوصا مع التأخير) بكثير من الحماس، وأعلن أنه فى انتظار ترضية مناسبة !

ولصدمتها بما اعتبرته تعريضا غير متحفظ من جانب رمسيس، لم تكترث الملكة الجريئة وهى تكتب بهذا الأسلوب النارى، بما يسببه ذلك من حرج «لأخيها» الملك ، رمسيس الثانى :

«كما كتبت لى يا أخى ما يلى : - «أختى كتبت إلى ، «سأرسل لك إحدى بناتى» لكنك ما زلت تحجبينها بغلظة. لماذا لم تهبيها لى بعد؟».

- كان الواجب عليك أن تثق فينا ولا ترتاب. كنت بصدد إرسالها إليك ،

لولا (... معوقات متنوعة ...) ، (...) فاحترق القصر. وما تبقى وهبه أورحى – تيشوب لكبار الآلهة. وحيث أن أورحى – تيشوب عندك هناك فاسأله ، هل هذا صحيح أم خطأ ! أى فتاة فى السماء أو فى الأرض أهبها لأخى ؟... هل أزوجه فتاة من بابل أو من زولابى أو من آشور ؟

«أخى خالى الوفاض ؟.. فإذا كان ابن اله الشمس أو ابن اله العواصف مفلسا، فلابد أنك مفلس (أيضا) ! وسعيك، يأخى، للإثراء على حسابى لا هو ودى ولا هو كريم !!».

وصورة رمسيس الأكبر، بانى المعابد الجبارة – المنمى لإنتاج مناجم الذهب وهو يبرر فقره ويطالب بفظاظة بهدية العرس (الدوطة) الضخمة، يعتبر داعيا للسخرية المريرة يصعب تصوره من بطل قادش! لكنه بالنسبة للملكة الحيثية الشامخة، كان ذلك أدعى للغضب لا للسخرية.

وفى نفس هذه الرسالة الطويلة توبخ الملكة الفرعون لانتقاده تعطيل إرسال العروس والأشياء الأخرى (الدوطة). ومن الطريف أن نشاهد الملكة تنهى رسالتها بالإشارة إلى الشائعات الدولية الذائعة فى القصور الملكية حينئذ حول السلام المريح.

وكان رمسيس قبل ذلك بفترة طويلة قد ضم إلى حريمه زوجة بابلية، لكنه – كما فعل أمنحتب الثالث منذ قرن مضى – لم يسمح لرسل ملك بابل (أبوها) بزيارة الفتاة فى مصر.

وقد سبق أن علقت الملكة بودو خيبا على هذا التصرف الحذر، فتناول رمسيس هذه النقطة فى رسالته – المشار إليها– مما أشعل الموقف. فتناولت الملكة هذه الحقائق لكشف «مصادرها» :

«هذه القصة رواها لى انليل – بل – نيتى، رسول ملك بابل. ولكن هل

مجرد سماعى لهذه الحكاية يمنعنى من الكتابة إلى أخى ؟ ولكن ما دام أخى يرتاب الآن فى، فسوف أكف عن ذلك. ولن أتسبب يا أخى فى قول مايؤلمك!».

إلا أن تقريع الملكة بودو حيبا لم يردع الفرعون الجامح فلم يتردد فى مواصلة الجدل. لكن الأحوال انصلحت أخيرا فأبدى الجانب الحيثى استعداده لإرسال الأمير،

لكنهم اشترطوا ضرورة حضور بعثة مصرية على مستوى عال إلى خيتا ومعهم أنقى أنواع الزيوت لتطييب العروس، وإعدادها لرحلة العمر. واستجاب رمسيس لهذا الطلب على الفور كما تدل رسائله إلى ملكى خيتا.

وفى رسالته إلى بودو خيبيا يقول :

«لقد اطلعت على اللوح الذى بعثته لى أختى، واستوعبت كل ما به من مسائل كتبت لى عنها أختى ملكة الحيثيين العظمى ذات الكرم ... وقد كتب إلى الملك الأكبر، ملك الحيثيين – أخى – يقول : «دع الوفد يحضر، ليسكب الزيت النقى على رأس ابنتى، ثم يرافقها إلى بيت الملك الأعظم، ملك مصر!».

«رائع، رائع حقا هذا القرار بخصوص الموضوع الذى كتب لى أخى عنه .. (وسوف) يصبح بلدانا العظيمان بلدا واحدا إلى الأبد!». وقامت البعثة المخصوصة برحلتها وأدت مهمتها فى أوائل صيف ١٢٤٦ ق.م على الأرجح .، وفى ذلك كتبت الملكة بودوخيبيا متباهية :

«عندما انصب الزيت النقى فوق رأس ابنتى، اختفت آلهة العالم السفلى، ... فى ذلك اليوم أصبحت الدولتان العظيمتان بلدا واحدا، وأنتما أيها الملكان العظيمان صرتما أخوين حقيقيين ...».

بعد إنتهاء كل الإجراءات الرسمية، سعد رمسيس ولا شك بالأنباء وأخذ يستعد للترحيب بالأميرة نفسها.

موكب الزفاف :

فى السنة الرابعة والثلاثين من حكم رمسيس الثانى (نهاية الخريف سنة ١٢٤٦ ق.م.) تحرك ركب الأميرة مغادرة وطنها إلى غير رجعة فى حراسة كوكبة متألقة من الجنود، وفى معية الأشراف والمندوبين من الجانبين، يسير بين يديها أسراب الحيوانات والعبيد وقافلة محملة بالأحجار الكريمة، تظهر ثراء الشرق الأدنى القديم تمثل هدية العرس. وهبط الركب جنوبا عبر جبال طوروس واخترقوا قزوانة (سيليسيا الحالية)، حيث اتجهوا شرقا فوق جبل عمان إلى سهل حلب شمالى سوريا.

بعد ذلك توجهوا جنوبا إلى نهر العاصى ليأخذوا الطريق الحدودى لمملكة أمورو حتى قادش ويستمروا إلى مشرف القطاع السورى الذى تحتله مصر. وفى هذا المكان ودعت الملكة بودوخيبا ابنتها. واستقبلها وفد مصرى مخصوص توجه بالأميرة وركبها إلى كنعان ثم اتخذوا الطريق الساحلى إلى سيناء واستمروا فى مسيرتهم حتى وصلوا الديار المصرية.

فى النهاية وصل الموكب إلى العاصمة بى رمسيس حيث جرت مراسم تسليم هدية العرس الثمينة للفرعون. وأخيرا، فى فبراير سنة ١٢٤٥ ق.م. استقبل رمسيس الأميرة الحيثية بعد طول انتظار فى قصره الكبير بمدينة بى رمسيس.

والمأمول أن العروس كانت أميرة حيثية جميلة، فقد كان الفرعون فى الخمسينيات من عمره مازال بعد وسيما، رغم الإعجاب بالنفس الذى ظل يلازمه تفاخرا بإنجازاته السابقة، ورغم معاملته كما لو كان الها يمشى على الأرض.

وعموما أقيمت الأفراح العامة احتفالا بهذا الحدث العظيم ، وتخلدت

الذكرى بتصميم نقوش خاصة بها نسخت على جدران المعابد الكبرى فى مصر أهمها : فى طيبة (الكرنك). وفيلة، واكشا، وأبو سمبل، والعمارة غرب. أما بعد الربة موت فى الكرنك فقد اختص بنص مختصر لينقش فيه. وكوفىء بهذه المناسبة الموظفون المخلصون الذين أحسنوا أداء مهمتهم فى توصيل الأميرة إلى مصر، وكان أبرزهم هو حوى رئيس بعثة الشرف المصرية الذى رقى إلى منصب نائب الملك فى النوبة حال خلوه.

وفى تنافر واضح مع الرسائل التى تبادلها الطرفان خلال السنتين الأخيرتين بالخط المسمارى طافحة بالمساومات والمفاوضات من أخذ ورد، جاءت المنظومات الشعرية العظيمة التى ألفها شعراء الملاحم فى بلاط رمسيس منمقة متكلفة، وربما تكون قد أصابت هاتوسيل الثالث بغصة فيما يتعلق بموضوع تكافؤ القوى الذى يشعر نحوه بحساسية شديدة.

«سنة ٣٤، تحت ولاية .. رمسيس الثانى.

تبدأ الذكرى الجميلة،

لتعظيم سلسان ملك القوة،

وتمجيد البسالة والإشادة بالنصر.

والعجائب العظيمة الغامضة التى حدثت مع سيد القطرين

هو تجسيد رع بعينه، أكثر من أى اله سابق (أى ملك) ولد فى أى وقت.

المكتوب له المجد .. رمسيس الثانى ».

ويتلو ذلك ثلاثون سطرا من نظم متكلف تقريظا للملك، وتذكر كيف سعى ملك الحيثيين بلا جدوى إلى رضا رمسيس، حتى قرر أخيرا إرسال ابنته (إلى مصر). بعد ذلك يستأنف النص :

«ثم سمح لابنته الكبرى بالحضور (أى ملك الحيثيين)، وبين يديها تقدمة جزيلة، ذهب وفضة وكثير من البرونز، وعبيد، وجماعات من الخيول بلا عدد، وماشية، وماعز. وكباش بعشرات الآلاف - لا حصر لها- هذه هى الرسوم التى أحضروها من أجل رمسيس الثانى.

وجاء واحد ليدخل السرور إلى قلب جلالته فقال :

«أشهد، لقد بعث ملك الحيثيين الأكبر بابنته ومعها تقدمة ثرية، (عناصرها) تسد الطرق؟ جلبتها الأميرة وكبراء مملكة خيتا. وقد اجتازوا جبالا شاهقة وطرقا وعرة، حتى وصلوا الآن إلى حدود سوريا الواقعة تحت سيطرة جلالتكم. فأمر الجيش والموظفين بالتقدم لتحيتهم !».

وعندما دخل جلالته القصر سعيدا، غمرته البهجة لدى سماع هذه الواقعة الرائعة، التى لم يعرف مثلها أبدا فى بر مصر. فوجه الجيش والموظفين بسرعة لاستقبالهم.

وقلب الملك الأمر فى ذهنه ثم قال، «كيف يمكن لهؤلاء الذين أرسلتهم إلى سوريا أن يتحملوا، ويجابهوا هذه الأيام المطيرة وصقيع الشتاء ؟ «السماء بين يديك، والأرض تحت قدميك، ولا يحدث إلا ما شئت - فابتهل إليك ألا تنزل المطر، ولا الجليد ولا الصقيع، حتى تصلنى المعجزة التى حبوتنى بها !».

فاستجاب له أبوه ست، وهدأت السماء وتبدل الشتاء صيفا. فتم الأمر ومضى الجيش والموظفون فى طريقهم قدما، فى خطوات خفيفة وهم يفيضون بشرا.

«أشهد أنه عند دخول ابنة ملك الحيثيين الكبير مصر، كانت تحف بها فيالق جيش مصر وعرباته وموظفوا جلالته، وهم مختلطون بفيالق جيش الحيثيين وعرباته وموظفى المملكة ... وقد أكلوا معا وشربوا معا متحدين

كالأخوة - لم يحتقر أحد زميله، وحل الوئام بينهم وعمتهم الصداقة، مقتدين بالآله نفسه، رمسيس الثانى.

وأينما مر الركب (الميمون) انزوى الملوك والرؤساء وأصابهم الوهن، لمرأى شعب خيتا متحدا مع جيش ملك مصر ... (أما رمسيس الثانى)... فقد صارت مملكة الحيثيين له كما أن مصر له.

والسبب أن السماء تحت ابهامه وتستجيب لما يشاء !

والآن وقد وصل الركب إلى بى رمسيس، (جاءت ؟) كما لو كانت تحييهم، جاءت معجزة النصر ... سنة ٢٤، شهر الشتاء الثالث، من حكم رمسيس.

ثم أدخلت بنت ملك الحيثيين الأكبر .. ومثلت أمام جلالته، ومعها قافلة التقدمة العظيمة الثرية، وبها كل شىء بدون حدود. ثم شاهدها جلالته، وكانت جميلة الملامح، فوق كل النساء - النبيلة (هكذا قدرها؟)، الآلهة بعينها! أشهد أنه كان حدثا كبيرا غامضا، عجيبا ثمينا،

لم يعرف من قبل ولا تحدثت عنه المرويات الشعبية، ولم يرد له ذكر فى المدونات، منذ زمن الأسلاف الأقدمين - ابنة حاكم خيتا الكبير تحضر، وتتقدم فى قلب مصر، حتى تلقى رمسيس الثانى. الآن راقت الأميرة لجلالته، فأحبها أكثر من كل شىء، وكان الحدث بالنسبة لها عظيما، وانتصارا وهبه اياه بتاح - تاتنن وأعلن أن إسمها المصرى صار :

«الملكة ماعت - حور - نفرورع -حفظها الله- ابنة حاكم الحيثيين الكبير، وابنة ملكة الحيثيين الكبرى».

واستقرت فى القصر الملكى، وأصبحت ترافق الملك كل يوم. وانتشر اسمها كالشعاع فى أرجاء مصر البلاد...».

بجانب مظاهر الفخار والاحتفاء بهذه المناسبة الرسمية السعيدة، وإظهار الجموع للسرور فى شوارع وميادين وأحياء بى -رمسيس، والروعة المذهلة لهدية العرس، ورشاقة الأميرة بجوار الفرعون الفخور فى قصره المزخرف وقاعات عرشه المعمدة، بجوار ذلك كله كان هناك شبه تحلل من مفهوم التحالف القوى عبر عنه كتبة الملك كما يلى :

«من الآن، إذا سافر رجل أو امرأة إلى سوريا فى شأن ما، فإنه بإمكانهما الوصول إلى الأراضى الحيثية بدون أن يخلع الخوف قلبيهما، بسبب انتصارات جلالته» - ناهيك عن انتصاره فى الزواج !

الملكة الجديدة :

ومرت سنة حتى أتى شتاء سنة ٣٥ (أوائل ديسمبر ١٢٤٥ ق.م.)، وهذه المناسبة السعيدة ما زال لها صداها فى أرجاء مصر. وفى هذه السنة منح الاله بتاح بمنف بركاته لرمسيس الثانى، على صورة نقش تمت صياغته لينقش فى المعابد الكبرى بمصر والنوبة، لتكون قرينة للوحات الزواج العظيم الذى أقيم فى السنة المنصرمة. فى هذا النقش، يقول بتاح مشيرا إلى الزواج الميمون :

«لم نسمع منذ زمن حوليات الآلهة السرية الموجودة فى دار الكتب، منذ أيام الآله رع حتى أيام جلالتكم (مثل هذا)، ولم نعلم أنه كانت هناك علاقة مودة ولا صداقة بين خيتا ومصر».

وفى أول الأمر سمح لملكة رمسيس الثانى الحيثية بالمشاركة فى التشريفات بالقصر مع قريناتها الأميرات الملكات بنت عنات، ومريت آمون أو بنت تاوى. لقد ظهر اسمها -«هى التى تشاهد الملك الصقر الذى هو رع المرئى (أى تجسيد رع)»- على آثار بى رمسيس، ملكة كاملة فى التماثيل الملكية وفى دبابيس الزينة (حلية الصدر المعروفة بالبروش) الملونة لاستعمالها كتمائم أو

لوضعها فى أساسات المبانى. ومع ذلك كله فسوف نرى أنه بمرور الزمن، بعد أن أصبحت عقيلة نبيلة فى الخمسينيات من عمرها تقريبا نفيت لتنضم إلى حريم الملك الكبير بإقليم الفيوم ذى الحدائق بعيدا عن بى رمسيس ومن يزورها من الرسل الحيثيين بما يقرب من ١٢٠ ميلا.

الزيارات الملكية الدولية :

أمير التاج (ولى العهد) الحيثى يزور مصر :

بعد إنقضاء العقد الأول من الزواج (بين سنتى ٣٣، ٤٢)، وبعد توطد أواصر الصداقة بين خيتا ومصر، تلاشت الشكوك القديمة وتلطف الجو بينهما بالتدريج.

ولم تقتصر اتصالات الدولتين على زيارات المبعوثين من البلاطين بدون انقطاع، بل تجاوزت الاتصالات هذا المستوى إلى مستويات أرقى لشخصيات رضيت بالسفر أكثر من ٨٠٠ ميل من هاتوسا الصخرية إلى بى رمسيس المحفوفة بالنخيل. وكان أحد هذه الشخصيات العظمى هو الأمير هاشمى - شاروما ابن هاتوسيل الثالث وولى العهد ذاته مملكة الحيثيين، والذى تولى بعد أبيه باسم توبو خاليا الرابع.

وكما فعلت أخته ملكة مصر فى ذلك الوقت، اختار الأمير هاشمى - شاروما فصل الشتاء للرحلة إلى مصر، وقد أشار رمسيس إلى ذلك فى رسالة منه لأبيه الملك هاتوسيل الثالث :

«انظر الآن، عندما حضر هاشمى - شاروما إلى مصر، اختار أشهر الشتاء .. الباردة !».

وقضى الأمير فترة الشتاء فى جو مصر المناسب وهو «الموسم السياحى»

بحق ! ثم عاد الأمير إلى وطنه - في الربيع تقريبا- «مع مبعوثين مرافقين له»، محملين بالهدايا للبلاط الحيثى. وحدث ولا حرج عن المشاعر التى أحدثتها طبيعة الحياة فى بلاط رمسيس الثانى النابض بالحيوية والنشاط، فى نفس ملك المستقبل على الحيثيين. هل تأثر بالنحوت والنقوش البارزة الملونة التى زخرفت بها المعابد الحجرية الشاهقة المكرسة للآلهة المصرية ؟ وهل سأل التراجمة عن طبيعة الديانة المصرية وأشكالها وتنظيمها؟ أم هل استفسر منهم عن النظم السياسية والإدارية وكيفية الاستفادة بجهود عظماء الرجال مثل خع أم واست ومرنبتاح ولدى رمسيس الثانى المتألقين بين باقى أولاده ؟

فمن الصعب تصور قضائه هذه الأشهر فى مصر فى عزلة، ولكنا لن نحصل أبدا على جواب شاف للأسئلة التى طرحناها أو مثلها. ولكنا نشير إشارة سريعة إلى أن تودخاليا الرابع بالذات هو الذى أمر بعمل مجموعة النقوش البارزة التى استخدمت فى زخرفة مجمع الآلهة الحورية - الحيثية فى الجناح الرئيسى للمعبد الصخرى المفتوح (لا سقف له) العظيم فى جازليكايا القريبة من العاصمة الحيثية هاتوساس.

ولم يكتف بذلك بل كانت له اقتباسات هيروغليفية تعدت بكثير ما أعتاد أن يفعله سابقوه . كما أن تودخاليا هو الذى قام بحركة البحوث والحصر للمذاهب الدينية فى مملكته، وبتنظيم الأرشيف (الملفات)، وباستنساخ الوثائق وضبطها .

وسوف تعترينا الدهشة إن لم يكن وهو يذكر أيامه بمصر قد تشجع فيما بعد على زيادة جرعة الفن الأثرى التذكارى والنقوش فى الديانة الحيثية، وإجراء نوع من الجرد أو الإحصاء وهو شىء أغرم به فراعنة مصر رغم أنه لم يكن مجهولا فى الاستخدامات الحيثية المنظمة.

زيارة هاتوسيل الثالث لمصر :

ما حققته الزيارات الرسمية الأقل فى مستوى التمثيل، مثل زيارة ولى العهد هاشمى - شاروما ، تعتبر تمهيدا لزيارة رسمية كبرى : زيارة حاكم الحيثيين الأكبر -هاتوسيل الثالث- نفسه لرمسيس الثانى فى مصر. والذى أرسل الدعوة هو الملك رمسيس نفسه، وهو كما نعلم ملك دائم التفاؤل. فأرسل دعوة حارة إلى هاتوسيل كى يزور مصر ويتعارفا شخصيا.

ولكن هاتوسيل العبوس الحذر بطبعه تلقى الدعوة ببرود زائد وجفاء: «فليكتب لى أخى ويحيطنى علما بما سوف نفعله بالضبط عندك !».

لكن رمسيس الشهم لم يثبطه ذلك بل رد عليه برسالة تفيض بشرا :

«ما هذا الذى تقوله يا أخى ؟». ثم شدد فى تكرار الدعوة : إن اله الشمس (فى مصر) واله العواصف (فى خيتا) سيدفعان أخى للقاء أخيه، فهل يتكرم أخى ويلبى هذه الدعوة المفيدة والحضور لزيارتى ، فيمكن أن نلتقى وجها لوجه حيث يجلس رمسيس الثانى على عرشه. وسوف أذهب بنفسى إلى كنعان لاستقبال أخى ورؤيته وجها لوجه، وأرحب به فى قلب أرضى !».

وبذلك يكون رمسيس قد عرض أن يستقبل ضيفه المنتظر فى كنعان، وربما يكون أول لقاء بينهما فى أحد قصور غزة؟ بعدها يصحبه شخصيا إلى مصر والأغلب إلى بى رمسيس القريبة نفسها.

وربما تكون لهجة رمسيس الودودة المخلصة قد أقنعت الحاكم الحيثى المتجهم الحريص بقبول الدعوة. إلا أن التنفيذ اعترضته عقبة، إذ أصبح الملك يوما « وقدماه ساخنتان». وبلغة عصرنا الحديث يعنى ذلك أن هاتوسيل أصيب بالتهابات فى قدميه عاقته مؤقتا عن تنفيذ الزيارة.

وأخطر الحيثيون المصريين بذلك ووعدوهم بارسال تقرير مقنع بمدى تقدم حالة الامبراطور الصحية، وبنيته على تنفيذ زيارته لمصر.

والحقيقة أن الملكة بودخيبا رأت فى المنام وحيا يقول لها باسم الآله :

«اقسمى يمينا للاله نينجال، هذا نصه : إذا ذهب هذا المرض - مرض احتراق القدمين (الالتهاب) - عن جلالته، فسوف أصنع لنينجال عشر قارورات ذهبية، وأرصعها باللازورد».

وقد شفيت قدما هاتوسيل بالفعل، وتكشف عن ذلك رسالة تشير إلى أنه «غادر المدينة» فى طريقه إلى مصر. والأغلب أن رجلى العصر- هاتوسيل ورمسيس - التقيا فعلا فى كنعان وفى بى رمسيس .

ولكن هذا الحدث المهيب ليست لدينا عنه معلومات أكيدة. قد يكون نصبا تذكاريا قد أقيم فى بى رمسيس تخليدا للذكرى، لكنه اندثر بين أطلال بى رمسيس واختفى.

ولكن بردية «مدرسية» فى منف تروى فقرة خفيفة كتبها ملك الحيثيين الأعظم إلى حاكم كود فى سوريا الشمالية يدفعه للإسراع فى الاستعداد للتوجه إلى مصر وتقديم التحية لرمسيس الثانى، مراءاة ورياء .

وعثر فى طيبة على مذكرة متكسرة بها استهلال لرسالة نموذجية على لسان اينى - تيشوب الأول، ملك قرقميش. ومعنى ذلك أن هناك دلائل تاريخية على «اجتماع القمة» وانعقاده بالفعل، رغم ندرة الدلائل المتوفرة لدينا عنه.

العرس الملكى الثانى :

هل هناك طبيب بالدار :

ظل تقدير البلاط الحيثى «المعارف» المصرية يزداد، وخصوصا فى عالم الطب. وطارت سمعة الأعلام من أطباء مصر وأساليب علاجهم حتى طبقت الآفاق.

ومن ثم وجدت رسائل متبادلة مع البلاط الحيثى ترجع إلى الأربعينيات من حكم رمسيس (١٢٤٠-١٢٣٠ ق.م. تقريبا) نلاحظ فيها الاستخدام الملكى الجديد لإسم رمسيس الثانى، «رمسيس الثانى محبوب آمون» مضافا إليه «الإله» ملك هليوبوليس».

ويعبر عنه باللسان الرسمى البابلى كما يلى : ايلوم شارو آنا. فلما طلب أحد أتباع هاتوسيل - وهو ملك محلى صغير لدولة كورانتا- اسعافه بعلاج طبى مصرى - طبعا عن طريق رئيسه امبراطور الحيثيين، لبى رمسيس الطلب:

«الآن استدعيت طبيبا عالما. وسوف أرسله الآن لتحضير الأعشاب من أجل تارونتاس، وقد وصف مجموعة مختارة من الأعشاب، تتمشى مع طلبكم».

والظاهر أن براعة هذا الطبيب أساسها قدرته على وصف التداوى بالأعشاب. وفى زيارة من زياراته لخيتا تبادل مع طبيبين آخرين رجعا إلي مصر. مثل هذه الغدوات والروحات كانت معروفة بين بلاط مصر وبلاطات الشرق الأدنى الأخرى.

فأحيانا كان السوريون يستشيرون الأطباء المصريين بالمراسلة وأحيانا كانوا يستدعونهم لإجراء الفحوص الطبية كما اعتاد أن يفعل ملوك دويلة أوجاريت الغنية، بعيدا عن ساحل سوريا الشمالى.

وكانت ثقة الحيثيين التى لا حد لها فى خبرات المصريين الطبية، تربك رمسيس أحيانا. فلما طلب هاتوسيل من الفرعون إرسال طبيب لتحضير أدوية تساعد أخته على الإنجاب، كان رد الفرعون ردا صريحا ينقصه النبل والشهامة:

«انتبه لى يا أخى، ففيما يخص ماتانازى أخت أخى، فأنا أخوك الملك أعرفها. أليست فى الخمسين ؟ أبدا ! إنها قطعا فى الستين (من العمر)! .. ولا يستطيع أحد أن يحضر لها دواء يجعلها قادرة على الإنجاب. ولكن إذا شاء اله الشمس وإله العواصف لها أن تنجب فستنجب ... ومع ذلك فسوف أرسل لك طبيبا بارعا وساحرا عظيما، قد يمكنهما تحضير بعض أدوية الحمل لها».

الأميرة الجديدة :

توطدت العلاقات بين الدولتين بشكل كبير، لدرجة أن هاتوسيل عرض على الفرعون تزويجه بإحدى بناته الأخريات ومعها هدية عرس لائقة. «لا ترفض سيدة قط» (خصوصا إذا أمهرت مهرا كبيرا)، شعار يرفعه رمسيس فى مثل هذه الأمور، وبذلك تمت الصفقة، وفى الوقت المناسب كانت أميرة حيثية ثانية فى طريقها إلى مصر. وشارك الأمراء التوابع فى إضفاء الثراء والعظمة على هذا العرس الملكى الثانى. والاتصالات والمفاوضات فى هذا الصدد مجهولة لنا. ولكن شعراء البلاط الفرعونى شرعوا فى نظم مقطعاتهم بهذه المناسبة، مظهرين هذا الحدث كهبة من الآلهة، فى نص شعرى سجل على اللوحات التذكارية بالمعابد المختلفة :

«أمر الملك بتسجيل معجزات بتاح - تاتنن العظيمة على نصب تذكارى ... (وكذلك الآلهة الأخرى ...) التى حققوها لرمسيس الثانى، ابنهم الطيب، وتتعلق بكيفية جعل الآلهة تحض ملوك كل الدول الأجنبية على احضار الجزية إلى

رمسيس الثانى ابن الآلهة الطيب، مع الكثير من الذهب والفضة وكل أنواع الجواهر النفيسة.

ارسل حاكم خيتا الأكبر مغانم خيتا الغنية الوفيرة

ومغانم كاسكا الغنية الوفيرة ،

ومغانم أرزاوى الغنية الوفيرة،

ومغانم كودى الغنية الوفيرة :

ويا له من أسلوب لم يعرفه رمسيس الثانى من قبل !

وبالمثل جماعات من الخيل كثيرة،

وقطعان من الماشية كثيرة،

وأسراب من الماعز كثيرة،

ومجموعات من الصيد كثيرة.

ولم يتقدم موكب عروس خيتا هذه المرة فيالق الجيش ولا عرباته، لأن جبرون الآلهة المصرية وغيرها من الأمم أخضعت للركب الملوك وجندهم أينما توجه حتى وصل بسلام إلى رمسيس الثانى.

«هذه الآلهة هى التى دفعت الملوك لحمل ذهبهم،

وحمل فضتهم وحمل الأوانى الحجرية الخضراء (نوع ثمين من البازلت)..

إلى رمسيس الثانى ،

وإلى احضار جماعات الخيل،

وإلى احضار قطعان الماشية،

وإلى احضار أسراب الماعز،

وإلى احضار طرائد الصيد،

وكان أولاد الملوك هم الذين حملوا الهدية إلى حدود أراضى رمسيس الثانى.

وقد فعلوا ذلك -والحق يقال- من تلقاء أنفسهم، فلم يذهب مسئول لاحضارهم، ولا فيالق ذهبت لاحضارهم،

ولا ذهبت العربات لاحضارهم،

ولا ذهب أصحاب الألوية لاحضارهم،

انه بتاح - تاتنن، أبو الآلهة، وهو الذى وضع كل البلاد وكل الممالك تحت قدمى الاله الطيب (رمسيس الثانى) إلى الأبد».

وعلى شذى هذه العلاقة من التوافق والإنسجام بين البلاطين العظيمين، ينسدل الستار على علاقات مصر الوثيقة مع خيتا فى حياة الملك رمسيس الثانى. أما العروس فنحن لا نعلم شيئا عن اسمها أو مصيرها، أكثر من انضمامها إلى حريم رمسيس الثانى عقب أختها. كذلك لا نعلم تحديد موعد هذا العرس الكريم، وأكبر الظن أنه لم يتجاوز الأربعينيات من حكم رمسيس الثانى، عندما ألحق بإسمه لقب «الإله، حاكم هليوبوليس» وهو لقب منصوص عليه أيضا فى النصوص المسمارية، وكان هاتوسيل الثالث ما زال حيا.

وربما بعد موت هاتوسيل الثالث - أو كما يقول الحيثيون «لقى مصيره وصار الها» - وتولى تادوخاليا الحكم بعده، تكون العلاقات بين البلدين قد أخذت تفتر حتى تلاشت تقريبا. ولكن الحلف بين الدولتين استمر، طوال حياة الدولتين.

واستمر حكم رمسيس عشرين سنة أخرى فى إزدهار، حتى السنة السابعة والستين من حكمه (١٢١٣ ق.م.) نعمت فيها مصر بالأمن والرخاء على كل المستويات.

الأصداء على مر القرون :

هذه «الأحداث الملكية» العظيمة البديعة بين هاتين القوتين العظمتين فى وقتهما - مصر وخيتا- كانت الأخيرة من نوعها لقرون عديدة تالية ، وإن لم يتضح ذلك حال حدوثها.

واستمرت روابط المصاهرة لأغراض سياسية سمة من سمات هذه الحقبة وما تلاها، لكنها لم يحتف بها أبدا على هذه الصورة من الأبهة والأشعار والزخرف. ولكن فى مصر علي الأقل خلدتها الحكايات الشعبية فى ذاكرة الشعب، وخلدتها الآثار التى تركها رمسيس منقوشة عليها.

ومن ثم ، فبعد ألف سنة ، فإن المرويات الشعبية حول أميرة أجنبية تصبح ملكة لمصر، وأطباء مصريين يسافرون للخارج كانت منتشرة بين كهنة طيبة لدرجة تطفلهم عليها لإشهار أحد الآله الصغيرة فى طيبة فى القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يكتفوا بذلك بل أقاموا نصبا تذكاريا جميلا تزيينا « لتخليد» الاله الصغير حنوس صانع الخوائط لدوره كشاف للمرض، معتمدين على روايات ترجع إلى عهد رمسيس الثانى والملكة «نفرو رع».

موت رمسيس الثانى
وتشييه إلى مثواه الأخيرة

أواخر أيام رمسيس الثانى :

كان رمسيس الثانى رجلا نشيطا فى الأربعينيات من عمره عندما عقد الصلح مع الحيثيين سنة ٢١ من حكمه (١٢٥٩ ق.م.) وعندما عقد زيجتيه الفريدتين من الأميرتين الحيثيتين (بين سنتى ٣٤ إلى ٤٤) من حكمه – (١٢٤٦ إلى ١٢٣٦ ق.م.) كان فى الخمسينيات من عمره، لكنه كان سليما نشطا مثلما كان عند توقيع المعاهدة.

وقد استمر الملك صحيحا نشيطا حتى أواخر الستينيات من عمره. وبحلول سنة ٤٦ (١٢٣٤ ق.م) ربما يكون هذا الفرعون المارد قد جاوز السبعين من عمره. فى ذلك الوقت كان قد رحل معظم من شهدوا السنوات الأخيرة من حكم سيتى الأول، وانفراد رمسيس الثانى بالعرش بعد موت أبيه أو حتى معركة قادش الكبرى فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى نفسه – فقد مر جيلان كاملان على هذه الأحداث.

وفى الثلاثين سنة الأخيرة حكم رمسيس الثانى مصر كاله متوج، بكل ما فى هذه الكلمة من معان، وبكل مظاهر العظمة والجلال. ففى الخمسينيات من حكمه كان قد فرغ من مساواة نفسه أو ربطها باله الشمس رع، وأضاف لألقابه الرسمية لقب «الإله، حاكم هليوبوليس» (مدينة رع). كذلك اعتبر نفسه «الروح العظيمة لرع – حرآختى» وأضاف هذا اللقب إلى اسم عاصمته بالدلتا بى رمسيس– بدلا من لقب «الانتصارات العظيمة». وهكذا استمر يحكم باعتباره هو الشمس، لأنه اعتبر نفسه أحد مظاهر الشمس وتجسيدا بشريا لإله الشمس.

وفى ذلك الوقت كان السلام قد عم، ولم يعد له أعداء ظاهرون ولا حروب تستنزف موارده. وكانت الأمور مستقرة والنيل سخيا رخيا والأقوات متوفرة معظم الوقت.

وقد ساعده هذا الرخاء العام على المضى قدما فى مشاريعه المعمارية التى غيرت شكل الخريطة الدينية فى مصر والنوبة.

وكان مازال على رأس السلطة أشخاص من ذوى الخبرة والكفاءة من أمثال نفرو نبت (آخر وزراء طيبة) أو سو وسيتى وبرى حتب الأكبر وبرى حتب الأصغر (آخر ٤وزراء تعاقبوا على بى رمسيس فى الشمال).

ولم تعد مصر بلد الأحلام، بل بلد الجد والنشاط والعمل الدءوب فى كل مجال، فى الحقول وفى المحاجر، وفى الورش وفى المعابد، وفى كل وظائف الدولة.

وما أن حلت سنة ٣٠ من حكمه حتي أخذ رمسيس الثانى فى اتخاذ الأساليب السحرية لتجديد شباب الملك، فبدأ يقيم الاحتفالات اليوبيلية التى تتابعت بمعدل كل ثلاث سنوات مرة. وكان الملك فى اليوبيلات الأولى حتى السابع فى حالة حسنة سمحت له بشهود الإجراءات الطقسية الطويلة البطيئة المعقدة التى تنطوى عليها الاحتفالات.

لكن بعد ذلك لم يكن بالإمكان أن يخفى على أحد أن الفرعون قد شاخ وكبرت سنه. وفى الاحتفالات الأخيرة – سنة ٦٠ وما تلاها– التى شهدت اليوبيلات الخمسة الأخيرة (١٠-١٤) كان الملك قد أصبح شيخا محطما مثل «الأسطورة المتداعية، يمشى متكئا على كواهل مساعديه – وأخصهم ولى العهد الأمير مرنبتاح»..

وفاة رمسيس الثانى :

أثناء السنة السادسة والستين من الحكم فى صيف سنة ١٢١٤ ق.م. وبعد الاحتفال باليوبيل الرابع عشر، يبدو أن رمسيس الثانى لم يبارح قصره فى بى رمسيس . وربما يكون قد انتقل إلى منف أو الفيوم أو إلى دار الحريم فى « مى ور» بالفيوم ليعد طيبة مشتاه المعتاد بالنسبة لظروفه الصحية. وكان الفرعون الذى أبلى بلاء حسنا فى قادش وخلص نفسه من جيش العدو قد شارف التسعين من عمره، شيخا مهيبا مسيطرا، لكنه ولا شك كان بطئ الحركة عما كان عليه فى أيامه السالفة.

وفى الربيع التالى - سنة ١٢١٣ ق.م. - عاد الملك غالبا إلى بى رمسيس مقره الصيفى - وهى العاصمة التى بناها بنفسه وجعلها واسعة الأرجاء راسخة البنيان، وحيث عاشت أسرته، وشهدت ذكريات طفولته بجوار «مياه رع» بشرق الدلتا. فاذا كان لابد له من توديع الحياة - حياة حورس الحى - ليصبح أوزيريس ملك العالم السفلى، فما أجدر أن يكون ذلك حيث قضى أيام طفولته السعيدة، وحيث الأرض التى شهدت مواكب نصره ملكا متوجا، وتحت رعاية وريثه الوفى الأمير مرنبتاح.

ولم يبارح رمسيس قصره خلال فصلى الربيع والصيف. وفى يونيه سنة ١٢١٣ ق.م. ، ومع بداية سنة ٦٧ من الحكم بدأت الاستعدادات للعيد اليوبيلى الخامس عشر الذى يحل موعده بعد سنة ويتم الإعلان عنه فى الشتاء القابل! لكن الظروف شاءت ألا يتحقق شيء من ذلك. فمع ارتفاع حرارة الصيف بين يونيه وأغسطس سنة ١٢١٣ ق.م. أخذت صحة الفرعون فى التدهور بشكل سريع حتى أتت النهاية المحتومة. ولكن هذه النهاية لا نجد عنها شيئا فى وثائق القصر الملكى.

المهم أنه بعد حكم انفرادى مطلق ومتواصل لمدة ستة وستين عاما وشهرين، أو بعد ٧٥ سنة إذا ضممنا إليها مدة نيابته على العرش، مات أوسرماعت رع، «الذى اختاره رع» - رمسيس الثانى محبوب آمون. والآن عبرت روحه إلى الغرب الجميل فى مملكة أوزيريس.

«مات الملك : عاش الملك».

فقد حل محله الآن ولى عهده وأكبر أبنائه الأحياء - الابن الثالث عشر فى السلسلة الأمير مرنبتاح أمير التاج ووريثه الشرعى - رجلا مهيبا فى الستينيات من عمره.

وقد أجريت مراسم تتويجه بعد الإعلان رسميا عن وفاة الفرعون الراحل. وأصبح مرنبتاح هو ملك القطرين تحت لقب باى - ان - رع (تجسيد رع)، محبوب آمون، ابن رع ، مرنبتاح، الراضى بالحق. وصار بذلك أول من جلس على عرش الفراعنة بعد حكم أبيه الطويل الزاهر منذ ثلاثة أرباع قرن.

الانتقال إلى دار البقاء :

سرعان ما أذيع نبأ وفاة الفرعون الراحل وتولية الفرعون الجديد فى كل أنحاء البلاد، وركب رسل الملك مراكبهم مصعدين فى النهر حتى أبلغوا طيبة بالأنباء فى ظرف أسبوعين. وفى الشط الغربى - فى دير المدينة - ودع عمال المقبرة الملكية عهد الملك الراحل بالنواح، واستقبلوا العهد الجديد بالأفراح : كالعادة).

وعلى الفور بدأت الاستعدادات لتجهيز مقبرة رمسيس الثانى بوادى الملوك لاستقبال جثمانه فى ظرف شهرين. وشكلت لذلك الغرض لجنة على مستوى عال للإشراف على هذه العملية.

فى الشمال بدأت على الفور طقوس تحنيط وحفظ جثمان رمسيس الثانى، وتستغرق عادة سبعين يوما. وتجرى عملية التحنيط أولا باستخراج الأحشاء الداخلية وحفظها على حدة فى أوعية خاصة نعرفها اليوم باسم الأوانى الكانوبية. بعد ذلك يجفف الجسد بملء جوفه بالنطرون ثم تغطيته به تماما من الخارج. وعندما يتم جفاف الجسد يعالج بالتوابل والراتنجات تحت الجلد للمحافظة على نضارة الجسم ومظهره الحى، ثم يلف فى كثير من الأربطة الكتانية – التى قد يبلغ طولها أميالا –

وداخل هذه الأربطة توضع مجموعة متكاملة من التعاويذ والتمائم الذهبية المرصعة بالأحجار شبه الكريمة أو المزججة بزجاج ملون – كوسيلة سحرية لحفظ جثة الملك. بعد ذلك يوضع فى تابوت داخلى يوضع داخل توابيت عدة متدرجة السعة كلها من الخشب المموه بالذهب. بعدها يكون الملك الراحل قد تهيأللأبدية.

وهكذا فى أواخر اكتوبر سنة ١٢١٣ ق.م. أخذ الأسطول الملكى النهرى تتقدمه سفينة القيادة الملكية طريقه من منف ألى طيبة حاملا جثمان رمسيس الثانى إلى مثواه الأخير.

كان المصريون القدماء قد كونوا منذ العصور السحيقة أفكارهم ومفاهيمهم عن الحياة بعد الموت. وربما كانوا قد تأثروا فى ذلك بالجثث التى دفنت فى قبور ضحلة فجفت وتحنطت تحنيطا طبيعيا بفعل حرارة الشمس. وقد أمنوا منذ وقت مبكر للغاية بأن الروح تبقى بعد موت الجسد، وأنها تتخذ من الجسد «علافا» لها فتستقر داخله.

وقد تصوروا الحياة الأخروية علي أساس الشىء الوحيد الذى عرفوه، ألا وهو النيل. ولذلك اعتقدوا أن الأبدية ما هى إلا مصر أخرى أرحب وأوسع مليئة

بالخيرات من حبوب وفاكهة وخضر يجرى فيها نيلها الخاص. ويتفرع عن هذا الاعتقاد بالضرورة أن احتياجات الأفراد فى الأبدية هى نفسها احتياجاتهم أثناء حياتهم على الأرض.

لذلك لابد لهم فى الآخرة من متاع كالقدور والطعام والملابس وحتى الأسلحة. كل هذه الأغراض ينتفع بها الميت فى الحياة الأبدية بطريقة سحرية، يعززها ما يقوم به الأحياء من تقديم الهبات للموتى.

عندما اتسع حجم القبور بالتدريج قلت فعالية الشمس فى التجفيف والتحنيط الطبيعى - خصوصا أن الاتساع دائما يصاحبه زيادة فى عمق الحفرة. لذلك لجأوا لتطوير التجفيف الصناعى (التحنيط) ولف الجثة بالأربطة الكثيفة محافظة عليها. وصاحب هذا التطور زيادة فى المطالب فزادت بالتالى الأمتعة الجنازية فى حجمها وقيمتها، كما زادت العطايا الطقسية.

ومنذ ذلك الحين بدأ استخدام التصوير والنقوش والكتابة الهيروغليفية فى تصوير الموتى وما يشتهونه، وكتابة أسمائهم وألقابهم لأن الكتابة هى التى تكتب للميت الخلود الأبدى، وتمكنه من التمتع بقوائم الهبات المسهبة المبوبة بطريق السحر، حتى لو لم تقدم عطايا حية حقيقية فى الهيكل المقبرى.

وفى ذلك كله كان باب السبق والريادة طبعا للملوك. ووصلت هذه الأفكار إلى أعلى مستوياتها فى الأهرام - قبل رمسيس بثلاثة عشر قرنا. فالأهرام هى التعبير المادى عن حياة الملك فى آخرته، مرتفعا عاليا فوق كل رعاياه. لذلك يرتقى سلما (كما فى الهرم المدرج) أو يصعد منحدرا (كما فى أهرام الجيزة) حتى يبلغ السماء،

وهناك يصبح ملكا عليها أو يعبرها فى مركب الشمس التى تخصه - وهى مركب آله الشمس رع. أما رعاياهم فلن يتغيروا سواء أكانوا أحياء

يسيحون فى الأرض أم أمواتا فى جوفها. وعموما فقد كانت العبادة الزوزيرية التى تقول بأن الملك الذى قتل ثم أحيى بالسحر ليصبح ملك الموتى كانت ذات جاذبية لجمهور الشعب منذ هذا الوقت البعيد حتى نهاية التاريخ الفرعونى.

فالذى يموت يصير « أوزيريس» ويضاهى به، كى يستطيع الانتقال إلى «حياته الجديدة»، طبعا بعد أن يحاسب أمام محكمة أوزيريس المكونة من ٤٢ عضوا من مساعديه. والفشل أمام المحكمة معناه الهلاك، أما النجاح فهو جواز المرور إلى عالم السعادة الأبدية – إلى مصر الثانية الأكثر رخاء والأكثر غنى ووفرة فى كل شىء – كى يعيش فى رعاية أوزيريس والآلهة.

فى عصر الدولة الحديثة أخذ النبلاء والموظفون والقادرون فى إقامة مقاسير مقبرية فوق حجرة الدفن– اما ببنائها كما فى منف أو بنحتها فى الصخر كما فى طيبة. وكان الميت يتوقع لروحه أن تكون حرة فى الجول فى أرض الأحياء صباحا، ثم تعود إلى مرقدها فى الجسد المسجى بالقبر ليلا.

وهناك – فى العالم السفلى – عندما يعبر آله الشمس السماء فى مركبه ليلا، فسوف يهبه الحياة والضوء عندما يمر عليه. كل هذا المدى من الوجود السماوى والأرضى فى الأبدية، وما يصاحبها من عطايا وشعائر، اقتضى ظهور «الأدب» التخصصى لها ثم تطوره على مر العصور.

ففى الأهرام المتأخرة فى عصر الأهرام عثر على أدبيات أطلق عليها اسم نصوص الأهرام، تشرح طقوس دفن الملك صاحب الهرم. هدف هذه النصوص هو حماية الملك وهرمه عن طريق السحر، وتعززها بعض الدعوات والابتهالات. كل ذلك لكى يتمكن الملك من اللحاق بآله الشمس فى مركبه أو لمضاهاة الملك بالآله أوزيريس، أو على الأقل لمجرد حفظه.

فى الدولة الوسطى اقتبست بعض عبارات نصوص الأهرام وشاع

استخدامها بعد أن أضافوا إليها عبارات حديثة. وبهذه الصورة صارت تسجل بالنقش على التوابيت نفسها. لذلك أطلقنا عليها فى الزمن الحديث اسم نصوص التوابيت.

وفى الدولة الحديثة تطورت نصوص التوابيت وتعدلت فحذف منها وأضيف إليها لتظهر نصوص جديدة مختارة تؤدى إلى السعادة فى الدار الآخرة، فهى فى جوهرها مزيج من القديم والجديد. هذه المختارات الحديثة كان من الشائع كتابتها على لفائف من ورق البردى لترافق الميت وتدفن معه. لكن منها ما كان يسجل بالنقش على جدران المقاصير المقبرية وغرف الدفن تحت اسم «نصوص السير فى النهار»، وهى مشهورة لدينا الآن باسم « كتاب الموتى».

المقبرة - مقر رمسيس الثانى فى الأبدية :

عندما شارف عصر الدولة الحديثة – عصر الامبراطورية – كانت الشكوك قد حامت حول قيمة الأهرام الضخمة فى حماية أصحابها. فرغم ضخامة وقوة الأهرام فانها تعرضت للنهب والسلب على أيدى لصوص المقابر ! نهبوها فى كل فترة من فترات الاضمحلال سواء الفترة بين تفكك الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى، أو الفترة بين تداعى الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة.

وكان قد استقر رأى الملك أمنحتب الأول علي المقبرة الصخرية، المختفية فى المرتفعات الصخرية بغرب طيبة، على أن يبنى معبده التذكارى على حافة الصحراء بعيدا عن المقبرة. فلما جاء الملك تحتمس الأول تطور بالفكرة إلى مستوى أكبر، فقام أولا بتأسيس قوة عمل متخصصة للمقبرة الملكية وبنى لهم قريتهم المعزولة فى دير المدينة كما ذكرنا.

ولم يكتف بذلك بل أنه فى اختيار موقع مقبرته تجاوز مرتفعات طيبة إلى الوادى البكر خلفها وهناك قرر نحت مقبرته فى صخور هذا الوادى. منذ ذلك

اليوم أطلق على هذا الوادى اسم «وادى الملوك» .

وظل جميع الفراعنة بعد ذلك يقطعون مقابرهم فى وادى الملوك هذا لفترة تقرب من أربعة قرون متتالية، كلهم حذا حذو أمنحتب الأول فى قطع مقبرته فى صخور الوادى، وبناء معبده على الحافة الصحراوية.

ولم يشذ رمسيس الثانى عن هذه القاعدة، لكنه أغدق على مقبرته ومعبده ففاقا غيرهما فى السعة والضخامة.

وسار أسلوب الزخرفة فى المقابر فى عصر الدولة الحديثة فى خط مواز للأسلوب المستحدث فى بناء مقابر الملوك السرية الذى نطلق عليه اسم التصميم القمعى. هذا التصميم مبنى على فلسفة عقائدية وضعها علماء الدين الأقوياء، إذ وضعوا نظرية ترمى إلى توفير أقصى سعادة واستقرار للملوك فى دار الأبدية، بالتوفيق بينهم وبين الالهين رع وأوزيريس.

فأعلنوا بصراحة أنه أثناء الليل يكون رع هو أوزيريس . لانفصام بينهما. فكل يوم عند الغروب يغرب «رع» اله الشمس ويبدأ رحلته اليومية الليلية فى مركبه الليل ليطوف على أقسام العالم السفلى الأثنى عشر فى اثنتى عشرة ساعة لينشر النور ويهب الحياة لسكانها- رعاياه الموتى.

فى هذه الرحلة الليلية وحتى مشرق الشمس يكون رع هو نفسه أوزيريس وأوزيريس هو رع .. الاثنان في واحد. وفى الصباح تولد الشمس الجديدة ويحدث «الخلق الجديد» ويركب رع مركب الصباح ويعبر الأفق فى إشراقه مرة أخرى.

فى هذه المملكة المجيدة، حيث تحدث معجيزة الإشراق كل صباح، أدخل العقائديون الفرعون نفسه فى نسيجها، فقالوا بأن جسده المدفون فى مقبرته يضاهى أوزيريس وشمس الليل (رع الليلى). وقالوا ان روحه بالليل تطوف مع

رع أو مثل رع على أقسام العالم السفلى الاثنى عشر ينعم فيها بالترحيب من رعاياه السابقين.

ليس ذلك فقط بل أنه أيضا يولد من جديد مع الشروق ليصاحب اله الشمس رع (شمس النهار) في عبوره للأفق. وكانت عبادة الفرعون على الأرض كاله مستمرة استمرار بقاء معبده التذكارى «معبد المليون سنة» - الرمسيوم فى حالة رمسيس الثانى - فى الوقت الذى يرقد فيه جسده فى مقبرته فى الوادى غارقا فى الذهب وروحه تدور ليلا ونهارا ، ونهارا وليلا، مثل أوزيريس ورع فى العالم السفلى بالليل وهى عالم الأحياء بالنهار. هكذا صوروا مصير فراعنة الدولة الحديثة التى ينتمى إليها رمسيس الثانى.

وكان لابد للأفكار أن تنفذ، وللنظرية أن تطبق. لذلك اتخذ شكل المقابر ذات الممرات الأرضية فى الوادى نموذجا للطريق الذى يسلكه اله الشمس فى رحلته الليلية.

بالإضافة إلى أنه المرقد الأبدى لجسد الفرعون . وقد زخرفت هذه المقابر العظيمة بنقش «مؤلفات » خاصة على جدرانها. هذه المؤلفات هى مواضيع عقائدية حديثة مصورة تصحبها كتابات تشرح الرحلة الليلية ثم الشروق وميلاد أوزيريس - رع الجديد ويصحبتها الملك نفسه. وأحد هذه المؤلفات يسمى «موضوع الغرفة الخفية»، ونعرفه اليوم باسم الأمدوات أى ما هو «موجود في العالم السفلى».

والعنوان الحديث عنوان شامل يندرج تحته كل الكتابات من هذه النوعية. والموضوع يصور الرحلة الليلية لاله الشمس خلال الاثنتى عشرة ساعة وهو يطوف على الجهات الاثنتى عشرة تحييه فيها القردة التى تعبده، وهو يمن بعطاياه على الموتى.

وفى طوافه يتخذ شكل مركب ثعبانى ويمر فى ملك سوكر، ثم يطرد الثعبان الخبيث أبوفيس، ويهب النور ويعطى التعليمات للعالم السفلى قبل أن يولد الولادة الجديدة عند الشروق. وقد نقش هذا الكتاب على هيئة لفافة بردى صفراء ضخمة مفتوحة فى غرفتى دفن تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى ومن بعدهما حتى توت عنخ آمون –

لكن الجزء المنقوش لم يتجاوز الفصل الأول من الكتاب. ومن المؤلفات المعاصرة لذلك الكتاب كتاب يسمى «ابتهالات رع» وهو مجموعة من الابتهالات لاله الشمس فى أشكاله الأربعة والسبعين، ويربط بينه وبين أوزيريس والملك أيضا.

وفى وقت متأخر من عهد الأسرة الثامنة عشرة ظهر «كتاب المداخل»، وهو مثل الأمدوات يشرح عبور الشمس فى العالم السفلى ولكن من خلال أبواب المناطق الاثنتى عشرة.

ويحكى كتاب «البقرة المقدسة» أسطورة ثورة الإنسان على اله الشمس، والعقاب الذى حل بالبشر نتيجة لذلك، وعودة الآله إلى الأقطار السماوية، يصاحب ذلك كله دعوات سحرية تناسب الأسطورة وتعتبر ذات فائدة للميت. كل هذه المولفات العظيمة بنصوصها وصورها زخرفت بها جدران المقابر الملكية من سيتى الأول ورمسيس إلى من تلاهما من الملوك، بمصاحبة مشاهد تقوم فيها الآلهة بالترحيب بالملك وبعض الكتب الطقسية الأخرى.

ومقبرة رمسيس الثانى العظيمة (رقم ٧) رابضة فى وادى الملوك شاهدة على هذا المشروع، أى مرقده الأبدى، بتصميمها وزخارفها. وأول ما يقابلنا منزل شديد الانحدار منحوت فى الصخر، يؤدى بنا إلى باب المقبرة الرئيسى «الممر الأول لرع» الذى هو «فوق طريق الشمس». بعد ذلك توجد ردهتان

متجهتان لأسفل «الممران الثانى والثالث للإله»، متابعة لمسرى إله الشمس فى العالم السفلى.

وهنا يظهر رمسيس الثانى وهو يتعبد للاله رع، وقد حفرت جدران الردهتين بسطور هيروغليفية رأسية طويلة بخط واضح جميل تحتوى على كتاب «ابتهالات رع» تحية له، وفى الردهة التى تليهما، «الممر الرابع لرع» صورت الساعتان الرابعة والخامسة من مسرى السشمس فى العالم السفلى حسب كتاب الأمدوات– وفيهما السفينة الثعبانية تعبر المملكة الرملية لسوكر اله الموتى.

بعد ذلك نجد «قاعة الانتظار»، وتحتوى على مشاهد للملك مع الاله. ويبدو أنه كان يتعين على جثمان الملك الانتظار فى هذه القاعة لإجراء بعض الطقوس قبل نقله إلى غرفة الدفن. وخلف هذه القاعة مباشرة نجد بهوا معمدا أرحب من القاعة يرتكز على أربعة أعمدة يخرج منها منحدر يؤدى إلى باقى المقبرة، وعلى يمينها غرفتان جانبيتان.

هذا البهو الرحيب هو «بهو العربات» أو « بهو قهر الأعداد» معروض فيه عربات الملك الحربية – ربما ليستعملها الملك فى الأبدية عندما يعين الآله رع على قهر أعدائه ؟ أما الغرفتان الجانبيتان فهما من الغرف الاحتياطية التى توضع بها الأمتعة التى ليس لها مكان اخر كباقى عربات الملك أو أمتعته الزائدة.

وربما تكون هاتان الغرفتان قد زخرفتا فى يوم ما يصور موضوعها الساعات الثلاث الليلية الأخيرة (من ٩ إلى ١٢) حسب الأمدوات : وفيها يلقى إله الشمس بتعليماته ويوزع عطاياه فى العالم السفلى بينما يقوم حورس بقيادة المحاربين لدحر الأعداء الأنذال – أعداء رع وأوزيريس ورمسيس.

ويلى بهو العربات ردهتان أخريان منحدرتان لأسفل أكثر فأكثر ومتعمقتان

داخل الجبل إسمهما «ممرا فتح الاله الأول ثم الثانى» – ولعل المقصود أنهما مخصصان لطقس «فتح الفم» إذ أن هذا الطقس منقوش على جداريهما. وطقس فتح الفم من الطقوس المهمة التى تجرى على تماثيل الميت ومومياته، فيحفظ على الميت بطريقة سحرية سمعه وبصره ، وفتح فمه لتناول الطعام، وباختصار حيويته ونشاطه فى الأبدية.

وكان من شعائره لبس الثياب والتجميل وقوائم الهبات المحتوية على الأطعمة المناسبة. تفتح الردهتان على غرفة فسيحة «غرفة الصدق» تمتد يمينا (يستقبل فيها الملك وقد برئ من الآثام ؟). وفى النهاية اليمنى يوجد باب يفتح على غرفة كبيرة تسمى «بيت الذهب» – هى بهو الدفن العظيم المعمد المعد لدفن الملك، حيث يرقد فى توابيته المذهبة بسلام داخل تابوت حجرى ضخم.

هذه القاعة هى سؤرة ومركز كل هذا المنشأ الشامخ تحت الأرض. والجدر الأمامية للبهو (حجرة الدفن) منقوش عليها البابان الأولان من «كتاب البوابات»، وفى غرفة جانبية إلى اليسار يوجد الباب الثالث من الكتاب.

وفى مواجهة هذه الغرفة توجد غرفة أخرى مخصصة لكتاب «البقرة المقدسة». وباقى جدران هذه القاعة الكبرى عليها لقب الفرعون المميز والساعتان الزولتان من ساعات الأمدوات : وفيهما يلقى إله الشمس الترحيب فى العالم السفلى ويشرف على حقول هذا العالم غير الأرضى ليحفظ على الموتى حياتهم بصورة مستقلة فلا تتوقف على العطايا التى تمنح لهم من الأرض .

فوقهم إلى اليمين توجد غرفة جانبية أخرى خصصت للساعة الثامنة : الساعة التى ينير فيها اله الشمس كهوف العالم السفلى لرعاياه فى رحلته الليلية. أما الغرفة الجانبية اليسرى فتسجل ساعة الأمدوات الحاسمة – الساعة الثانية عشرة : ساعة الانتصار وعودة إله الشمس للحياة عند الشروق وبصحبته الملك

أيضا. وهذه الغرفة تمثل الذروة فى هذه القاعة (البهو).

وخلف البهو بابان يفتحان على آخر أجنحة الحجرات الثانوية : فالى اليسار حجرة كلها صفف حجرية وسقفها مزخرف بالساعتين السادسة والسابعة : فى الساعة السادسة يعود اله الشمس بجسده استعدادا للبعث فى الساعة الثانية عشرة .

والساعة السابعة هى ساعة انتصاره على الثعبان الخبيث أبوفيس الذى يحاول ايقاف الشمس. ويفتح الباب الخلفى الأيمن أولا على حجرة مشابهة فيها على ما يبدو تصوير لساعة الأمدوات الثالثة والباب الخامس من « كتاب البوابات». بعد هذه الحجرة توجد حجرتان أخيرتان أخراهما محشودة بصفف حجرية صلبة.

هاتان المجموعتان من الحجرات -٤جانبية و٤ خلفية حول بهو الدفن - تسميان «الخزانتين اليمنى واليسرى» و«قصر تماثيل الخدم» أى الأوشابتى، و«قصر مقر الآلهة» أى تماثيلها الرمزية. لذلك فهى حجرات تحوى الكثير من التجهيزات الجنازية السحرية والتماثيل الحافظة للملك فى حياته الأخروية. وكل هذه المعدات- من الذهب، والخشب المموه، المتقن الصنعة - كان لابد من تجزيها أو نقلها من المخازن الملكية وتجهيز المقبرة الملكية بها بحيث تكون المقبرة مستكملة من كافة الجوانب ساعة وصول الجثمان الملكى للدفن.

الوداع الزخير :

أخيرا، بعد رحلة الأسابيع الثلاثة من الشمال إلى الجنوب، رسما الأسطول النهرى الملكى بطيبة. وهناك رتب الفرعون الجديد مرنبتاح لما سوف يجرى عمله. ثم تشكلت المسيرة العظيمة - حسب الترتيبات - من الكهنة وكبار الموظفين، يتقدمهم جثمان الملك الراحل - رمسيس الثانى - على محفة تجرها

الثيران وحوله العائلة الملكية على رأسها الفرعون مرنبتاح مع العبيد الذين يحملون أمتعة الفقيد الجنازية الخفيفة وممتلكاته الشخصية. وتوقف الركب عند الرمسيوم -غالبا- لعمل الطقوس اللازمة التى تستغرق يوما أو نحو ذلك، وقد صار الفقيد منذ اللحظة فى مصاف الآلهة.

بعد ذلك سار الموكب المهيب شمالا بحذاء الحد الصحراوى ثم انحرف غربا ليعبر المنحدر المنعزل الذى يصل الصحراء بوادى الملوك، حيث تنتهى الرحلة. وهناك قام الفرعون الجديد بدوره - دور حورس الجديد - بدفن أبيه - الأوزيريس الراحل.

ومن ثم فقد شهد مرنبتاح آخر الطقوس ومنها ولا شك « طقس فتح الفم» للمومياء عند مدخل المقبرة. وأخيرا بعد المرور تحت أضواء الشموع فى الردهات والقاعات المتتابعة بما فيها من نقوش وزخارف ونصوص غامضة عن العالم السفلى.

وفى بيت الذهب أدخلت مومياء رمسيس الثانى فى توابيته المذهبة ودفنت بكل مهابة فى مرقدها الأخير. هذا بينما أخذت روحه المجيدة فى القيام بالدورة الأبدية مع أوزيريس واله الشمس.

ثم خرج الكهنة والندابون إلى الخارج - إلى ضوء النهار مرة أخرى . وسدوا باب الدخول بالحجارة بعد أن أغلقوه ثم ردموه بالرمل والحصى ليخفوه، ويبقى مغلقا إلى الأبد.

بذلك انضم رمسيس الثانى إلى زمرة الفراعنة السابقين الأجلاء، وانضم إلى مجمع الآلهة العظام فقد ارتفع إلى مصافهم.

آراء مؤرخى العرب

فى أبو الهول العظيم(١)

كانت الآراء التى صدرت عن أبو الهول بعد الفتح الإسلامى عام ٦٤٠ بعد الميلاد قليلة وإن لم تكن مع ذلك عديمة القيمة إذ تبين مدى تغلغل المأثورات المحلية فى الناس رغم تغير الدين مرتين.

عبد اللطيف البغدادى

يقول عبد اللطيف البغدادى :

«وعند أحد هذه الأهرام رأس هائل بارز من الأرض فى غاية العظم، يسميه الناس «أبا الهول» ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض، ويقتضى القياس أن تكون جثته بالنسبة إلى رأسه سبعين ذراعا فى الطول، وفى وجهه حمرة ودهان أحمر».

المقريزى

وذكر المقريزى :

«وفى زماننا (٧٨٠هـ) شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر، وهو أحد الصوفية قام لتغيير أشياء من المنكرات، وسار إلى الهرم، وشوه وجه أبى الهول، فهو على ذلك إلى اليوم، ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة وأهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبى الهول ولله عاقبة الأمور».

---

(١) أبو الهول تاريخ فى ضوء الكشوف الحديثة ، د/ سليم حسن - ترجمة جمال الدين سالم - مجلة الأسرة ١٩٩٩م.

على مبارك

ويقول على مبارك : «هذا الصنم (أبو الهول) يقال له اليوم « أبو الهول» وكان أولا يعرف ببلهيب كما ذكر المقريزى».

القضاعى

ويقول القضاعى : «صنم الهرمين – وهو «بلهوية» صنم كبير فيما بين الهرمين لا يظهر منه سوى رأسه فقط، تسميه العامة بأبى الهول ويقال بلهيب، ويقال إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على منطقة الجيزة».

وفى كتاب عجائب البنيان ذكر أن : «عند الأهرام رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم، تسميه الناس أبا الهول ، ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض.

ثم يقول عنه الرحالة «فانسلب» إن أنفه قد هشمت بيد رجل مراكشى، رويت عنه فى شعر عربى جميل قصة لا أذكرها هنا حرصا على الإيجاز فضلا عن عدم ثقتى فى صحتها .

على أن هذا المعتوه الذى شوه وجه « أبو الهول» قد أوقع فعلته بالأسود التى كانت تزين أحد جسور القاهرة التى شيدها الملك «الظاهر بيبرس البندقدارى»، ولكن ما ذكره «عبد اللطيف البغدادى» أن الأسود وأبو الهول إنما شوهها الشيخ محمد صائم الدهر وذلك لاعتقاده بأن الله إنما يرضى عن ذلك.

آراء الأثريين المحدثين فى «أبو الهول» الكبير

«فلندرز بترى»

يقول الأستاذ فلندرز بترى فى كتابه تاريخ مصر:

وبالقرب من هذا المعبد (معبد الوادى للملك خفرع) يربض «أبو الهول»، ولما كنا نفتقر إلى مايدل على عصره فقد نركن فى دراسته هنا إلى الموقع الذى يقوم فيه... متى نحتت تلك الزكمة من الصخر هكذا ومن نحتها ؟ ثمة تاريخ لاحق أتاحه لنا «تحتمس الرابع» فى اللوح الذى أقامه بين مخالبه، وليس من شك إذن فى أنه كان أقدم من عهده.

ولقد ظن من ناحية أخرى أنه يرجع إلى فجر التاريخ ولكن هناك شواهد تدحض ذلك إذ يتوسط الظهر بئر قبر قديم، وما كانت هذه البئر لتحفر أيام تقديسه، ولابد أنه كان لمقبرة أقيمت هنا قبل أن ينحت «أبو الهول» .

كذلك فليست هناك مقابر قريبة تسبق عهد «خوفو» ولا كذلك فى هذه المنطقة قبر أقدم من «خفرع»، تشهد ذلك فيما نرى من الطريق الصاعدة العريضة الممتدة فى الصخر حتى الهرم الثانى.

إذ يقع على كل من جانبيها عدد عظيم من آبار المقابر، على حين لاتجد واحدة منها قطعت فى عرض هذا الطريق كله وحاصل ذلك أن الطريق إنما يسبق القبور فى المنطقة وأن «أبو الهول» يلحق تلك القبور.

ذلك هو رأى «بترى» ولكنه إنما يتحدث عن الطريق الصاعد قبل أن يكشف عنه كشفا كاملا حقاً، لم يكن هناك قبور فى هذا الجزء من الطريق الصاعد الذى يقع إلى جانب «أبو الهول» والذى كان الجزء الوحيد الظاهر للعيان حتى توليت الكشف عن سائره عام ١٩٣٥ و ١٩٣٦. ونستطيع أن نرى

اليوم أن جزأه الذى يقع غربى «أبو الهول» ثم يمتد حتى الهرم الثانى إنما يحوى آبارا حفرت فى سطحه الأعلى كما ترى غرفا للدفن قطعت فى جوانبه.

فإذا اتخذنا الحقائق كما عرفها «بترى» وجدنا رأيه سليما، إنما وقع فى الخطأ حين حاول استنتاج حكم على موقع لم يكشف إلا جزء منه وهو أمر خليق ألا نعنف فى نقضه.

مسبيرو

كان مسبيرو يميل أول الأمر إلى نسبة «أبو الهول» إلى عصر ماقبل الأسرات إذ يقول : لقد اعتلى تمثال «أبو الهول» العظيم «حرماخيس» حارسا على أقصى الشمال منها (النهضة اللوبية) منذ عهد اتباع «حور» .

ثم عاد بعد ذلك فعدل رأيه إذ يقول : فى «أبو الهول» « لعله يمثل الملك خفرع» نفسه وهو يحرس معابده وهرمه بقوة السحر التى فى «أبو الهول» . ثم يعود بعد ذلك فى نفس الكتاب فيقول :

«لقد ظل تاريخه موضع جدل آخر. وتشير الكشوف الحديثة إلى أنه إنما يمثل «خفرع» نفسه- وذلك برأس فرعون وجسم أسد- وهو يحرس هرمه ومعبديه من كل شر بقوة السحر التى فى «أبو الهول».

بروكش

ويقرر بروكش أن الملك «خوفو» كان قد رأى «أبو الهول» ولذلك فلابد أنه كان موجودا قبل عهده وذلك رأى يبدو أنه إنما أقامه على ما جاء فى لوحة الإحصاء المشهورة.

بورخارت

ومضى بورخارت تحت عنوان «أبو الهول بالجيزة» فاندفع فى خيال غريب، إذ أراد أن يحدد عصر «أبو الهول» من الخط الملون الذى يحلى عينه ومن الطريقة التى ثنى بها لباس رأسه، وذلك أن هذه الخصائص التى ترى فى «أبو الهول» لم تظهر كما يزعم في عصر آخر إلا على عهد الأسرة الثانية عشرة وفى حكم الفرعون «إمنحات الثالث» على وجه الدقة (١٩٤٩ - ١٨٠١ ق.م)، بل إنه ليرى فى قسمات «أبو الهول» شبها بتماثيل «إمنحات الثالث» المعروفة، وربما كان لسوء حظ بورخارت بالنسبة للشواهد من ثنى لباس الرأس (نمس) وخطوط الكحل أنها ليست فى تماثيل المجموعات الوطنية فى أوروبا، ولذلك كان مذهبه فى نسبة «أبو الهول» إلى الدولة الوسطى محالا قبوله.

برستد

أبدى برستد شكه صريحا فى عصر «أبو الهول» حيث يقول :

«لم يستقر الرأى بعد فيما إذا كان «أبو الهول» نفسه من عمل «خفرع»، فإن «أبو الهول» كشأن سائر تماثيل أبو الهول الأخرى ليس إلا صورة لأحد الفراعنة.

وهناك إشارة غامضة إلى «خفرع» في نقش بين مخلبيه الأمامين تدل على ما كان معروفا له فى تلك الأيام من شأن به».

بدج

ويقول « بدج» في آخر طبعة لكتابه «المومياء» :

«وعند هذا المعبد (أى معبد الوادى للملك خفرع» يقوم ذلك الأثر الغامض أبو الهول ..... الذى كان يوما رمزاً للإله «حور مأخت» .....»

ولذلك ظل الإله على الأرض. ويحدث نقش عثر عليه «مريت» فى معبد «إزيس» قرب هرم « خوفو» : إن الملك «خوفو» أقام هذا المعبد.

وإن البعض يظن أنه هو الذى استنحت هذا النتوء الصخرى فى صورة أسد برأس إنسان، حيث ملئت أجزاء منه بالبناء زيادة فى إتقان هيئة الجسم، ويفترض آخرون أن «أبو الهول» أثر من عهد ما قبل الأسرات ولكن هذه النظرية غير ذات أساس.

وعندى أن «أبو الهول» العظيم فى الجيزة إنما أقيم من بعد إتمام هرم «خفرع» وملحقاته. وأن الذى يفضى بى إلى تلك النتيجة من الشواهد : خندق يمتد حتى الجانب الشمالى من طريق الهرم الثانى، إذ اقتطع هذا الخندق الذى يبلغ عرضه مترين وعمقه متراً ونصف متر فى الصخر ليكون فاصلا بين جبانة «خوفو» فى الشمال وجبانة «خفرع» فى الجنوب، وتشهد تعيين الحدود بحفر الخنادق بالنسبة للمصاطب المنحوتة فى الصخر حيث تقع فى السطح الأعلى من الصخر لتعيين حدود القبر.

وينتهى الخندق الذى تتحدث عنه فجأة عند الحافة الغربية للتجويف الذى يربض «أبو الهول» فيه.

ويقوم هذا الخندق اليوم مصرفا للمياه عند حدوث مطر غزير، فيصرف كل مياهه القذرة فى الحفرة التى يجثم فيها «أبو الهول»، ويبدو هذا برهاناً واضحا على أن «أبو الهول» قد نحت بعد الانتهاء من إنشاء الطريق الصاعد، فلو قد كان موجودا من قبل لما امتد الخندق حتى يصل إلى التجويف الذى يقيم «أبو الهول» فيه، فما كان معقولا أن يصبح الحائط المقدس لإله وعاء لتصريف المياه ولو فى أوقات متباعدة. ثم لم يعد على كل حال سبيلا إلى تجنب ذلك حين نحت «أبو الهول» ولذلك فقد بذل المهندسون مافى وسعهم، فسدوا نهاية الخندق

بكتل هائلة من الجرانيت، وفى هذا برهان قاطع على أن «أبو الهول» إنما كان إضافة لاحقة على هرم «خفرع» وملحقاته وإن لم يكن من الضرورى انتماؤه إليها.

يبدو ذلك إذن كأنما يحدد عصر «أبو الهول» بأواخر حكم « خفرع» على أكثر تقدير، وفضلا عن ذلك فان تفاصيل التمثال إنما تتفق مع أسلوب النحت فى الدولة القديمة، كذلك فإن «أبو الهول» كما قد رأينا إنما يسبق المقابر التى نحتت فى حوائط المسرح المحيط به على حين ينتمى طراز معبده من غير أدنى شك إلى طراز الأسرة الرابعة.

على أن قاعدة «أبو الهول» لما كانت فى واقع أمرها الجزء الأسفل من الجدار الغربى من هذا المعبد فلا سبيل إلا أن تأخذ بذلك الأمر ونجعله أدنى حد لعصر «أبو الهول» بمنتصف الأسرة الرابعة.

وهناك حقائق أخرى تؤيد هذه النظرية فيما يأتى :

١- إن إقامة «أبو الهول» العظيم بعد عهد «خوفو» يمكن التحقق منه بدليل الخندق فى الطريق الصاعد . مما يوكد من غير شك أنه إنما اقتطع بعد إتمام هذا الطريق.

٢- وإذا كان علينا أن نعتبر «أبو الهول» صورة للملك الإله فلابد عندئذ من أن نتلمس مؤسسه فى شخص الملك الذى يقع هرمه ومعباده فى أقرب مكان منه، فإذا بالشواهد تعود فتشير إلى «خفرع».

٣- على أنه لا سبيل إلى نسبته إلى «منكاورع» بانى الهرم الثالث لسببين: أولهما : بعده عن هرمه وملحقاته، وثانيهما: أنه كان عاجزا حتى عن أن يتم هرمه ومعبديه.

– إن مسئولية خفرع عن إقامة «أبو الهول» إنما تزداد احتمالا بدراستنا لتصميم معبد «أبو الهول» ومعبد الوادى «لخفرع» إذ يظهر جليا أن المبنيين إنما يولفان جزءا من تصميم واحد هائل .

ولذلك فإنه ليبدو من تقدير تلك الأمور أن علينا أن نرجع الفضل فى إنشاء أعجب تمثال فى العالم إلى «خفرع» ولكن مع ذلك التحفظ دائما وهو زنه ما من نقش واحد قديم يربط بين «أبو الهول» و«خفرع» اللهم رلا السطر المهشم الذى جاء على لوحة «تحتمس الرابع» ولا يدل على شىء.

ومهما يبدو من سلامة ذلك البرهان فان علينا أن نتخذه برهانا موقوتا حتى يأتى وقت إذا بحركة سعيدة من فأس تكشف فيه للدنيا عن مرجع قاطع فى أمر إنشاء هذا التمثال، ولا حرج فى أن نتخذ من تمثال «أبو الهول» علما على تماثيل «أبو الهول» فى عهد الدولة القديمة وإن لم يكن أقدم أمثلتها، فهناك تمثال أنثى «لأبو الهول» كشف عنه أعضاء المعهد الفرنسى فى أثناء الحفر حول معبد الملك «ددف رع» فى «أبو رواش». فإذا صح أنه معاصر لهذا الهرم كما يبدو لكان عندئذ سابقا على «أبو الهول» العظيم ببضع سنين.

وفضلا عن ذلك ففى أثناء حفرنا عن المعبد الجنزى وعما حفر فى الصخر من مراكب الشمس «لخفرع» عند الجانب الشرقى من الهرم الثانى عام ١٩٣٤ – ١٩٣٥، عثرت على قاعدة وذراع لتمثال «لأبو الهول» من الحجر الجيرى، وقد دلت المخالب على أنه كان فى حجم أسد كامل النمو.

أما أنه كان تمثالا حقا «لأبو الهول» لا تمثالا لأسد فقد أمكن تبينه من أسفل صدره الذى بقى على القاعدة، حيث يظهر الجزء الأسفل من الميدعة التى يرتديها تمثال «أبو الهول» عادة مسبلة إلى الأمام، فلو كان التمثال لأسد لكان الصدر منحوتا من أسفل بعض الشىء.

وليس من شك بحكم الموقع عند مراكب الشمس لخفرع أن «أبو الهول» إنما ينتمى إلى ذلك الملك. وقد افترض «هولشر» وجود تمثالين يحرسان مدخل معبد الوادى للملك خفرع.

وربما كانت قطعتنا تلك جزءا من زوج آخر يؤدى نفس الغرض بالنسبة للمعبد الجنزى.

وقد ظهر فى نهاية الأسرة الرابعة وبداية الأسرة الخامسة طراز جديد «لأبو الهول» وهو «أبو الهول» القائم، ولقد خرج هذا الطراز محطما إلى النور حين كنت أتولى الحفر عند معبد الوادى للملكة «خنتكارس» بنت «منكاورع» وهى التى حكمت البلاد بحق الوراثة واتخذت لقب «ملك الوجه القبلى والوجه البحرى»، وكانت بذلك الصلة بين الأسرتين الرابعة والخامسة. فلقد كانت هذه الملكة بانية الهرم الرابع بالجيزة، وهو الأثر الذى اختلف وصفه – وكان معظمه مغموراً بالرمال – بأنه هرم غير كامل، أو نتوء من صخر طبيعى.

ولقد عولت على بحث هذا الأثر فى موسم حفائرنا الرابع، فإذا بى عند تنظيفه أجد النقوش من بوابات الجرانيت والباب الوهمى قد أوردت اسم الملكة وصورتها، وبذلك سدت فجوة أخرى من فجوات تاريخ مصر المبكر.

ومع ذلك فلنعد إلى «أبو الهول» الذى وجد فى معبد الوادى لهذه الملكة. يدل المستوى المنخفض حيث وجد، وطبيعة البقعة التى لم تمس على أنه كان معاصراً للمعبد، ومما يؤسف له ضياع الرأس وتكسر السيقان، ولكن ما بقى منهما إنما يكفى للدلالة على أنه كان واقفا، متباعد الأقدام، كأنه فى موقف قتال، وذلك فى جسم رشيق، حسن القد، خال من الحلية، غير أن أغرب ما فيه أنه خال من الرابطة الحجرية التى تصل بين أرجله من تحت جانب الجسم وبين القاعدة.

ثم تقدم لنا الأسرة الخامسة (٢٧٥٠-٢٦٥ ق.م) فكرة جديدة عن «أبو الهول» لعلها ترجع إلى ملوك «هليوبوليس» الذين أحسوا بما فى أشكال «أبو الهول» من نواحى الجمال فأسرعوا إلى انتحالها لصالحهم، وربما استطعنا أن ننسب إلى هذه الفترة أول صورة بشرية «لأبو الهول».

ذلك أن هذه الأسرة لما كانت قد ادعت أنها السلالة المباشرة لإله الشمس نفسه، وأن ملوكها الثلاثة الأولين «وسر كاف»، و«سحورع» ، و«نفرار كارع» كانوا في الواقع أولاد لإله من صلبه، ولدتهم امرأة من الناس كانت زوج الكاهن الأكبر للإله «رع»، ولم يكن فى تمثيلهم على صورته شيء من أفكار الإلحاد.

ولذلك نجد «ساحور ع»، وقد مثل نفسه على صورة أسد جبار، مزود بجناحى الصقر وريشه، واطئا أعداءه تحت أقدامه، وذلك منظر يشاهد فى نقش فخم من معبد «ساحورع» بأبوصير التى أصبحت منذ الأسرة الخامسة الجبانة الملكية الجديدة.

ولكن سوء الحظ العاثر قد لازم هذا المخلوق فدمرت رأسه. غير أن لدينا نسخة لاحقة من هذا المنظر كشف عنها كذلك «بورخارت» ظهر الرأس فيها لصقر، فإذا به يبين صلته بما على ظهر «أبو الهول» من جناحى الصقر وريشه، ويضفى مزيدا من المظهر الفنى على الوحش الذى صور على لوحة الإردواز التى ترجع إلى عصر ماقبل الأسرات.

ثم تخلف لنا الأسرة السادسة (٢٦٢٥ - ٢٤٧٥ ق.م) مثلا هاما «لبيبى الأول» فى صورة «أبو الهول» محفوظ الآن بمتحف اللوفر، وقيل إن «أبو الهول» هذا قد جاء من «تانيس» فى شمال الدلتا وذلك على غير يقين من أنها موطنه الأصيل، إذ تعرض بضع مرات لاغتصاب الملوك من عصور تالية منهم «رمسيس الثانى» وابنه «مرنبتاح».

ومن ناحية أخرى فقد خرجت إلى النور بقايا كثيرة من عهد الدولة القديمة فى «تانيس» كان بعضها ينتمى إلى «بيبى الأول».

وقد يحار المرء فى قلة ما لدينا من تماثيل «أبو الهول» من الدولة القديمة مع خصوبة عصرها فيما أنتجت من تماثيل الملوك، وهو أمر نشهده مما وجدنا فى حفائرنا وحدها، إذ استخلصنا البقايا المهشمة لما بين الثلثمائة والأربعمائة تمثال لخفرع أخرجت كلها من أحجار أنيقة كالدريوريت والجرانيت والمرمر.

بل لم يكن تعدد التماثيل فى قبور الأفراد نادراً بحال، فهذا «رع ور» وكان موظفا لدى الملك، نفر اير كارع»، خرج قبره إلى النور فى أول مواسم حفائرنا بالجيزة فإذا به يحوى مالا يقل عن مائة تمثال كان أكثرها بالحجم الطبيعى.

ترى ماذا صارت إليه تماثيل «أبو الهول» الكثيرة التى يحق لنا افتراض وجودها معاصرة «لأبو الهول» الكبير أو سابقة عليه بقليل ؟؟. فإن من غير المحتمل علي الإطلاق أن تكون قد دمرت كلها.

وكذلك فلو قد كانت مخبوءة ليس غير لتحتم فى أكثر من مائة عام من حفائر علمية (وكذلك غير علمية) أن يكشف عن بعضها على أقل تقدير، ومع ذلك فلم يظهر منها حتى الجذاذات المحطمة، وذلك خلال النماذج التى ذكرت منذ قليل. تلك أحوال إنما تدعو إلى الشك العميق، ولعلها تدعو إلى النظر فى مطالع الدولة الوسطى بحثا عن تماثيل «أبو الهول» هذه الضائعة .

فلعل طائفة من أحسن الأمثلة المنسوبة إلى هذه الدولة أن تكون فى الواقع من عمل الدولة القديمة، غصبت وعدلت تفاصيلها كى تتفق مع الذوق السائد.

ولعل ذلك بخاصة أن يكون حال التماثيل الجيدة التى وجدت بأعداد فى عصر معروف من عصور الصراع الداخلى والاضطراب والفقر وذلك شأن الأمم

كلها فى مثل هذه الفترات، إذ ينحدر مستوى الفن فيها بالسرعة التى يرتفع بها فى عصور السلام والرخاء.

ولذلك فإن الميل إلى اغتصاب التماثيل على نطاق واسع، إنما يحدث بداهة فى عصور يفتقر فيها إلى الوسائل، ولقد كان مهرة الفنانين أقل من أن ينتجوا المستوى الرفيع من أعمال لعصرهم.

طراز «أبو الهول» المختلفة
كما ظهرت فى العصور المتعاقبة

فى نهاية الدولة القديمة (٢٤٧٥ ق.م) وقعت ثورة اجتماعية على أثر تداعى السلطة الملكية، وسادت منذ ذلك التاريخ حتى عام ٢١٦٠ ق.م فترة من الفوضى تعرف عند المؤرخين بعصر الفترة الأولى، وطبيعى أن الذى بقى من آثار هذا العهد قليل، كما أن هناك شكا فيما أتيح لأى من ملوك هذه الفترة من الوسائل أو مدة الحكم اللازمة لإنتاج أثر تذكارى ولو كان متواضعاً، ولذلك فلم يحدث حتى قيام الدولة الوسطى أن حصلنا على شاهد جديد فى مسألة أشكال «أبو الهول».

كانت الدولة الوسطى (٢١٦٠ - ١٧٨٨ ق.م.) عصراً عظيما من عصور التاريخ المصرى إذ سرعان ما تولت البلاد سلالة ملوك أقوياء، وحكومة راسخة قادتها إلى عهد من الرخاء، ازدهر فيه الفن فى جميع فروعه، فلم يكن مدهشا لذلك أن تمدنا الدولة الوسطى بطائفة من طرز جديدة «لأبو الهول». وقد حفظت لحسن الحظ أمثلة كثيرة من كل طراز منها، وكان أروع هذه الطرز الجديدة ما يعرف بتماثيل «أبو الهول الهكسوسية» وذلك لأن بعضها يحمل اسم ملك الهكسوس «أبوبى»، أو تماثيل أبو الهول التانسية نسبة إلى المكان الذى وجدت فيه.

وقد كانت هذه أكثر آثار الحضارة المصرية حظوة بالبحث والجدل حيث وضعت النظريات الكثيرة التى توضح تاريخها وأصلها. ومن خصائص هذه التماثيل أن الوجه وحده هو الإنسانى فيه، أما الرأس بل وكذلك الأذنان فهى لأسد، على حين استبدل بلباس الرأس المعتاد (نمس) معرقة الأسد.

وكان «جولينشف» منذ أمد بعيد حول عام ١٨٩٢ ميلادية قد أرخ تماثيل «أبو الهول» هذه بعهد الأسرة الثانية عشرة، وافترض أنها من عهد «امنمحات الثالث» ولكن «كابار» من ناحية أخرى قد مال إلى تأريخها بالعهد العتيق.

على أنه يبدو كأن رأى «جولينشيف» فيما نسبه من تماثيل بأسود «أبو الهول» هذه إلى امنمحات الثالث إنما هو الرأى الصحيح، فان قسمات هذه التماثيل تشبه بصورة بارزة ما عرف من صور هذا الملك، وقد لحظ هنا أن ذلك المظهر من قسمات الوجه الصارم الشديد إنما كان من خصائص هذا العهد، فلقد كان فراعنة الأسرة الثانية عشرة حقاً ملوكا أولى بأس راسخين ولكن بأسهم لم يتطامن لهم بغير الجهد المجهد.

ففى داخل البلاد كان حكام المقاطعات المتغطرسون مصدر تهديد دائم للسلطة الملكية، على حين كان على مصر فى آسيا والنوبة أن تمارس كل قوتها فى سبيل إحراز الأملاك لها هناك والاحتفاظ بها، ولقد تمكن ملوك هذا العهد من القضاء على هذه الصعاب جميعا وإن كان ذلك بثمنه ، فلم يعد الفرعون رباً هادئاً يرتفع على صغائر شئون الإنسانية، بل لقد أصبح المناحتة والسناسرة من ملوك الأسرة الثانية عشرة بشراً من الناس، بذلوا من الجهد والضنى فى سبيل كسب الاستقرار والرخاء لبلادهم.

ولكن الكفاح الذى خاضوه قد ترك علامات لا تمحى على وجوههم، نقلها مثالو القصر فى مهارة لا مثيل لها إلى صورهم، فلربما بدأ امنمحات الثالث فى

صورة أسد عبوس، ولربما نفعت تماثيل «أبو الهول» هذه فذكرت حكام الأقاليم بأن امنمحات كالأسد يستطيع أن يبرز مخالبه إذا اقتضت الحاجة.

ولم يكن وجود اسم ملك الهكسوس «أبوبى» على طائفة من تماثيل أبو الهول هذه إلا أحد أفعال الغصب الكثير التى تعرضت لها حيث تسهل رؤية الحفر الجديد فى الحجر بوضوح.

وثمة طراز آخر من تماثيل «أبو الهول» تشبه الطراز الآنف مع خلوه من صارم القسمات التى تميز تماثيل «أبو الهول الهكسوسية» ومن هذا الطراز نموذج من الحجر الجيرى جاء من «الكاب» فى صعيد مصر وهو الآن فى متحف القاهرة، وكان هذا التمثال على عهد الأسرة الثامنة عشرة قد اغتصبته الملكة العظيمة «حتشبسوت»، وكانت قد صدرت عن نزعتها المعتادة فى الظهور بمظهر القوة والسلطان قد وجدت من غير شك فى «أبو الهول» هذا من خصائص بأس الأسود ما يشبع رغباتها.

أما الطراز الآخر وهو جسم أسد ويرتدى على الكتفين وشاحا ثم ميدعة، فمن شكل تطور فى هذا العهد. كما أن له رأس إنسان ولحية مستقيمة، وقد أصبح هذا الطراز الذى يصور مثالا ممتازا منه. وهذا النوع بالذات من الجرانيت، وكان قد اغتصبه – فيما بعد– رمسيس الثانى. وقد ظهر هذا الطراز فى أماكن مختلفة ولكن أكثر المعروف من أمثلته قد تعرض للاغتصاب.

وثمة طراز جديد آخر هو «أبو الهول» ذو الرأس الإنسانى والذراعين الإنسانيتين ، ولعل هذا الطابع الجديد يكون قد أدخل لدواع فنية، فلا نرى إلا تماثيل «أبو الهول» من التى تبدو كأنها تودي عملا باليدين كأن تحمل إناء، أو تقدم رمز الحق، أو تتلقى أشعة الشمس كما سنرى بعد فى مثال آخر. وتمتاز اليد البشرية فى كل هذه الأوضاع برشاقة مظهرها على مخلب الأسد المستدير المكتنز.

وقد ظهر طراز آخر يشبه ذلك الذى يمثل «ساحورع» على صدرية ذهبية، ولكن جسم الأسد هنا غير مزخرف ولا مجنح فقد بدا مقعيا على كفله حيث نعرف من موضعه قبالة حيوان «ست» أنه «أبو الهول» مقدس يمثل «حور».

وهناك تمثالا صغيرا من عاج من أبيدوس «لأبو الهول» يرجع تاريخه إلى نهاية الدولة الوسطى، ويرى الدكتور «هول» بالمتحف البريطانى أنه يمثل أحد ملوك الهكسوس لعله «خيان» وهو يعذب بغير شفقة مصريا يقاوم فى قبضته.

نرى من هذه الأمثلة أن «أبو الهول» كان يتطور فى أشكال جديدة وأساليب جديدة، كما أن هناك ميلا فيما يبدو إلى الطبيعة الملكية عن الطبيعة الإلهية، فلقد كان كل ما تقدم من أمثلة – باستثناء «حورس» أبو الهول على الصدرية الذهبية – تماثيل للملوك فى هيئة «أبو الهول».

تماثيل «أبو الهول»

فى الدولة الحديثة

منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ق.م) أخذ تمثال «أبو الهول» يتطور فى أشكال جديدة، كما أظهرت الطراز الموجودة منه ميلا إلى التغيير، فإذا جسوم «أبو الهول» الأولى ذات البنية المتينة والعضلات تميل إلى النحافة وتبدو كالقط فى شكله. وإذا «أبو الهول» ذو الأيدى الإنسانية يبدو وقد تحولت رجلاه الأماميتان بأسرهما إلى ذراعين بشريتين، على حين عاد إلى الظهور برأس القبرانى (عصفور) صديقنا القديم على لوح الإردواز ذلك الكلب الخرافى المصور من عصر ما قبل الأسرات. وقد ظهر هذان الطرازان على رأس بلطة للملك «أحمس الأول» رأس ملوك الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ق.م).

ثم كان منتصف الأسرة الثامنة عشرة مؤذنا بنهضة عظمى فى عبادة «أبو الهول» لأسباب درست فى غير هذا المكان حيث تبوأ «أبو الهول» العظيم

فى الجيزة بطبيعة الحال قدراً عظيما من الإهتمام. فصور على لوحات هذا العصر فى هيئته القديمة، أسداً له رأس إنسان، وإن كان قد تلقى إضافات جديدة كثيرة فى بزته حيث نراه الآن فضلا عن علامات الدولة القديمة من النمس والصل الملكى قد تزين بتاج «أتف» الطويل الخاص بالآلهة والملوك وذلك مع قلادة عريضة وريش صقر وجناحين مضمومين، ولقد كان هناك دائما علاقة وثيقة بين الصقر و«أبو الهول» ترجع إلى تسويته بالإلهين «حور» و«حور أختى» وكان الصقر هو الطائر المقدس الذى يرمز لهما به.

وغير بعيد أن تكون هذه التفاصيل الإضافية قد أضيفت فعلا إلى تمثال «أبو الهول العظيم» ، فما كان أسهله من أمر أن تصبغ الزخارف على جسم التمثال، ولربما كان الثقب الذى يقع فى سمت رأسه جيباً لتثبيت تا ج من خشب أو حجر أو معدن فيه. ويؤيد تلك النظرية ماجاء على «لوح الإحصاء» من حديث يقول إن «أبو الهول» كان مغطى كله بالأصباغ.

وكانت حملات تحتمس الثالث على «آسيا» (١٥٠١-١٤٤٧ ق.م) حافزا قويا لتيار تمثيل الفرعون فى هيئة «أبو الهول» المظفر الذى يطأ أعداءه. مما صور على طرف خوذة خشبية لتوت عنخ آمون حيث مثلث قرون الكبش بارزة على كل من رأس «أبو الهول» وتاجه. وتلك ظواهر تبين ما كان من تسوية «أبو الهول» بآمون رع الذى كان الكبش حيوانه المقدس. وهناك طراز أكثر تطوراً من شكل أبو الهول هذا، نراه فى تلك الأسود ذوات رءوس الكباش التى أقامها إمنحتب الثالث (١٤١١- ١٣٧٥ ق.م) على جانبى الطريق المؤدية إلى معبد «خنسو»بالكرنك.

ومن المحقق أن هذا الارتباط بين «أبو الهول» و «آمون» إنما يرجع إلى ما كان من علو هذا الإله من مستوى إله قديم خامل الذكر إلى موضع الرأس من الإلهة المصرية وذلك حينما ابتلع اختصاصات إله الشمس رع رب هليوبوليس

الإله الأعلى حتى ذلك الوقت. فأصبح يعرف باسم «آمون رع»، وكما اندمج إسمه فى إسم الإله القديم «رع» ، كذلك وقع لحيوانه المقدس «الكبش» الذى اندمج فى الأسد الشمسى، ولذلك نتج الأسد ذو رأس الكبش، أو الأسود ذوات القرون الكباش.

ومن عصر العمارنة لدينا طراز آخر «لأبو الهول» يرى فى مناظر «أخناتون» وهى تبين جسم الأسد المستطيل يعلوه صورة لرأس الملك، فنرى الذراعين البشريتين مرفوعتين لتلقى أشعة الشمس الخيرة الفياضة عن قرص «آتون» الذى كان رمزاً للإله الواحد رب أخناتون. وتدل المبالغة فى تمثيل قسمات الملك أخناتون على أن هذا المنظر قد صور فيما يقرب من أواخر حكمه.

وذلك أن الملامح السقيمة لم تظهر بقوة فى صوره الأولى، ولذلك فان ما وقع من الملك بأن أذن بتصوير نفسه فى شكل «أبو الهول» أيام كان فى أوج تعصبه الدينى ليكشف عن مقدار ما كان «لأبو الهول» من التحام قوى بعبادة الشمس. كذلك أخناتون فى هيئة «أبو الهول» وهو يقدم رمز الحق. وتلك ظاهرة يمتاز بها هذا الملك الذى اتخذ الحق شعار كيانه (ولو رسميا على الأقل).

وثمة رسم غريب على قدح من الفيوم، يمثل اثنين من «أبو الهول» يواجه أحدهما الآخر بينهما نخلة تقليدية. ويدل الجناحان المرفوعان على تأثير أجنبى، وذلك أن الرسم المصرى الصريح «لأبو الهول» إنما يجعل الجناحين مستقرين دائما على الجسم، ولكن أغرب ما فى التمثالين أن الوجه لأنثى على حين أن الجسد لأسد .

وسنرى مما سبق من شرح أن الأسرة الثامنة عشرة خليقة أن تسمى بحق بالعصر الذهبى لتماثيل أبو الهول وذلك بحكم عدد طرزها وتنوعها. ومهما يكن من شىء فان هناك شكا فى أن نقارن من حيث الجمال تلك المخلوقات

بزينتها المسرفة وما على رءوسها من تيجان غير مستقرة طويلة نامية، بما فى «أبو الهول» العظيم وغيره من الأمثلة الأولى من نبل وبساطة أو بما فى طابع الهكسوس من صرامة وبأس جاد.

الإناث من أبو الهول المصرى

ترتبط أنثى أبو الهول عادة بمارد الأساطير الإغريقية الخرافى، ومع ذلك فقد وجدت أنثى أبو الهول في مصر منذ زمن بعيد وذلك من قبل أن تطرح أختها الهلينية لغزها المشئوم، ولقد كانت تماثيل «أبو الهول» المصرية عادة من الذكور وكانت الإناث قلة، ومع ذلك فقد ظهر منها أنوا ع شيقة من ثلاثة أشكال وهى كما يأتى :

(١) الطراز المصرى الصريح ويختلف عن ذكر «أبو الهول» فقط فى الرأس الأمرد المؤنث. وحسبنا من غرابة أن يكون هذا النوع من أبو الهول فيما يبدو أقدم مثل لأسد برأس إنسانى، وهو الذى عثرت عليه بعثة المعهد الفرنسى فى «أبو رواش» وقد يعد بذلك أقدم من «أبو الهول» العظيم بالجيزة ببضع سنين.

ويشبه أبو الهول هذا تمام الشبه طراز أبو الهول المعتاد من ذكور الدولة القديمة إلا من الوجه الأمرد وما فيه من صفات الأنثى الواضحة، بل أكثر من ذلك دليلا أنه طلى باللون الأصفر وهو اللون التقليدى لجسم المرأة فى مصر القديمة، أما أجسام الرجال فكانت تطلى باللون الأحمر القاتم. وقد افترض أن «أبو الهول» هذا ربما كان يمثل إحدى الأمهات من عظام ملكات الأسرة الرابعة. فإذا كان الملك فى هذا العهد يمثل بصورة ذكر أبو الهول فإن ظهور الملكة فى هيئة أنثى أبو الهول لأمر جد منطقى.

ويعود هذا الطراز إلى الظهور فى الأسرة الثامنة عشرة فى منقوش بإحدى مقابر دير المدينة، غير أن قوادم الأسد هنا قد استبدلت بهما ذراعان

بشريتان تتحليان بأساور حول المعصمين، وفى اليدين إناء، يفترض المسيو« بروبير» أن أبو الهول هذا إنما يمثل الملكة «حتشبسوت» غير أن كل ما تعرف حتى الآن لهذه الملكة تماثيل ذكور ملتحية.

وثمة تمثال لأبو الهول يمثل ملكة من زوجات تحتمس الثالث فى أحد مناظر مقبرة «رخ - مى رع» الوزير المشهور لكل من تحتمس الثالث وإمنحتب الثانى حيث صورت طائفة من التماثيل الملكية، ويلبس هذا التمثال تاج العقاب الذى تلبسه ملكات مصر على شعر مستعار كثيف كانت تلبسه عادة الآلهة «حتحور» ربة الحب والجمال.

وقد كشف عن تمثال من هذا الطراز فى قرية «المنيا والشرفا» ، وهو الآن بمتحف القاهرة، كما أنه غير منقوش، غير أن فى وجود كتلة من الجرانيت عليها اسم «تحتمس الثالث» وجدت إلى جانبه قد يوحى كذلك بأنه ينتمى إلى عهده.

وعثر على تمثال يكاد يكون توأما للتمثال السابق فى معبد إزيس برومه، وهو الآن فى مجموعة «باراكو» ويمثل هذا التمثال الملكة «مريت رع حتشبسوت» بنت الملكة حتشبسوت العظيمة وزوج تحتمس الثالث، ولابد أن يكون قد حل إلى رومه كأثر مصرى من نحو ألفى عام.

ويرى المستر «ديفز» أن أبو الهول هذا إنما كان نموذج التمثال الذى صور فى مقبرة «رخ مى رع» ويفترض أن تحتمس الثالث قد استرسم زوجه فى هذه الهيئة رداً على تماثيل أبو الهول المتغطرسة التى تمثل الملكة حتشبسوت ذكرا، كأنما أراد أن يعلن أن تصويرها فى صورة أبو الهول لم يكن خالص حقها، بل لأنها مجرد عقيلة الملك الأسد.

ثم مثل شيق نجده فى منظر الملك « أمنحتب الثالث» وزوجه الملكة «تى»

(١٤١١ - ١٣٧٥ ق.م.) صور فى مقبرة شريف يسمى «خيروف» بطيبة، فعلى جانب العرش الذى تجلس عليه الملكة طائفة تمثل إناثا من أبو الهول واثبة تطأ شخوصاً منبطحة لامرأة أسيوية وزنجية. وذلك نقل لصورة مشهورة للملك المنتصر فى هيئة أبو الهول وهو يطأ أعداء مصر. ويصور أبو الهول فى هذا المثل الملكة «تى». وواقع الأمر أن كل ما ذكر من تماثيل أبو الهول إنما يمثل فيما يبدو ملكات، وهى الإناث التى تقابل منطقياً ذكور أبو الهول الملكية.

(٢) طراز خاص تبدو فيه مؤثرات سورية أو كنعانية، سنسميه اصطلاحا «أبو الهول» السورى، ولهذا الطراز من أبو الهول فضلا عن لباس الرأس الغريب جسم اللبؤة، وهناك مثال رائع من هذا الطراز من صندوق في مجموعة أبوت، ولدينا صورة مماثلة لأبو الهول على جوهرة من حجر اليمان الكريم كانت لأمنحتب الثالث، وقد قيل إن أبو الهول هذا بملامحه الأجنبية الملحوظة إنما يمثل زوج «أمنحتب الثالث» المتنية الأصل وتظهر إناث لأبو الهول من هذا الطراز الأجنبى على حافة جلباب مطرز «لتوت عنخ آمون» محفوظ الآن بمتحف القاهرة. وتظهر تماثيل وصور أبو الهول هذه أيضا على آنيات الذهب والفضة التى كان يؤديها السوريون جزية إلى ملوك الأسرة التاسعة عشرة.

ولعل صور «أبو الهول» هذه السورية تمثل الآلهة الآسيوية «عشتارت» التى أدخلت عبادتها فى مصر على عهد الأسرة الثامنة عشرة على حين كانت مصر على علاقة وثيقة بجاراتها الآسيوية.

وكانت احدى مراكز عبادة هذه الآلهة فى منف، حيث سميت أحيانا «بنت بتاح».

أبو الهول

فى العصر الإغريقى الرومانى

نعرف من العهد الإغريقى الرومانى طرز متميزة من «أبو الهول» فى مصر، فهناك أولا الطراز المصرى الخالص الذى لم يتغير عن شكله الأصلى منذ عهد الدولة القديمة، ثم الطراز الإغريقى الخالص الذى نبحثه بمزيد من الاستقصاء وفى غير هذا المكان، وهو طراز مؤنث ومجنح فى العادة.

وفى أمثلة رائعة من أبو الهول الإغريقى فى مصر حيث تكون هذه التماثيل طرفى سوار من الذهب. وبين هذين الطرازين يأتى ثالث «خلاسى» فيه خصائص من الفنين المصرى والإغريقى،، فلباس الرأس مصرى خالص ولكن تشكيل الوجه والمخالب الأمامية المتقاطعة إغريقية. ولك أن تقارن هذه المظاهر الأخيرة بالأسد المنذور الذى وجد إلى جانب لوح «أمنحتب الثانى» العظمى فى حفائرنا.

العصر الرومانى

ومن العهد الرومانى وصلت مجموعة هامة وإن لم تكن بحال فنية من أبو الهول، توحى بما فيها من شبه بتلك التى على نقود «تراجان» و«هدريان» بأنها معاصرة أو سابقة قليلا على ثانيهما (١١٧ -١٣٨ بعد الميلاد).

من تماثيل «أبو الهول» هذه المركبة وهى من منظر منقوش بمتحف القاهرة يمثل «أبو الهول» برأس أنثى من البشر على جسم أسد ذكر يكتسى ظهره بريش صقر وينبعث من وسطه جناحان يبدوان متصلين بجسمه بسلسلتين متقاطعتين تمران تحت بطنه، ومن كفله يخرج رأس صقر متوج بقرص الشمس ،قورن كبش، على حين ينتهى الذيل بصل، ويبرز من هذا

المخلوق حيث يحتل موضع صدر الأنثى باكمله رأس تمساح.

كما يحيط برأس «أبو الهول» الإنسانى خصلة من شعر جعد فوق قلنسوة النمس يعلوها قرص الشمس وقرنا الآلهة «إزيس»، ومن تحت أقدام «أبو الهول» ثعبان ناشر كبير يرفع رأسه إلي الأمام على حين تلتف ثعابين أخرى صغيرة حول السيقان من فوق المخالب.

وهناك أمثلة أخرى من أنواع مشابهة ترى بمتحف القاهرة. كما أن فى كلية العائلة المقدسة بالقاهرة نوع آخر من «أبو الهول» حيث تحيط رووس ثمانية من الحيوانات برأس «أبو الهول» كأنها الإكليل المعقود، من الأقصر، أما رؤوس الحيوانات هذه فهى العجل «إبيس» وتمساح (سبك) وصقر (حور) وكبش (آمون) وقرد (حابى بن حور) وابن آوى (أنوبيس) ومالك الحزين = إبيس (تحوت) وأسد (سخمت وتفنوت وباخت وماحس). وماذا عسى إذن أن يمثل ذلك الكابوس من المخلوقات.

يبدو كأنما يوحى وجه الأنثى وجسم الأسد الذكر ورأس التمساح محل الصدر البشرى بمخلوق ذكر وأنثى فى وقت واحد ناسل ومنتج ومطعم. ترانا نفسر صور «أبو الهول» هذه بأنها تمثل مصر منتجة الحياة ومقيمتها، مصر التى من صدرها يخرج النيل مانح الحياة الذى رمز له بتمساح يطأ الصحراء المجدبة فى الثعبان تحت أقدامه؟ أما رؤوس الحيوان فيبدو واضحا كأنما تمثل أحب الآلهة إلى الناس.

ظهور أبو الهول فى آسيا

كنا حتى الآن قد قصرنا بحثنا فى «أبو الهول» فى مصر ليس غير، ولكن الأوان قد حل الآن كى نسائل عن مصر إن كانت لأبو الهول الموطن الأصيل أو أنها استعارته من بلد آخر؟ على أن أغرب المصادفات أن نجد فى أقرب جيران مصر من البلاد صور «أبو الهول» وهى وإن لم تكن فى الواقع توائم للمصرية منها على الأقل فهى قريبة الشبه منها جداً، وعندى أن مصر على الأرجح كانت الموطن الأصلى «لأبو الهول» وأن الأسيويين والإغريق نقلوه من هنا كل بدوره حيث أدخلوا عليه بعض التعديلات فى شكله أو طبيعته كى ينسجم مع الصورة من عقليتهم وذوقهم الفنى.

ويقع دليل هذه النظرية فيما يبدو بالنسبة لما ظهر من طرز أبو الهول المنوعة فى كل من مصر وآسيا من أن المثال المصرى أقدمها على كل حال وذلك كما تبين من الأمثلة الآتية :

١- كان أول ظهور المارد المركب فى آسيا هو «التنين» وهو أسد ذو رأس وجناحين لطائر من سباع الطير، وقد ظهر مثل هذا المخلوق مصوراً على ختم اسطوانى من سوسا(عيلام)، يرجع تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق.م وربما اتفق هذا فى التاريخ المصرى مع الأسرة الثانية أو الثالثة، وهو لذلك أحدث بكثير من تنين لوح الإردواز من عصر ماقبل الأسرات، ذلك إلى أن الصنعة فى ختم «سوسا» فجة جداً ولا سبيل إلى مقارنتها بالأمثلة المصرية.

٢- ويكشف «أبو الهول» من عاج من نمرود (بآشور) بالمتحف البريطانى الآن، عن أصله المصرى، إذ يتفق تاريخه مع الأسرة الحادية والعشرين، وقد رأينا من قبل أن تماثيل مجنحة لأنثى «أبو الهول» قد ظهرت فى مصر على عهد الأسرة الثامنة عشرة، وليس هذا المثل الأخير بالفريد فى ذاته وإنما هو علم على كثير غيره من نفس الطراز والمستوى.

٣- مجموعة من اثنين من «أبو الهول» يواجه أحدهما الآخر أمام شجرة تقليدية، وهما يشبهان هنا تمثالى «أبو الهول» على قدح «الفيوم» ولكنهما هنا مزودان برأس كبش آمون. ويرجع تاريخ هذه المجموعة إلى ما يعادل الأسرة الثالثة والعشرين المصرية، وهنا نجد أيضا أن المثل المصرى أقدم.

٤- وهناك أحيانا فى آسيا كما فى مصر ردة إلى شكل الأسد الصريح، فلدينا من بابل مجموعة جميلة من البازلت الأسود تمثل أسداً منتصراً يطأ عدوه الصريع، وهو معاصر للعصر الصاوى فى مصر (٦٦٢-٥٢٥ق.م.).

وهكذا يتبين فى جميع الأحوال من وجود طرز متشابهة أن المثل المصرى كان أقدمها وأن مصر كانت حتما هى المهد الذى ولد فيه «أبو الهول» وكان «أبو الهول» الأسيوى من حيث الطبيعة مشابهة للطراز المصرى ويتولى نفس دوره، حيث يقوم حارسا للأبواب وفى مواضع أخرى مشابهة وكانت تماثيل «أبو الهول» قد تولت حراسة مداخل المعابد منذ عهد الدولة القديمة.

أبو الهول فى ميسينا واليونان

يبدو كأن «أبو الهول» بعد أن استقر فى آسيا قد مضى عن طريق آسيا الصغرى وميسينا إلى بلاد اليونان حيث تطور إلى طراز خاص دون أن يفقد خواصه التى تنم عن أصله المصرى.

ولقد كان «أبو الهول» الإغريق دائما أنثى، وقد يبدو عجيبا أن يلتقط الإغريق ذلك الطراز الذى كان دائما قلة ولا يمثل بحال «أبو الهول» عامة، ولكن علينا أن نقبل ذلك لما شغف به الإغريق الأقدمون من حب عنيف للجمال الجسدى.

ولقد انجذبت فكرة «أبو الهول» إلى طبائعهم العاطفية المحلقة فى الخيال، كما راق الجمع بين جمال المرأة وفتوة الأسد ذوقهم الفنى.

أما من ناحية التصوير، فليس يبدو سوى شبه قليل بين «أبو الهول» فى مصر وبينه فى اليونان، بل إن إناث «أبو الهول» المصرية على عهد الأسرة الثامنة عشرة لا تشبه فى مظهرها الطراز الهيلينى ، كما أن النظرة العابرة لا تلمح تشابها من حيث الطبيعة، ومهما يكن من شىء فلسوف يتبين بالفحص الدقيق أن التغيرات الملحوظة فى «أبو الهول» الإغريقى لم تؤثر فى طبيعته الفطرية، كما أن علاقته الشمسية قد بقيت بدون تغيير.

وأبرز أمثلة «أبـو الهول» الإغريقى وأكثرها تصويرا هو المارد الذى يلعب ذلك الدور المشهور فى أسطورة «أوديب» ولذلك فأحرى بنا أن نجمل القصة هنا على أن هناك روايات كثيرة لهذه المأساة ولكن أكثرها شيوعا إنما يجرى كما يلى :

كان «ليوس» أول ملوك طيبة (اليونان) و«يو كاست» زوجته بغير عقب من البنين، فلما سألا الوحى فى ذلك حدثهما أنهما إذا ولد لهما ولد عاش حتى يكون قاتل أبيه، وقد كان لما ولدت «يو كاست» الولد إذا بأبويه يخرقان قدميه ويلقيان به فى جبل «كيثرون» فريسة للسباع.

على أن راعى الملك «بوليبس» ملك كورنثة عثر على الطفل فأخذت زوجته «مروب» الشفقة وتبنت الطفل، ونشأ الملك والملكة والطفل واتخذوه ولدا وسمياه «أوديبوس» لتورم قدميه حين وجد.

ثم مضت أيام حياته حتى عيره أحد أهالى كورنته بأنه ليس ابن الملك حقيقة وكان أن لجأ إلى الوحى يتبين حقيقة الأمر، فما كان جواب الوحى إلا أنه قد قدر عليه أن يذبح أباه ويفسق بأمه.

ولما كان «أوديبوس» يؤمن بأن ملك كورنثة وملكتها أبواه حقا فقد صمم على ألا يعود إلى داره حتى لا تتحقق النبوءة.

وفى الطريق فى أثناء سفره بين «دلفى» و«دوليس» اتفق أن التقى «أوديبوس» و«لابوس» حيث يجهل كل من الرجلين بطبيعة الحال صاحبه. فأراد سائق عربة ملك «طيبة» أن يدفع «أوديبوس» بعنف عن طريقه وإذا بأوديبوس فى الصراع الذى أعقب ذلك يقتل «ليوس» محققا بذلك أول أجزاء النبوءة.

وكانت «أبو الهول» فى هذا الأوان قد ظهرت على صخرة عالية خارج «طيبة»، حيث أقبلت من أثيوبيا (كما يقول «أبوللو دورس»)، وقد كانت تعلمت من ملهمات الشعر لغزا وطفقت تعترض كل عابر سبيل فتطرح عليه ذلك اللغز ثم تقتلهم لعجزهم عن الجواب. ولم يوفق أحد للحل حيث كان المارد يقضى كل يوم على مزيد من الضحايا لا يرحم منزلة ولا جمالا.

وظل أهل طيبة يجتمعون كل يوم فى سوقهم ويتشاورون فى تلك المعضلة. فقرروا بملك طيبة ويد الملكة «بو كاست» زوجة لمن يخلصهم من المارد، ولكن أحدا لم يعش ليطالب بالمكافأة المغرية.

فلما اتفق مرور «أوديبوس» من هذا الطريق أخذت «أبو الهول» بتلابيبه فطرحت عليه اللغز قائلة: «ما هذا الذى يسير على أربع أرجل فى الصباح وعلى رجلين فى الظهيرة وعلى ثلاث أرجل عند الغروب، ويبلغ أقصى الضعف عند ما تبلغ أقصاها».

فأجاب «أوديبوس» بعد قليل تدبر قائلا : «الإنسان .... فى صبح حياته يحبو على أربع، وفى ظهرها يمشى نائما على رجليه، وفى غروب حياته شيخا يتخذ عصا وهى رجل ثالثة، وهو الأضعف فى طفولته وفى شيخوخته.

وكان هذا هو الجواب السديد، فإذا «أبو الهول» فى صورة غضب يقفز من فوق الصخرة فيتمزق إربا.

ورجع «أوديبوس» إلى المدينة حيث رحب به الناس ملكا ثم سرعان ما

تزوج من «يوكاست» وكل منهما يجهل ما بينهما من قرابة فكان أن تم بذلك الجزء الثانى من النبوءة.

وبعد سنين ظهر الحق عما بينهما من القرابة عن طريق الوحى فعمدت «يو كاست» خجلا وتأنيبا فقتلت نفسها على حين سمل «أوديبوس» عينيه.

فى هذه الأسطورة طائفة من عناصر واضح أنها مصرية الأصل.

أولها: ما هنالك من نظائر شمسية قوية تفضح فى ذات اللغز المشهور الذى قيل إن « أبو الهول» تعلمه من ملهمات الشعر (موزيس) اللاتى كن فى ركاب إله الشمس، وفيه تستطيع التعرف على إشارة الفكرة المصرية التى مثلت شمس الصباح طفلا ينبعث من زهرة لوتس متفتحة، أما الرجل فى عنفوانه فهو «رع» أى الشمس فى قوتها عند الظهيرة، على حين أن الرجل المشيح بعصاه إنما يمثل «أتوم» إله الشمس عند غروبها وهى تترنح ضعيفة نحو الغرب.

وقد يبدو كأن الإغريق أنفسهم قد عرفوا العناصر الشمسية التى كان اللغز يشملها. وهى فى رواية «أراخلويا» إنما تختصر مراحل حياة الإنسان إلى مراحل النهار الثلاث. ثم هناك الرواية التى تصف «أبو الهول» بأنه أقبل من «أثيوبيا» تلك التى تدل صراحة على أن الإغريق قد نسبوها إلى أصل إفريقى دون أن يقيموا أى إدعاء بأنهم أصحابها. ثم عامل آخر يؤيد ماقيل من أصل مصرى لأبو الهول الإغريقى هو طبيعته، ويبدو لأول وهلة كأن فى ذلك شيئا من التضارب وذلك لأن المارد الإغريقى شيطان خبيث على حين أن «أبو الهول» المصرى حارس.

غير أن «أبو الهول» المصرى لا يكون لين العريكة إلا مع قومه المختارين وما أكثر مناظره وهو يطأ الأجانب من أعداء مصر، كما أن واقع ظهوره حارساً للمعابد والمقابر إنما يشير إلى سليقة مفترسة. فكان لذلك طبيعيا من

الأجانب لجهلهم بالمعنى الحقيقى لهذا الرمز، فلم يروا إلا بؤس الضحايا المصورين تحت مخالب «أبو الهول» أن يتصوروه وحشا ضاريا ينزل بأرضهم ويفرض جزية يومية من الضحايا الأحياء.

وفضلا عن ذلك، فربما بدا من الفنانين والمثالين الإغريق -حتى المعروفين منهم مثل «فدياس»- تأثر عميق بأشكال الفن المصرى حين تمثيلهم «أبو الهول».

ويبدو كأن «فدياس» وهو يختار الوحدة الزخرفية على عرش «زيوس» قد تأثر عن وعى بما كان عادة على جانبى عروش الفراعين من زخارف كعرش «أمنحتب الثالث» مثلا. وذلك دون ذكر للمجموعات الكثيرة الأخرى التى تمثل «أبو الهول» المنتصر وهو يدوس الأعداء ويمزقهم.

وقد حفظت قطع من مجموعات «فدياس» بمتحف فيينا تظهر للعيان فيها ملامح الأسلوب المصرى وتشابه المكان الذى تزينه.

ويحتفظ «أبو الهول» الإغريقى بخصائصه الحزينة فى كل فرصة تقريبا، ويبدو كأن ذلك إنما يربطه بالموت خاصة، ومن ثم نراه مصوراً زخرفا على التوابيت.

ويرى كل من «فيكر» و«فور تفانجلرن» أن «أبو الهول» شيطان للموت السار، وقد يربطه ذلك بمخلوفات مثل الجنيات والنساء المجنحات.

ويرى «جب» أن «أبو الهول» كان رمزاً لقوة شيطانية جسما وعقلا. ويقول إن ما يمثل فى الفن الإغريقى من صور «أبو الهول» على الآثار الجنزية إنما هى فى الغالب علامة على القوة التى لا تقهر ولا يمكن دفعها وتودى بالناس. ومع ذلك فيبدو على الأرجح أن صور «أبو الهول» الجنزية هذه إنما كانت صدى حزينا للتقاليد المصرية التى تتخذ من «أبو الهول» حارسا يقظا للقبر.

ولكن هناك انشعابا كبيراً من التقاليد المصرية، ذلك أن «أبو الهول» الإغريقى قد لقى الهزيمة والمهانة على يد «أوديبوس» على حين أن «أبو الهول» المصرى لم يستأنس ولم يهزم قط.... فهل يرجع هذا إلى رغبة الأجانب الباطنة فى إذلال كبرياء «أبو الهول» الفاتح أو إلى أن المارد الأنثى وهى تشترك مع المرأة فى صفاتها الجوهرية ينبغى بحكم قانون الطبيعة أن تخضع للرجل ؟

أبو الهول فى القرن الإغريقى

فى سبيل البحث عن أصل مظهر أبو الهول الإغريقى ينبغى علينا النظر فى مسيسنى وجزر بحر إيجه.

كان ظهور صورة المارد المركب مبكراً جداً فى الفن المسيسنى، إذ ظهر الأسد ذو رأس النسر فى رسوم جصية فى العصر الأول «لمينوس» حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م أى معاصراً للأسرة الثانية عشرة.

وحول عصر الأسرة الثامنة عشرة دخلت مصر فى علاقة وثيقة بقبرص حيث جرى بينهما تعامل تجارى كبير لم يقصر فى إحداث أثره على فن البلدين، وإن ظلت مصر على مظهرها بأنها أعطت أكثر مما أخذت. وهناك مثال ممتاز عن التأثير المصرى على الفن القبرصى يمكن رؤيته فى الصناعة المعدنية من هذا العهد حيث اتخذت وحدات مصرية معروفة دون ما بيان فى الغالب لأثر من اثار الضعة الأجنبية.

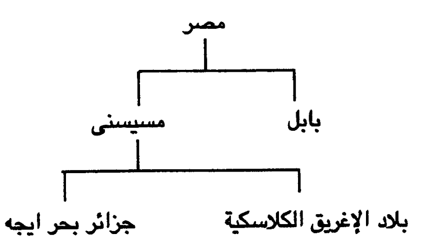
غير أن العناصر المصرية طفقت تتضاءل مع الأيام كأن الفنانين قد أخذوا يستلهمون «أبو الهول» الأسيوى. ذلك أن تماثيل أبو الهول المجنحة على تابوت «أماتونت».

لا تشترك مع تلك المصرية إلا فى شىء قليل فيما خلا الفكرة الخفية الكامنة التى تربطهما بحماية المتوفى.

ويرى مثال جميل يرجع تاريخه إلى حوالى سنة ٥٦٠ق.م وهو بذلك يعاصر الأسرة السادسة والعشرين المصرية وهو أبو الهول إغريقى صريح ولكن العنصر المصرى مايزال باقياً فى علاج الجناحين وغطاء الصدر.

ومن أرشق تماثيل «أبو الهول» الأجنبية وأمتعها ما نشاهده فى مجموعة تزين نهاية تابوت من «صيدا» معاصر للأسرة التاسعة والعشرين المصرية حوالى عام ٥٠٠ ق.م حيث لا وجود للتأثير المصرى كافة إلا فيما عسى أن تكون من فكرة كامنة بأنه حارس للموتى. وكان هذا الطراز الأخير أكثر شيوعا عند الإغريق فى العصر الكلاسيكى حيث نجده فى مواضع كثيرة مختلفة.

ومن الصحف السابقة نستطيع أن نلحظ أن «أبو الهول» الإغريقى على الرغم مما فيه من اختلاف واضح فى الجسم والعقل ومع ذلك فهو مشتق من «أبو الهول» مصر حيث ينبغى وضع سلسلة نسبه كما يأتى :



ومن الغريب أن نلحظ مع نمو الثقافة الإغريقية فى مصر فى عهد البطالمة، أن «أبو الهول» الإغريقى قد دخل ثانية إلى موطنه الأصلى فى ثوب جديد محوطاً بمحصول جديد من الأساطير.

المغزى الدينى لأبو الهول

أسماء «أبو الهول» منذ أيام الدولة القديمة حتى فتح العرب لمصر:

يبدو منذ الوهلة الأولى أن من أعجب الحقائق عن «أبو الهول» الجيزة أن كافة مقابر الجبانات التى تحيط به، لم يرد فيها نقش واحد يذكره من قريب أو بعيد تحت أى مما نعرف له من أسماء، وذلك على الرغم مما لدينا من أدلة مادية على ما كان يوجد أيام الأسرة الرابعة من تماثيل صغرى لأبو الهول، ومع ذلك فما كان لنا أن نتوقع لاسمه من ذكر فى مقابر الأفراد. إذ كان من أرباب عبادة الشمس، التى كانت يومئذ وقفاً على الملكية، ومع ذلك فليس فى الأهرام ولا الآثار الجنازية حيث نتوقع ذكر نقش باق.

حقا لقد ذهبت الظنون كثيراً فى هذه الآثار قد كانت خلوا كلها من النقش والتصاوير، ولكن القليل مما بقى من المعبد الجنزى لمعبد الهرم الأكبر عام ١٩٣٩، وكسرات قليلة من مناظر رشيقة قليلة البروز فى الحجر الجيرى الأبيض تدل على أن هذا المعبد على الأقل قد كان مزينا بنفس النمط الذى زينت به معابد الأسرة الخامسة الجنزية المشهورة بأبو صير، ويصدق ذلك أيضا على مصلى الملكة «خنتكاوس» الجنزى من آخر الأسرة الرابعة.

ولعل مانزل من دمار شمل – ماعدا نواة البناءة – معابد أهرام الجيزة الجنزية كلها، ومعبد الهرم الثانى بخاصة أن يكون قد حرمنا ذلك ذات الدليل الذى ننشده عن أبو الهول، وفضلا عن ذلك فان ما ذكر من الآلهة فى مقابر الأفراد فى الدولة القديمة إنما كان قاصراً قطعاً على أصحاب الصفة الجنزية منهم مثل «أنوبيس» و«سكر» و«أوزير». بل إن آخر الثلاثة نفسه لم يذكر إلا نادراً مثل نهاية الأسرة الخامسة.

ولم يحدث حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة أن ظهرت براهين قاطعة على أن «أبو الهول» قد كان معدوداً من آلهة الموتى، ومع ذلك فلم يكن ذلك إلا عن طريق ارتباطه بغيره من الأرباب من أصحاب الصبغة الجنزية، ومن المحقق أن اسم «أبو الهول» لم يظهر فى صيغ القربان من قبل هذا العهد.

ولقد اكتست الغرف الغائرة من اهرام «أوناس» (من الأسرة الخامسة حول عام ٢٦٢٥ ق.م) و«تيتى الأول» و«مر نرع» و«بيبى الثانى» (من الأسرة السادسة حول عام ٢٦٢٥-٢٤٧٥ق.م) والملكات من زوجات آخرهم بنقوش دينية سحرية يرجع بعضها إلى أقدم القدم، وتعرف اليوم بمتون الأهرام. وهى تؤلف ما بعد حتى الآن أقدم ما خلف لنا مكتوبا من الأسفار الدينية من غابر العصور وهى لذلك ذات قدر هائل فى دراسة اللاهوت.

فى نصوص الأهرام هذه، نجد أول ذكر لأبو الهول حيث يظهر باسم «روتى» مرتبطا بالإله «أتوم» فقد جاء فى سطر ٢٠٨٢ عن الملك : أنه أخذ إلى «روتى» وقدم إلى «أتوم».

وظل ارتباط «أبو الهول» بأتوم حتى الدولة الحديثة، فقد جاء فى كتاب الموتى وهو مصنف سحرى دينى من هذا العصر: (الفصل الثالث السطر الأول) «أياتوم يامن يظهر سيداً للبحرية، ويامن يضىء مثل «روتى» الذى يسمع أوامرك بلسان الماثلين بين يديك».

وهناك أيضا ذلك السطر من لوح تحتمس الرابع الجوانيتى حيث أنطق أبو الهول قائلا:

«إنى والدك «حورم أخت» -خبرى- رع أتوم» (الشمس فى جميع صورها).

وفى الدولة الوسطى كان «سنب عنخ» (أى التمثال الحى) على ما يظهر

اسما عاما لتماثيل «أبو الهول»، يدل على ذلك مخصص الكلمة الذى كان عادة رسما لأبو الهول.

وفضلا عن ذلك فقد ورد فى قصة «سنوهيت» وهى قصة حياة بطل من أوائل الأسرة الثانية عشرة – كلمة سشب عنخ «للدلالة على تمثالين لأبو الهول يحرسان باب قصر «سنوسرت الأول» إذ يقول البطل سنوهيت: « لقد مسست بجبهتى الأرض بين تمثالى «أبو الهول» (سشب عنخ) حيث كان الأبناء الملكيون واقفين عند الباب انتظاراً لمقدمى.

وأكبر الظن أن هذه الكلمة « سشب عنخ» قد حرفت على لسان الإغريق فأصبحت «سنفكس» التى يفترض أن معناها «الخانق» إشارة إلى «أبو الهول» المتوحش فى أسطورة «أوديبوس».

غير أنه يبدو أن اسمى «روتى» و«سشب عنخ» (كانا يطلقان على طرز «أبو الهول» عامة ولم يكونا بالضرورة علما على نوع بعينه فماذا عسى إذن أن يكون اسم أبو الهول العظيم فى الجيزة، ويدهشنا أن نعرف أننا حتى الأسرة الثامنة عشرة لم نعثر على أية إشارة مكتوبة إلى «أبو الهول» العظيم باسم خاص جعل له دون سواه. وإذا بقطعة صغيرة لحسن الحظ من محراب حجرى منقوش بقيت من حطام الماضى تقدم اسم أبو الهول العظيم هو « حورم أخت» و«حرماخيس» عند الإغريق.

وهذه القطعة مؤرخة بالسنة الأولى من عهد تحتمس الأول –ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة– وهى أول إشارة مباشرة لدينا إلى اسم أبو الهول العظيم. غير أنه ينبغى أن نذكر أن «أبو الهول» هذا عند تحرير هذا النقش كان قد أصبح فى نظر المصريين من الآثار القديمة، والأرجح أن يكون كثير من خصائصه قد نسى حتى عند المصريين أنفسهم.

وينبغى أن نسوق شيئا من أمثلة استعمال هذا الرسم وأن نفحص معناه وأصله. فلفظ حور ماخت إنما يعنى : حور فى الأفق، إذ تعنى كلمة «أخت» أصلا «الأفق» ولكن هذه الكلمة منذ الأسرة الرابعة قد صارت تستعمل مرادفة لكلمة «قبر»، وذلك مما يعرف من الاسم القديم للهرم الأكبر «أخت خوفو» ويبدو كأنما يرجع هذا إلى أن الأفق كان مسكن الإله السماوى، وبخاصة «حور» من حيث علاقته بعبادة الشمس، وتسويته «برع» وكان له أفق: شرقى يبزغ منه فى الصباح، وغربى يغيب فيه فى المساء.

ولذلك فربما عنى اسم «حورم أخت» ببساطة «حور فى الأفق» كما رأينا من قبل وهو أقرب دلالة إلى إله الشمس، أو كان أعمق كنها بكونه «حور» فى الجبانة وهو الذى بدقة تمثال أبو الهول فى الجيزة لأنه فى جبانة الصحراء الغربية حيث يستقر التمثال وحيث الصحراء الغربية هى الأفق الغربى لإله الشمس.

ويستقر «أبو الهول» هنا بنفس الحالة التى عليها الموتى من الملوك ورعاياهم، ولذلك فان العلاقة الأصيلة بين «أبو الهول» وجبانة الجيزة قائمة فى اسمه المتأخر.

وينبغى كذلك أن نتذكر أن «أبو الهول» يربض في منخفض بين تلين تماما كالعلامات الهيروغليفية —— وتقرأ «أخت» أى «الأفق» حيث يبدو رأس التمثال العظيم كقرص الشمس فى العلامة الهيروغليفية، وجدير بالذكر أن كثيرا من التمائم فى شكل هذه العلامة الهيروغليفية قد عثر عليها إلى جوار «أبو الهول»، ويرى شكل آخر من هذا النوع من التمائم وهى تمثل الأسد المزدوج «أكر» بقرص الشمس حيث ظلت فى مجموعها تحتفظ بمعالم «الأفق».

وقد يشير اسم «حورم أخت» كذلك إلى الملك المتوفى، كان الملك الحى يسمى «حور» فى قصره على حين كان اسم الملك المتوفى. «حور فى الأفق»

وهذا إنما يتفق تماما مع الواقع من حيث إمكان «أبو الهول» تمثيل الملك كما يمثل إله الشمس.

ولا يكاد الشك يتطرق إلى أن «أبو الهول» على عهد الدولة الحديثة قد اعتبر إلها للموتى وحارسا للموتى وتلك صفة يجعلها موضعه عند مدخل الجبانة أمرا مناسبا جدا.

وقد ترجع هذه الصفة إلى أن أبو الهول منذ عهد الدولة القديمة قد سوى بأتوم إله الشمس الغاربة كما رأينا فى متون الأهرام، وربما كانت الفكرة أصلا أن الملك الإله كان مقيما هناك فى الأفق الغربى مثل «أتوم» ومن ثم أصبح يعتبر حاميا للموتى فى الغرب.

على أن العلاقة بين أبو الهول بحراسته الموتى قد كانت موضع إصرار أعنف من قبل المصريين فى العصور المتأخرة الذين يجلوه بقولهم :

«إنى أحمى مزارك الجنزى» وأرقب حجرتك الجنزية وأدفع الغريب الذى قد يدخل، وأسقط أعداءك بأسلحتهم، وأطرد الشرير عن قبرك، وأهلك أضدادك ... فلا يعودون أبدا».

ولا شك هنا على الإطلاق فى وظيفة «أبو الهول» حارسا للقبر. وفى لوح المكتوب المير «أمن -م- أبت» التى عثر عليها فى حفائرنا كان «أبو الهول» تحت اسم (حورم أخت) يحتل مكانة «أنوبيس» الإله الجنازى القديم فى صيغة القربان حيث يوجه إليه الدعاء كالإله الذى يتوقع الموتى منه المدد من قرابين الطعام والشراب فى العالم الآخر.

ثم نصل الآن إلى نقطة غريبة، فلقد رأينا من قبل اسم «حورم أخت» قد ظهر لأول مرة بقدر علمنا الآن على قطعة من ناووس يرجع تاريخه إلي العام الأول من حكم الفرعون «تحتمس الأول» فى صدر الأسرة الثامنة عشرة، ولكن

اسم «حورم أخت» بالاشتراك مع أسماء غيره من الآلهة الشائعة، قد كان يستعمل اسما شخصيا للمريدين وبخاصة فى منف.

وأول مثال لدينا يبدو فيه بهذه الصفة من عهد «أمنحتب الأول» أبى تحتمس الأول (١٥٥٧ق.م) نجده على لوح بمتحف اللوفر الآن وعليه النقش التالى: «حورم أخت» الأخ والكاتب لقريب الملك «أنف نفرت».

على أن ما كان من شيوع الاسم بحيث يتخذه شعب بلغ من إفراطه فى الحفاظ على القديم ما بلغ المصريون الأقدمون، لدليل على أنه إنما كان لا محالة مألوفا لآذانهم، وقد نفترض أنه عرف منذ الأسرة السابعة عشرة على أقل تدير، بل الأرجح أن يكون قبل هذا بأمد بعيد.

ويبدو أن ملكا يحمل اسم «حورم أخت» قد حكم فترة على عهد البطالمة فى أوائل حكم «بطليموس ابيفانيس» (٢٠٣-١٨١ق.م). وفى مقال عن هذا الملك يقول «ريقييو» : وهناك جعل عليه عبارة (حورم أخت) رب منف لابد أنها تشير إلي ملك أثيوبى حكم طيبة أوائل حكم الملك «ابيقانيس» كما أن تلقيبه كذلك «سيد منف» قد يوحى بأنه حكم مصر كلها.

على أنه ليس لدينا مصادر دقيقة عن هذا الملك الغامض إلا أنه كان موجوداً فعلا، وربما كان من نسل آخر فراعنة مصر «نخت نيف» الذى هرب إلى أثيوبيا عندما أحرز «أوخوس» الفارسى النصر الذى جعله سيد مصر حول عام ٣٤٢ ق.م ولعله ثار على البطالمة وأفلح فى القبض على زمام البلاد فترة ما.

وربما اهتم محبو الروايات الخيالية بأن يعرفوا أن على سيرة هذا الملك المفترض «حورم خت» أو كما سماه الإغريق «حرماخس» أقام سير «ريدرهجرد» قصته المشهورة «كليوباترا»، غير أن سبيل كل من المؤرخ والروائى يتشعبان بعض الشىء، بل وإلى أبعد مما يزيد، وأخشى أننا لن نستطيع قبول

كل نظريات «هجرد» الخلابة جداً وذلك بالنسبة إلى الحقائق عن حكم هذا الملك.

فإذا رجعنا إلى اسم «حورم أخت» فى استعماله الأساسى أى بوصفه علما على «أبو الهول» العظيم فى الجيزة وجدنا أن لدينا من حفائرنا وحدها تسع لوحات ذكر عليها هذا الاسم وحده علما على «أبو الهول» العظيم، منها ست لوحات مثل عليها «أبو الهول» رابضاً مع مثل آخر لا يحمل سوى الاسم وحده وصورة أذنين محفورتين.

وأهم هذه اللوحات ما يأتى :

اللوحة التى تبين فى سجلها الأعلى صورة «أبو الهول» يتخذ لباسا للرأس يتألف من ريشتين طويلتين بينهما قرص الشمس، وهذه كلها خارجة من قرنى كبش أفقيين. ومن فوق أبو الهول قرص شمس له جناح واحد وهذه سمة تدل على أن اللوحة إنما يرجع عهدها إلى حكم «تحتمس الرابع» حين كان هذا الطراز من أقراص الشمس المجنحة شائعاً ومن تحته سطران أفقيان هيروغليفين جاء فيهما : «قربان يقدمه الملك وحور م أخت حتي يمنحه قلبا حلوا (أى الرضا) فى كل مكان . عمله : «انحرمس».

ولوحة شكلها مخالف جدا للمألوف، وتحمل نقشا يسجل هبات أداها تحتمس الرابع إجلالا لمعبد «أبو الهول»، ولقد بقى من النص على سوء حاله ما يكفى ليبين أن تحتمس قد وقف قدراً معينا من الأفدنة من الأرض، واضح أنها من زاهى وفينقيا، يوظف ريعها لمدد من قرابين يومية تقدم «لأبو الهول» الذى ذكر هنا باسم «حورم أخت».

وعلى الجزء الأعلى من اللوحة منظرين «أبو الهول» العظيم رابضا على قاعدته العالية، وبين يديه ولكن مستديرا نجد صورة تحتمس الرابع، يقبض فى يده اليسرى ما يبدو كأنه ملف قصير من البردى لعله أصل القرار المنقوش فى

الجزء الأسفل من اللوحة، كذلك يبدو اسم «حورم أخت» على أبواب معبد أمنحتب الثانى الأربعة من الحجر الجيرى.

ولوحة تكشف عن دلالة واضحة على تأثير جامعة هليوبوليس المركز الرئيسى لعبادة «رع» إله الشمس وكان من رموزه «أبو الهول» الذى صور أسداً رابضا كالمعتاد وإن كان من فوق ظهره قرص شمس كبير ذكر اسمه هنا «رع حورم أخت».

وعلى لوحة صورة الإله فى هيئة الصقر، وعلى لوحة أخرى صورة مزدوجة «لأبو الهول» ولرجل له رأس صقر، وقد ورد فى اللوحتين اسم «حورم أخت».

ولدينا فى لوحتين كامل اسم «أبو الهول» العظيم وألقابه : «حورم أخت» المشرف على ستبت (أى المكان المختار)، ومع اسم «حورم أخت» جبنا إلى جنب نجد «أبو الهول» العظيم كذلك يدعى «حور أختى» وهو اسم يعنى «حور المقيم فى الأفق»، وكان ممكنا فى عهد الدولة الحديثة أن يصور «حور أختى» فى أشكال متعددة، فقد يظهر فى هيئة «أبو الهول» برأس إنسان أو رأس صقر، أو فى صورة إنسان برأس صقر أو فى صورة الصقر بشكله الأصلى.

وقد وجدت له صور كثيرة على لوحات من حفائرنا تبينه فى كل هذه الصور، ولسوف نرى فى هذه الحالات جميعا أن طبيعة الصقر فى الإله قد أبرزت بقدر ينقص أو يزيد، وهذا هو المفتاح الذى سوف يؤدى بنا إلى صميم السر

ففى فجر التاريخ المصرى كان الصقر رمزا للإله العظيم رب مملكة غرب الدلتا الذى كانت عيناه الشمس والقمر، فلما أن امتد حكم ملوك الدلتا واتخذوا هليوبوليس عاصمة لهم، عمد كهان هذه المدينة وكانوا يومئذ يعبدون «رع» إله

الشمس فمزجوا العقيدتين معا من أجل أهداف سياسية وصوروا الإله فى هيئة إنسان برأس صقر متوج بقرص الشمس وأطلقوا عليه اسم «رع حور» أو «حور أختى».

وفى عقائد المصريين كان الملك هو الممثل الأرضى لهذا الإله، ولدينا من الأدلة على أن الملك المتوفى بخاصة كان فى أقدم العصور يسمى «حور أختى».

ولما نحت الملك «خفرع» «أبو الهول» العظيم جعله على مثاله أى على مثال «حور أختى» الذى سوى به.

ثم كان بعد ذلك أواخر عصر الفترة الثانية (حول عام ١٨٥٠ق.م) أن أسقطت فيما يبدو تسمية الملك هذه، وانتقل «أبو الهول» العظيم من كونه شبيه الملك والإله معا إلى أن تكون صورته اسم «حور أختى» قاصرة في الدلالة على الإله وحده، ولدينا من حفائرنا طائفة من اللوحات دكر فيها اسم «حور أختى» علما على «أبو الهول» كما ورد هذا الاسم كذلك على عضادات الباب الذى أضافه «سيتى الأول» إلى معبد «أمنحتب الثانى».

والآن إلى طائفة أخرى من أسماء «أبو الهول» وقد بقى فى شكل مصحوف حتى يومنا هذا.

فلقد سمى «أبو الهول» في العربيه باسمه هذا الذى قيل خطأ إن معناه أبو الفزع، والحق أن الاسم قديم جدا ويرتبط بتاريخ خيالى غريب، فلنتبعه إذن حتى أصوله الأولى.

فى شتاء عام ١٩٣٣ - ٩٣٤ ق.م كان «مونتيه» يحفر فى «تانيس» صان الحجر الآن على مسافة ١٠٠ كيلومتر من الحدود، فكشف عن تمثال مركب بصور رمسيس الثانى متوجا بقرص الشمس نابضا على بوصة فى يده، محتميا بصدر صقر كبير عير أن هذا التمثال الجرانيتى، بحيلة بارعة من

المثال، إنما يتهجى الرسم المصرى لاسم رمسيس. فقرص الشمس هو «رع» والطفل هو (مس) والبوصة هى (سو) وكلها تساوى «رعمسو».

غير أن هذه المجموعة فضلا عما لها مع مزاياها الفنية من المزايا الأخرى – قد أثبتت أنها ذات أهمية عظمى – إذ ورد على أحد جوانب قاعدتها نقش يقول : «ابن رع» «رعمسيس» حبيب «آمون» حبيب «حورون».

فإذا كان «حورون» هو الصقر العظيم الذى يحمى الملك. فمن عسى أن يكون هذا الإله ؟ وما وظائفه ؟ تلك المسألة التى ظلت طويلا تنتظر الإجابة الشافية.

من قبل كشف مجموعة ستانيس» لم يكن اسم «حورون» معروفا إلا من مصدرين مصريين هما ورقة «هاريس» السحرية حيث ورد أربع مرات في تعويذة لكف أذى الذباب، وعلى «لوح الإحصاء» حيث يبدو كأنما مر عرضا من غير أن يلتفت إليه. ولكنه كان معروفا في النقوش الإغريقية، كما كتبت المقالات الكثيرة فى شأن هذا الإله حيث اقترب بعضها من الحقيقة.

وقد افترض «مونتيه» أول الأمر أن «حورون» قد يكون شكلا آخر للإله «حور» ولكن ذلك غير محتمل وذلك أنه فى هذا الوقت الذى نحتت فيه مجموعة «تانيس» لم تكن عبارة «حور» بوصفه الصقر المقدس على قدر من الظهور بحيث تسمح لرمسيس الثانى بتمثيل نفسه فى حمايته.

غير أن لدينا شواهد عن إله يدعى «حورنا» كانت عبادته معروفة فى مصر منذ الأسرة الثامنة عشرة ولعله جاء من «أسيا» على عهد «تحتمس الثالث» حيث كانت مصر وقتئذ نزلا يرحب بكل أجنبى من الأفكار والمستطرف من الأمور وبخاصة ما كان منها من «سورية وفينيقيا».

ومما له دلالته فى هذا الشأن أن كسرة من تمثال «لأبو الهول» من تل

المسخوطة بالدلتا يكون مكتوبا عليها «حورنا» صاحب لبنان.

ولقد كان فى أثناء هذه الفترة كذلك أن الآلهة الأجنبية الأخرى «عنات» و«عشتورت» و «رشب» و «قادش .... الخ» قد ظهرت فى أرض النيل، وفى عهد الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧ ق.م) كان الإله «حورون» قد أصبح مرتبطا بحور حيث بدا كأن اشتراك الإلهين قد أصبح كثير الطلب من قبل السحرة وذلك أننا نجد اسمهما المزدوج يظهر فى بردية «هاريس» السحرية حيث كان أول ذكر له فى تعويذة لتعجيز ذئب، حيث يقول :

«حورون» يشل مخالبك، مقطوعة ذراعك على يد «حور» بن «أزيس»، بعد أن قطعتك الآلهة «عنات».

ثم نقرأ بعد ذلك فى نفس البردية : أنت الراعى المقدام «حورون». وفى تعويذة أخرى للحماية من الحيوان المتوحش نقرأ : يا «حورون» رد الحيوانات المتوحشة عن حقل الحصاد ، يا «حور» لا تجعل أحداً يدخل.

وهنا ينبغى أن نذكر القارىء بالتقاليد التى تنسب إلى «أبو الهول» حماية الأراضى المزروعة، كما أشار إلى ذلك فى لوح الإحصاء، وما وضحته النقوش الإغريقية الرومانية وكتاب العرب. ولم يكن هذا هو الرباط الوحيد بين «أبوالهول» والمعبود «حورون» كما سنرى.

أما عن تسوية الإله «حور» «بحورون» فلدينا من حفائرنا لوح لعله يلقى شيئا من الضوء على الموضوع، إذ يشير إلى «أبو الهول» باسم «حور»، كما كان فضلا عن ذلك مهدى من قبل رجل أجنبى الأرومة، وهو وثيقة هامة إذ يبدو كأنما نؤلف حلقة اتصال بين «حور» و«حورون» بوساطة «أبو الهول».

ويكاد يحتل رقعة هذا اللوح كله صورة المهدى وهو يقرب البخور بين يدى «أبو الهول» الذى صور معصبا بالتاج المزدوج، رابضا على قاعدة عالية لها باب

على أحد أضلاعها، وفوق هذا المنظر نقش : «قربان يقدمه الملك وحور الإله العظيم رب السماء حاكم طيبة».

أهم نقطة فى هذا اللوح الصغير أن «أبو الهول» قد سوى هنا قطعا «بحور» غير منعوت بنعت آخر.

ولقد انتهى «مونتيه» أخيرا بعد أن درس المادة التى أتيحت له إلى أن «حور» و«حورون» إنما كانا فى الواقع إلهين مستقلين وإن شابه أحدهما الآخر فى الشكل، ومع ذلك فقد بقى على «فيرولوه» أن يضيف النقطة التى رجحت الميزان لمصلحة رأى «مونتيه»، وهى فقرة من قصيدة «رأ« شمرا» ، ففى أسطورة «كيريت» ملك صيدا. قيل إن هذا الملك قد مرض مرضا خطيرا بأنفه وحلقه، ولكنه حين تماثل للشفاء وعادت إليه شهيته رجا زوجه أن تعد له وجبة طيبة فقال : «اذبحى حملا وسآكل منه» وأعدت زوجه المأدبة وأقبل الملك «كيريت» يأكل أكلا متصلا ثلاثة أيام آوى بعدها إلى قصره ليصيب شيئا من الراحة.

وكان ابنه قد تعرض لشيطان من شياطين الثورة أضله فاندفع إلى القصر فدخل دون إذن أبيه، وطفق يعنفه بعبارات قاسية جداً متهما إياه بالإخلال بواجبه نحو الدولة، إذ صاح الشاب به : «رد العدل إلى الأرملة واليتيم، أبعد اللصوص الذين يعتصرون الفقراء، وأعط الطعام للفقر، فان لم تفعل ذلك فتخل عن العرش وسأجلس مكانك».

ولكن الملك «كيريت» الذى كان قد استرد قوته، وقف ليطرد ابنه وطفق يلعن الشاب قائلا: كسر «حورون» رأسك، وحطمت «عشتارت»« جمجمتك.

يبدو من ذلك كأن «حورون» كان حامى الملك الخاص، سريع النقمة من الثوار الخونة، وتلك هى بالضبط وظيفته التى نراه يؤديها لرمسيس الثانى فى مجموعة «تانيس».

وقد ذكر نقش إغريقى وجد فى «ديلوس» ونشره «بلاسار» أن «حورون» هو إله بلده «يمنيا» فى فلسطين. وفى قصيدة « رأ شمرا» التى كتبت قبل النقش الإغريقى بألف ومائتى عام، ذكر كذلك أن «حورون» قد كان له شأن ببلدة «يمنيا».

وتقع تلك البلدة اليوم غربى بيت المقدس غير بعيد من البحر وقرب منطقة تسمى حتى اليوم «بيت حارون» وهو اسم بالغ الدلالة بمعناه بيت حورون، ولما كانت يمنيا معروفة أمداً لا يقل عن ألف ومائتى عام بأنها كانت دار المعبود حورون، فما أظن أننا فى حاجة إلى مزيد من البحث عن منشئه، ويعزز هذا الرأى أنه يوجد فى بلاد العرب وفلسطين عدة أماكن قد ركبت أسماؤها مع «حورون» مثل وادى حوران فى صحراء سوريا ووادى حوران آخر فى نجد .

وبعد ، فلنتتبع «حورون» مرة أخرى فى مصر، ولنحاول اقتفاء طريقه فى ضوء كشوفنا الأخيرة :

ذكر «مونتيه» أن أقدم ذكر لحورون فى مصر إنما كان فى عهد الملك «حور محب» فى آخر الأسرة الثامنة عشرة (١٣٥٠ - ١٣١٥ ق.م) ولكن القراميد الخزفية الزرقاء بمتحف برو كلين تشير إلى الملك «أمنحتب الثانى» بأنه «محبوب حورونا» ، ويظهر النعت نفسه على باب الملك «توت عنخ آمون» من الحجر الجيرى الأبيض، وبذلك فان الإسم بشكله هذا إنما كان معروفا من قبل الوقت الذى ظنه «مونتيه» بنحو مائة عام.

ومن بين اللوحات الكثيرة التى وجدت فى حفائرنا بجوار أبو الهول مباشرة عدد جاء فيه اسم الإله «حورونا» أو شكله الآخر«حول » - وكان أول ما ظهر منها اللوحة رقم ٣٨ وكان عليها صورة كبيرة لصقر دقيق النحت، ملىء بالتفاصيل الدقيقة، كما نقش عليها : «أياحورنا- حورم أخت امنح الحمد والحب روح خادم «خرعحا» بابليون المصرية نب- نتى».

وقد حرنا أول الأمر أقصى غاية الحيرة فى أمر الكلمة الأولى من هذا النقش إذ بدت كأنما لا تؤدى معنى ، حتى ملنا إلى اعتبارها خطأ من المثال ، وإن كانت روعة العمل فى مجموعة خليقة أن تفند كل مظنة فى اهمال أو نقص المهارة. ثم طفقت لوحات أخرى تحمل نفس الكلمة المحيرة لترى إلى النور حتى بدأنا نشك فى حقيقة الأمر وأننا حيال اسم إله أجنبى، وقد أيدتنا فى شكوكنا ما وقع فى أكثر ماعثر عليه من الأمثلة إذ كان لاسم مقدم اللوح رنة أجنبية لا مصرية.

أما اللوح رقم ٣ فان له أهميته لما يلقى من ضوء على وظائف هذا الإله الشمسى، إذ يبين الجزء الأعلى «أبو الهول» المعتاد رابضا على قاعدة، على حين نرى في الجزء الأسفل صورة رجل حليق الرأس يرتدى النقبة الفضفاضة المزركشة التى كانت آخر صيحة فى عالم الأناقة فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة، وبداية التاسعة عشرة وكان يمسك عاليا فى كل من يديه مجمرة تحتوي على قربان محروق وأمامه نقش : تسلم الأشياء الطيبة للإله «حورنا» أى «حورم أخت» فليمنح وقتاً طيباً بغير .... سلامة ، ومدة عظيمة، ودفنا طيباً، بعد عمر طويل لروح الكاتب «ثا».

والحق أن ما طلب «ثا» من دفن طيب إنما يدل على أن «حورنا» الذي سواه «بحورم أخت» أبو الهول العظيم إنما كان في نظره ربا للموتى كما كان ربا للأحياء.

وقرب اللوح رقم ٩ من قبل رجل حربى مثل فى الجزء الأسفل منها فى أبهى بزاته قابضا بيده على علم كتيبته. وفى الجزء الأعلى مثل «أبو الهول» حيث يرى والمعبد بين يديه ويحيط بشخص المقرب نقش هام جاء فيه :

«صلاة إلى «حور أختى» باسمه «حورنا» إنى أقدم الحمد لجمال وجهك. وأرضى جمالك، أنت الواحد الأحد الباقى إلى الأبد فى حين يموت الناس

أجمعون، امنحنى حياة طيبة حين أتبع روحك. من أجل حامل المروحة التابع للكتيبة الثالثة فرقة أمنتحت المسمى «خرى إتف».

لدينا فى هذا المتن إعلان قاطع بأن «حورنا» إله يساوى «حورم أخت» وبأنهما في نظر الناس رمز للإله الأزلى الواحد، وما كانت الأقدار لتسعدنا هكذا كثيراً بحيث نحصل على عبارة واضحة قاطعة عن الآثار.

وللوح رقم ١٥ أهمية كذلك لأنه يمثل الإله فى هيئة الصقر وتبرهن بذلك على أنه حقا نفس الإله الذى مثل على مجموعة «تانيس» الخاصة بـ «رمسيس الثانى» وهناك من خلف الصقر نقش عمودى جاء فيه : «ياحورنا- حورم أخت «ليمنح روح أمنمحب» عطفا وحباً.

وعلى اللوح رقم ٣٩ خوطب الإله بأنه «حورنا- حورم أخت» الإله العظيم المشرف على «تبت».

ولدينا شكل آخر لاسم «حورنا» على لوح راعى الماعز «انحرمس» (اللوح رقم ١٤) وهذا الشكل هو «حورنا» ومع ذلك فلدينا كذلك سبعة ألواح آخر مازالت تقدم شكلا آخر لاسم هذا الإله وهى «حول».

وهنا ينبغى أن نذكر بالنسبة للكتابة المصرية أن الأسد أو «أبو الهول» الرابض علامات هيروغليفية تقع إحداهما محل الأخرى بمثابة الراء أو اللام وأن كلا من الحرفين يمكن استعماله مخصصا تصويراً للكلمة، بل لقد كانت له فائدة مزدوجة بكونه حرفاً ومخصصا. وكان اسم «حول» يخصص أحيانا بالصقر وفى ذلك دليل آخر على أننا حيال الإله الكنعانى «حورون» وهو الصقر المقدس.

أما أول لوح ذكر عليه اسم «حول» خرج إلى النور فى حفائرنا (اللوح رقم ٢) فيحمل أدلة واضحة على تأثير أجنبى سواء من حيث مناظره أو نقوشه

فظهر عليه ثلاثة من الآلهة، إلي اليمين شخص له رأس صقر ممسك بيمناه يد إله شاب عار يقف قبالته ممسكا بحزمة من الأسلحة، وإلى أقصى الشمال إلهة ترتدى ثوباً غريباً مطرزاً شبيها بما تدل عليه صور الأسرى الآسيويين من أنها كانت رداء النساء فى سوريا وفلسطين، وليس على رأسها لباس خاص حاشا على جبهتها .

وتحدثنا النقوش أن الإله ذا رأس الصقر هو : «ابن إزيس ، حلو الحب» وأن الإله الشاب هو: «شد» الإله العظيم رب السماء النابل الماهر، حبيب مصر. أما الإلهة فتسمى «مترى» الأم المقدسة، غير أن النقش الأسفل يحدثنا بقوله : أداء الصلاة إلى «باشد»، تقبيل الأرض «لازيس العظيمة»، والحمد «لحور» ابن «ازيس» كى يمنحوا الحياة والرفاهية كل يوم لروح قياس «حول»– «بابا» .

ويبين اللوح رقم ١٣ رجلا وامرأة يقدمان القربان «لأبو الهول» الذى يدعى باسم «حول» ويحمل مقدم اللوح الاسم ذا الرنة الأجنبية «بوخ» . أما اللوح رقم ٣٤ فهو أثر آخر مقدم من أجنبى اسمه «تو- تويا» وهو واحد من تلك الألواح التى مازالت محتفظة بألوانها الأصيلة. وتدل خصل شعر مقدمه ذات الحمرة النارية وكان رجلا متقدما فى السن، على أنه لم يكن جاهلا بالخواص الممتازة للحناء ، وقد خوطب «أبو الهول» على هذا اللوح باسمى «حول» و«حول أتوم».

أما اللوح رقم ٦٦ فيحمل كذلك منظر «أبو الهول» ونقشا باسم «حول» ولدينا كذلك ثلاثة آثار تشير إلى «أبو الهول» باسم «حول» يمكن تاريخها عن يقين بأوائل الأسرة التاسعة عشرة أى من نحو ٣٣٠٠ سنة، ومنها لوح «سيتى الأول» الذى أقامها فى معبد «أمنحتب الثانى» من اللبتز حيث ذكر أنه صنعها أثراً لأبيه «حول» – «حورم أخت».

وترى الجملة السابقة نفسها على عضادتى باب من الحجر الجيرى أضافها «سيتى الأول» للحجرة الجنوبية الغربية من المعبد. كما ذكر اسم «حول»

أيضا على لوحة سليمة بقدر طيب (لوحة رقم ٢١) أهداها وزير «سيتى الأول» المسمى «حايتى» لعله رافق سيده الملك عند حجه إلى «أبو الهول ».

ولئن كنا فى حاجة إلى برهان حاسم يقنعنا بأن «حورنا» و «حول» ليسا في الواقع سوى اسمين مترادفين للإله الكنعانى «حورون» فلقد ظهر هذا البرهان فى اللوح رقم ٨٧ وهو من أغرب مافى المجموعة التى عثر عليها فى حفائرنا، وهو فى الوقت نفسه من أهمها إذ حفظت اسم ذلك الإله سليما وقدمت البرهان الحاسم الذى لا يدحض على أنه حقا يعبد فى منطقة الجيزة، بل إن اللوح نفسه فى شكل الناووس الذى كان يحوى فى الأصل صورة الإله.

وظاهر أنه كان فى صورة مومية برأس صقر وقد نحت رأس الشخص مع الناوس فى كتلة الحجر على حين كان الجسم من الفخار الأحمر مستقرا فى تجويف فى الحجر قطع وفق قده، ولذلك فقد انهار جزء كبير من هذا الجسد الفخار، ومن فوق المشكاة التى يقف فيها تمثال الإله قرص مجنح وإن كان الإنحناء الأعلى للجناحين إنما يدل على تأثير أجنبى. وفى أسفل الجانب الأيمن من اللوح النقش الآتى :

«مساعد المشرف على الصناع ل .... لبيت حورون».

وينبغى قبل أن نترك موضوع هذه الألواح أن نذكر قبل كل شىء مثلا هاما قد يساعد على حل ماظل طويلا سراً جغرافيا، فلقد عرف منذ زمن بعيد من النقوش الأغريقية أن فى مكان ما بمصر كانت تقع مدينة تسمى «حورونوبوليس»، كان الإله «حورون» يعبد فيها على صورته الإغريقية.

وكان علماء الآثار قد ظلوا سنين يحاولون عبثا تحديد موقع هذه البلدة، ومازالت «حورونوبوليس» حتى الآن مدينة مفقودة، ثم كان يوم من الأيام وإذا برمال الجيزة يخرج منها اللوح رقم ١٦ الذى يحمل من فوق رسم «أبو الهول» فى القسم الأعلى نقش يقول :

« أيا » حورم أخت «ياواحد» حورونيا» أيها الإله العظيم ونقش فى القسم الأسفل:

" قربان يقدمه الملك لروحك ياواحد «حورونيا» «حورم أخت» الإله العظيم، الحياة والنجاح والصحة لروح مثال سيد الأرضين «نحوتى نخت» . أخته، محبوبته، ربة بيت «عنت م حب»"، لدينا هنا إشارة صريحة إلى بلدة تحمل اسم «حورونيا» ظاهر أن لها شأنا بحورونا «وأبو الهول».

على أن هذه العلاقة «بأبو الهول» قد أدت بنا إلى الشك فى أنها لا محالة تقع في تلك البقعة، ولذلك فقد درسنا كل أسماء الأماكن في المناطق والقرى التى تقع بين منف وهليوبوليس وكان أن كوفئتا على ذلك بتحديد مساحة كبيرة تقع على بعد نحو ميلين فقط من «أبو الهول»، وأنها تنقسم الآن إلى قريتين تسميان الحارونية الشمالية والحارونية الجنوبية على الترتيب.

وما أطيب أن يكون ذلك الحق، ومع ذلك فلقد دل قليل من البحث على أنها منطقة قديمة – حيث استنقذت طائفة من ألواح الحجر المنقوشة من بناء كبير. وأهل يوما أن ينال هذا الموقع ما ينبغى من البحث.

ولذلك فما أظن – على ضوء وحدة مدلول أسماء حوران وحورنا– أننا فى حاجة إلى البحث بعد ذلك عن بلدة «حورونبوليس» المفقودة ، فهذا موقعها قد حدد آخر الأمر بل مازالت تحمل اسمها القديم أى ما قبل العهد الإغريقى دون تغيير.

هذا إلى أن عندنا شاهداً قويا عن جنس من كانوا يسكنون هذه البلدة، فلقد بدا واضحا من معظم أسماء الذين قدموا لوحات «لأبو الهول»، وبخاصة أولئك الذين أشاروا إلى الإله باسم «حورنا» أو «حول» أنها أجنبية فى تركيبها ونطقها.

ويؤدى بنا ذلك فضلا عن أن الإله الذى كانوا يعبدون من أصل كنعانى إلى أنهم كانوا كذلك من كنعان، وبعبارة أخرى فان لدينا هنا سجلا لأقوام ساميين كانوا من غير شك يعيشون مستقلين بعيدا عن أهلهم فى بلدة تسمى الحارونية ويبدو كأنما هذا أقدم صورة للحى اليهودى.

وإذا هؤلاء القوم يلحظون ما بين «أبو الهول» بصفته حامى الملك وما كان يتخذ أحيانا من رأس الصقر أو حتى هيئة الصقر وبين إلهم «حورون» إله رأس الشمرا. فيسوون بين الإلهين ويجعلونهما إلها واحدا، وقد شجع على ذلك اعتبار الإلهين أربابا للموتى.

وبعد فلنرجع مرة أخرى إلي اسم «حول» ولننظر ماذا صار إليه.

مما تقدم نرى أن «أبو الهول» قد عرف منذ الفتح العربى حتى يومنا هذا باسمه الذى ترجم «بأبى الفزع»، وواقع الأمر أن الاسم لا علاقة له بالأب ولا بالفزع إلا فيما وقع من عفوى فى الصوت، وإنما هو ببساطة تحريف لاسم مصرى قديم هو «بر- حول» أو «بوحولى» بمعنى «مكان حول» ولدينا منه كذلك شكل آخر هو «برحورون» على لوح الإحصاء.

ولقد كان بقاء هذا الاسم سليما مكان الاسم المصرى الخالص «حورم أخت» أمراً مفهوما إذا تذكرنا عناصر القربى بين العربية والفرع الآخر من اللغة السامية التى اشتق منها اسم «حول».

الحساب فى الآخرة والسحر (١)

يرتبط الاعتقاد بالمسئولية الخلقية فى الحياة الاخرة، وهو اعتقاد كان حاضرا فى أذهان بناة الأهرام، غير أنه كان منحصرا فى ذاك الوقت فى تعرض المتوفى للمثول أمام إله الشمس، بصفة كونه قاضيا وذلك استجابة لطلب إنسان قد أخطأ الميت فى حقه، لا ليحاسب حسابا شاملا. فكان الاعتقاد القائم إذ ذاك أنه إذا لم يطلب الإنسان للمحاكمة بتلك الصفة فإنه من المحتمل ألا يتعرض فى الآخرة لأى حساب آخر. وبعد عصر الأهرام ببضعة قرون – أى فى وقت ظهور النصائح الموجهة إلى الملك «مريكارع» – نجد أن ذلك الاعتقاد قد أخذ يحدد ويعين بحالة أوضح مما كان عليه من قبل.

فإن ذلك الملك المسن الذى ألقى بتلك الكلمات الحكيمة إلى ابنه «مريكارع» كان متأثرا تأثيرا عميقا بالحقيقة القائلة إنه كان حقا حتى على الملك نفسه أن لا يغفل عن تبعته فى عالم الآخرة عن حياته فى هذه الدنيا من الناحية الأخلاقية، ولعلنا نذكر نصيحته الهامة التى يقول فيها : «إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المخطئ لا يتسامحون فى ذلك اليوم الذى يحاسبون فيه الشرير وقت تنفيذ الحكم . . ولا تركنن إلى طول الأيام، لأنهم ينظرون (يعنى القضاة) إلى مدى حياة الإنسان كأنها ساعة واحدة. والإنسان يعيش بعد الموت وأعماله تكوم بجانبه كالجبال.

لأن الحياة الأخرى أبدية ولا يهمل أمرها إلا الغبى. أما من يصل إليها دون أن يرتكب إثما فإنه سيبقى هناك كإله يسير بخطى واسعة مثل أرباب الخلود (يعنى الأموات البررة)».

وإذا كان الإنسان يعد لنفسه قبرا فى الجبانة فإن «مريكارع» كان يذكره

---

(١) فجر الضمير - جيمس هنرى برستيد - ترجمة د/ سليم حسن - مكتبة الأسرة.

والده بأن يقيم قبرا لنفسه «بصفته إنسانا مستقيم الحال وبصفته إنسانا أقام العدل (يعنى ماعت) لأن ذلك هو الذى يركن القلب إليه».

و «الفلاح الفصيح» الذى لا صديق له كان يقول «لمدير البيت العظيم» عند مرافعته عن نفسه مطالبا إياه بتوخى العدالة : «إحذر إن الأبدية تقترب».

وقد رأينا أن «أمينى» أمير مقاطعة «بنى حسن» العظيم، نقش على باب قبره سجل أعماله الصادرة عن العدالة الاجتماعية فيما يختص بمعاملته لرعيته، راجيا أن يكون ذلك السجل خير جواز مرور يتخذه للذهاب فى سفره إلى عالم الآخرة.

وقد ملئت محاجر المرمر بجهة «حتنوب» (بيت الذهب)، الواقعة فى الصحراء الشرقية خلف «تل العمارنة»، بالنقوش التى دونت فيها حياة أمراء ذلك العهد الإقطاعى الذين جاوروا تلك البقعة، حيث ذكروا مرارا وتكرارا ما كانوا عليه من حب الخير والعدالة. ويمثل هذا التكرار دور أولئك الرجال الذين عاشوا فى العهد الاقطاعى فوق مقابرهم ما كانوا يعزونه لأنفسهم من الأخلاق العادلة. فيقول موظف من موظفى ذلك العصر إسمه «سنبنف» فى نقش على ناووسه: «إنه أقام العدالة وكان يمقت الباطل ، الذى لم يره».

وتبين لنا متون التوابيت بجلاء أن الشعور بالمسئولية الخلقية في عالم الآخرة قد تعمق تعمقا عظيما في نفوس القوم منذ عصر الأهرام إلى ذلك الزمن. فنجد أن موازين العدالة، التى كثيرا ما ذكرها ذلك «الفلاح الفصيح» فى تظلمه المسرحى ضد «مدير البيت العظيم»، قد صارت إذ ذاك تحتل مكانة واقعية عظيمة، ممثلة فى مشاهد حساب الآخرة، حيث يقول قائل للمتوفى : «إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك. إنك تصعد ... وذنبك مغفور، وظلمك قد محى بأيدى أولئك الذين يزنون بالموازين فى يوم الحساب».

وكما كان ذلك «الفلاح الفصيح» يسمى «مدير البيت العظيم» فى كثير من الأحيان «موازين العدل» كذلك كان من الممكن أن يكون المتوفى متحليا بالأخلاق الفاضلة الحقة التى تشبه فى استقامتها كفتى الميزان اللتين لاتحيدان. ومن ثم نجد «متون التوابيت» تقول : «تأمل أن فلانا هذا (إشارة إلى المتوفى) هو موازين «رع» التى يوزن بها الصدق (يعنى الحق)» . وهنا يتضح لنا لمن كانت موازين الصدق هذه، ومن هو ذلك القاضى الذى يشرف عليها، فنجده – كما كان الحال قديما– «إله الشمس» الذى كان قد حوكم أمامه نفس الإله «أوزير». ونجد فى مناسبة أخرى خاصة بمحاكمة المتوفى أمام الإله «رع» أن هذه المحاكمة كانت تعقد بحجرة القارب الشمسى.

وقد صار المطلب الخلقى الذى يشرطه القاضى الأعظم من الأمور الطبيعية المفهومة، ولذلك يقول المتوفى : «إنه يحب الحق ويكره الباطل، وهو الذى تسير الآلهة فى سبيل عدالته المحبوبة» وعندما يدخل المتوفى تلك السبل الإلهية الحقة، يكون بداهة قد ترك وراءه الرذائل الخلقية، ولذلك يقول المتوفى أيضا : «إن خطيئتى قد أقصيت عنى ومحى إثمى، ولقد طهرت نفسى فى تينك البحيرتين العظيمتين اللتين فى أهناس».

وتلك الحمامات التطهيرية الرسمية التى كثيرا ما نصادفها مذكورة فى «متون الأهرام» قد صارت الان تدل بوضوح على معنى خلقى، حيث يقول المتوفى محدثا عن نفسه : «إنى أسير فوق الطريق التى أغسل فيها رأسى فى بحيرة الحق».

وكثيرا ما نجد المتوفى يقرر مرارا أن حياته كانت نقية، إذ يقول : «إنى إنسان أحب الحق، وما كرهته هو الباطل».

«إنى أقعد بريئا وأقوم بريئا».

«لقد أقمت العدل ومحوت الباطل».

وكانوا يعتقدون أن القاضى الذى تقف أمامه كل الأرواح كان في الأصل «رع»، ولكن «أوزير» كذلك ما لبث أن أظهر نفسه من زمن مبكر فى موقف ذلك القاضى، حيث نقرأ فى «متون التوابيت» عن «المجلس العظيم (أو محكمة العدل) للإله أوزير»، وكان ذلك منذ زمن بعيد يرجع إلي الأسرة التاسعة أو العاشرة (من القرن الرابع والعشرين إلى الثانى والعشرين ق.م) فى أيام حكم الملك «مريكارع».

ولا شك أن انتشار عبادة «أوزير» التى كانت آخذة فى الازدياد له علاقة عظيمة بانتشار الاقتناع- الذى صار الآن عاما- بأن كل روح لابد أن تلقى ذلك الحساب الخلقى العسير الذى ينتظرها فى الآخرة.

وقد صار من المتبع عادة منذ بداية الدولة الوسطى أن يضاف إلي اسم كل متوفى نعت «المبرأ». وهذا النعت هو الذى كان قد ناله «أوزير» فيما مضى بصفته الخصم الظافر على أعدائه،، المبرأ أمام محكمة إله الشمس. وقد كان ذلك النعت - كما نعلم من «متون الأهرام» - لا يضاف إلا إلى اسم الفرعون فقط، غير أنه صار بالتدريج امتيازا تمنحه كل روح، أو على الأقل صار من حق كل روح متسمة بالأخلاق الفاضلة.

وكذلك نجد أنه بعدما نال المذهب الأوزيرى القبول عند البلاط الملكى صار الملك يوحد مع «أويزر المبرأ»، وصار الكهنة يضعون كلمة «أوزير» قبل اسم كل ملك متوفى، وقد رأينا فى «متون الأهرام» أن الملك «ببى» كان يسمى «أوزير ببى» ، كما كان الملك «تيتى» يسمى «أوزير تيتى».

وقد كان من نتائج انتشار عبادة «أوزير» الآخذة فى الإزدياد أن المنهج الذى كان يرمى إلى صبغ الحياة الآخرة الملكية الفاخرة بالصبغة الديمقراطية

قد صار حينئذ يوحد كل متوفى، ذكراً أكان أو أنثى، بالإله «أوزير». وعلى ذلك لم يقتصر المتوفى على دخول مملكة «أوزير»- كما كان الحال قديما- ليتمتع بحمايته وعطفه، بل صار المتوفى -ذكرًا كان أو أنثى- «أوزير» نفسه واعتبر ملكا

ولذلك نجد - حتى فى دفن الفقراء - أن المومية كانت تصور فى شكل «مومية أوزير» وموضوعة مثلها على ظهرها. وكانت التعاويذ التى تمثل شارات الملك الفرعونى ترسم على سطح جوف التابوت، أو كانت توضع بهيئة تماثيل بجانب جثمان المتوفى. وقد ظهرت قوة عبادة «أوزير» بحالة تلفت النظر فى العادة الجديدة، وهى إضافة اسم «أوزير» قبل اسم المتوفى. فإنه وإن كان من الجائز للمتوفى أن يوحد مع إله الشمس أيضا- كما كان يحدث كثيرا- فإنه بالرغم من ذلك كان ينعت باسم «أوزير» فى حين أن اسم إله الشمس «رع» لم يضف قط قبل اسم المتوفى.

وبظهور الدولة المصرية الحديثة بعد سنة ١٦٠٠ ق.م نجد أن الأدلة التى تكشف لنا عن ذلك التطور الخلقى الطويل الأمد- الذى اقتفينا أثره فى هذا البحث- قد ازدادت فى كميتها وفي أهمية قيمتها، وبخاصة فيما يبين لنا شعور المصرى المتزايد بمسئوليته الشخصية عن نوع أخلاقه. ذلك بأن مرحلة التفكير لهذا التطور الخلقى قد تقدمت تقدما محسوسا، لأن المصرى القديم فى ذلك الوقت كان قد تعمق فى التفكير فى طبيعة نفسه البشرية، وكان من نتائج ذلك أن صار المفكرون من المصريين - أنئذ- يرون أن المسئولية الخلقية لكل إنسان مترتبة بصفة قاطعة على إدراكه (فهمه) الشخصى.

ولعلنا نذكر بمناسبة هذا التصور الأخير الهام عن «الفهم» أنه لم يكن للعقل اسم فى اللغة المصرية القديمة غير كلمة «القلب» القديمة. ففى عصر الأهرام وجدنا أن «بتاح حتب» ذلك الوزير الحكيم المسن كان يذكر «القلب» على

أنه مركز المسئولية والإرشاد، إذ قال فيما ذكرناه له سابقا : «إن المستمع (يعنى إلى النصيحة الطيبة) هو المرء الذى يحبه الإله، أما الذى لا يصغى فهو الذى يبغضه الإله. والقلب هو الذى يجعل صاحبه مصغيا أو غير مصغ. وحظ الإنسان الحسن هو قلبه». كما نجد فى نصائح «بتاح حتب» أيضا أن قلب الرجل قد صار دليله، بل فى الواقع قد صار ضميره.

على أن القلب الإنسانى صار فى عهد الدولة الحديثة يعتبر أكثر من مستمع مجيب إلى النصيحة الطيبة، بل صار أكثر من مرشد إلى حسن الحظ.

حقا إن آراء «بتاح حتب» عن القلب من حيث نعته له بالمرشد الحكيم قد استمرت، إذ فى خلال القرن الخامس عشر نرى أحد حجاب بلاط الفاتح تحتمس الثالث» يذكر خدماته التى أداها للملك، فيقول : «لقد كان قلبى هو الوازع لأن أقوم بها، بإرشاده لى فى شئونى.

وكان ... كأنه شاهد ممتاز، فلما أهمل كلامه، وخشيت أن أتحظى إرشاده، وبذلك كان الفلاح حليفى لدرجة عظيمة. وقد كنت بسبب ما أوحى إلىّ [أى قلبى] أن أعمله ناجحا، وكنت بإرشاده نابها. تأمل ... فقد قال القوم إنه وحى من الإله يوجد فى كل إنسان. وإن من أرشده إلى الصراط السوى فى إنجاز العمل، لسعيد. تأمل .. فإنى كنت هكذا.

على أننا نجد أن أقارب «بحيرى» -وهو أمير من أمراء «الكاب»- قد خاطبوه بعد موته داعين له بقولهم: «ليتك تعيش فى الآخرة بقلب فرح وفى كنف الإله الذى فيك».

كما نجد ميتا آخر يقرر : «أن قلب الإنسان هو إله، وقد كان قلبى مرتاحا لأعمالى».

فكل ذلك يدل على أن المصرى القديم قد صار حينئذ شديد الحساسية -

بدرجة لم يصل إليها من قبل - لما كان يوحى به إليه ذلك الوازع الباطنى المنبعث من قلبه، وهو الذى سمى- بيعد نظر مدهش- «إله المرء».

وذلك لأن القلب قد صار الآن ذا شعور أكثر اتزانا وأكثر سيطرة وسلطانا على الإنسان مما كان عليه فى عهد ذلك الوزير الحكيم «بتاح حتب»، فصار يعلن استحسانه لما يكون عليه المرء من السلوك الحسن أو استياءه لما يكون عليه من السلوك السئ.

ولما صار المصرى القديم يشعر بسلطان ذلك الوازع القلبى شعورا كاملا أخذ -إذ ذاك- يلبس كلمة «القلب» معنى أوفى حتى صار أقرب بكثير مما فى عصر الأهرام من مدلول كلمتنا «الضمير».

وقد صرنا الآن فى مركز يجعلنا نفهم أهمية التحديد والدقة اللذين بهما صور لنا المصرى، عند بزوغ فجر الدولة الحديثة، فكرته النامية عن الحساب فى الآخرة.

وهذه الآراء - التى نجد فيها تفصيلا أوسع من قبل عن الحساب فى يوم الميعاد- قد وصلتنا عن طريق «كتاب الموتى». وقد اجتمعت عندنا ثلاث روايات مختلفة عن الحساب فى الآخرة عثر عليها فى أتم وأحسن اللفائف البردية التى وصلت إلينا للآن.

وكانت هذه الروايات فى الأصل - بلاشك - مستقلا بعضها عن البعض الآخر، وعنوان الرواية الأولى منها هكذا: «فصل فى دخول قاعة الصدق (الحق)»، وهى تحتوى على مايقوله المتوفى عند الوصول إلى قاعة الصدق عندما يطهر فلان (يعنى المتوفى) من كل الذنوب التى اقترفها.

ثم يوجه نظره إلى وجه الإله ويقول : «سلام عليك أيها الإله العظيم رب الصدق، لقد أتيت إليك يا إلهى وجىء بى إلى هنا حتى أرى جمالك. إنى أعرف

اسمك، وأعرف أسماء الاثنين والأربعين إلها الذين معك فى قاعة الصدق (هذه)، وهم الذين يعيشون على الخاطئين ويلتهمون دماءهم فى ذلك اليوم الذى تمتحن فيه الأخلاق أمام «وننفر» (أوزير)».

انظر ... لقد أتيت إليك.

أنى أحضر العدالة إليك، وأقصى الخطيئة عنك.

إنى لم أرتكب ضد الناس أى خطيئة...

إنى لم آت سوءا فى مكان الحق،

وإنى لم أعرف أية خطيئة.

إنى لم أرتكب أى شىء خبيث...

وإنى لم أفعل ما يمقته الإله.

وإنى لم أبلغ ضد خادم شراً إلى سيده.

إنى لم أترك أحدا يتضور جوعا،

ولم أتسبب فى بكاء أى إنسان.

إنى لم أرتكب القتل،

ولم آمر بالقتل،

إنى لم أسبب تعاسا لأى إنسان.

إنى لم أنقص طعاما فى المعابد،

ولم أنقص قربان الآلهة.

إنى لم أغتصب طعاما من قربان الموتى.

إنى لم أرتكب الزنا.

إنى لم أرتكب خطيئة تدنس نفسى داخل حرم إله البلدة الطاهر.

إنى لم أخسر مكيال الحبوب.

إنى لم أنقص المقياس.

إنى لم أنقص مقياس الأرض.

إنى لم أثقل وزن الموازين.

إنى لم أحول لسان كفتى الميزان.

إنى لم أغتصب لبنا من فم الطفل.

إنى لم أطرد الماشية من مرعاها.

إنى لم أنصب الشباك لطيور الآلهة،

إنى لم أتصيد السمك من بحيراتهم (أى الآلهة).

إنى لم أمنع المياه عن أوقاتها.

إنى لم أضع سدا للمياه الجارية.

إنى لم أطفىء النار فى وقتها(أى عند وقت نفعها).

إنى لم أستول على قطعان هبات المعبد.

إنى لم أتدخل مع الإله فى دخله».

والآن ننتقل إلى منظر آخر يمثل الحساب أيضا، حيث نجد القاضى «أوزير» يساعده اثنان وأربعون إلها يجلسون معه لمحاسبة المتوفى. وهم شياطين مخيفة يحمل كل منهم إسما بشعاً مزعجاً، ويدعى المتوفى أنه يعرف أسماءهم ولذلك يخاطبهم واحدا واحداً بالاسم، وهاك بعض أسمائهم:

«خطوة واسعة - خرجت من عين شمس».

و «محتضن اللهيب الذى حرج من طرة».

و «آكل الظل الذى خرج من الكهف».

و «عينان من لهيب خرجنا من «لتوبوليس» (أوسيم)».

و «كاسر العظام الذى خرج من أهناس».

و «آكل الدم الذى خرج من مكان الإعدام».

فكان المتوفى ينادى أصحاب هذه الأسماء وأمثالها من الأسماء التى اخترعها خيال رجال الكهانة المصريين، ويوجه لكل إله منها- بدوره- اعترافا ببراءته من خطيئة معينة.

ومن الظاهر – طبعا- أن أولئك الاثنين والأربعين قاضيا ليسوا ألا أسماء مخترعة، وهم يمثلون – كما هو معروف منذ مدة طويلة – الأربعين مقاطعة أو أكثر، أو الأقسام الإدارية، التى تتألف منها البلاد المصرية. ولا شك أن الكهنة ألفوا تلك المحكمة من اثنين وأربعين قاضيا قصد الإشراف على أخلاق المتوفى من أى ناحية كانت من أنحاء البلاد، حيث يجد المتوفى أن نفسه تواجه قاضيا على الأقل من بين أولئك القضاة قد جاء من «البلدة التى كانت موطنا له»، فيكون ذلك القاضى على علم بسيرة ذلك المتوفى المحلية وشهرته في أقصى وأدنى «الشارع الرئيسى» فى بلدته وبذلك لم يكن فى إمكانه أن يخاتله أو يغشه.

وتتناول هذه الاعترافات الاثنان والأربعون نفس موضوع الاقرارات التى ذكرناها فى الخطاب السالف تقريبا. وقد وجد الكهنة الذين حرروا هذه الاعترافات بعض الصعوبة فى إيجاد الخطايا الكافية لملء قائمة مؤلفة من اثنين وأربعين خطيئة، ولذلك نجد من بينها عبارات كثيرة معادة، هذا عدا التكرار الظاهر الذى ورد مع تغيير طفيف فى بعض الألفاظ. والجرائم التى يمكن اعتبارها من أعمال العنف هى التى يتبرأ منها المتوفى بقوله :

«إنى لم زقتل رجالا»

«إنى لم أسرق».

«إنى لم أتلصص».

«إنى لم أسرق امرءا ينتحب على متاعه».

«ولم تكن ثروتى عظيمة إلا من ملكى الخاص».

«إنى لم أغتصب طعاما».

«إنى لم أبعث الخوف.

«إنى لم أزك الشجار».

هذا ونجد المتوفى كذلك ينكر الغش وغيره من الصفات المذمومة، إذ يقول:

«إنى لم أنطق كذبا».

«إنى لم أضع الكذب مكان الصدق».

«ولم أكن أتصام عن كلمات الصدق».

«إنى لم أنقص مكيال الحبوب».

«ولم أكن طماعا».

«وقلبى لم يلتهم (يعنى لم يطمع؟)».

«ولم يكن قلبى متسرعا».

«إنى لم أضاعف الكلمات عند التحدث».

«ولم يكن صوتى عاليا فوق ما يجب».

«وفمى لم يثرثر».

«ولم تأخذنى حدة الغضب (فى طبعى)».

«إنى لم أسب».

«ولم أكن متسمعا».

«ولم أكن متكبرا (منفوخا)».

كما كان المتوفى أيضا بعيدا عن ارتكاب الرذائل الجنسية، إذ يقول :

«إنى لم زرتكب زنا مع امرأة».

«إنى لم آركب ما يدنس عرضى».

وكذلك ينكر المتوفى أيضا مجاوزته للحدود الرسمية، إذ يقول :

«إنى لم أعب فى الذات الملكية».

«إنى لم أسب الإله».

«إنى لم أذبح الثور المقدس».

«إنى لم أسرق هبات المعبد».

«إنى لم أنقص طعام المعبد.

«إنى لم أرتكب شيئا تكرهه الآلهة».

وإن انكار هذه النقائص وغيرها مما لم يمكننا فهمه هو الذى يتألف منه ذلك الإقرار بالبراءة. ويسمى هذا الجزء المذكور من كتاب الموتى فى العادة باسم«الاعتراف».

ومن الصعب على الإنسان أن يبتدع اسما مخالفا لطبيعة بيان المتوفى الحقيقية أكثر من مخالفة تلك التسمية لها. إذ هى إعلان واضح عن براءة

المتوفى ، فتكون – بطبيعة الحال– عكس مال يفهم من كلمة «اعتراف» هذه. ولهذا السبب قد صار فساد تلك التسمية من الأمور الظاهرة ، لدرجة أن بعض محررى ذلك الفصل أضافوا بعد كلمة «اعتراف» كلمة «إنكارى»، وصاروا يسمونه «اعتراف إنكارى»، مع أن هذه التسمية ليس لها أى معنى قط، لأن المصرى القديم لم يعترف بشىء فى تلك المحاكمة. وهذه الحقيقة فى غاية الأهمية فى تطور المصرى الدينى القديم.

والواقع أن الخطأ فى حسبان ذلك الجزء من كتاب الموتى اعترافاً– معناه الوقوع فى خطأ بين فى فهم ذلك التطور الذى كان يسير بالمصريين الأقدمين– إذ ذاك – على مهل نحو اعترافهم التام بخطاياهم وإظهارهم لها بتواضع، وهو أمر لا وجود له مطلقا فى أية ناحية من نواحى كتاب الموتى.

ثم بعد أن يذكر المتوفى براءة نفسه أمام هيئة المحكمة العظمى يوجه خطابه إليهم بوثوق، فيقول :

«سلام عليكم يا أيها الآلهة.

إنى أعرفكم وأعرف أسماءكم.

وإنى لن أسقط أمام أسلحتكم.

لا تبلغوا عنى شرا لذلك الإله الذى تتبعونه.

إن قضيتى لم تأت أمامكم.

قولوا عنى الصدق أمام (الرب المهيمن).

لأنى أقمت الصدق (يعنى العدل) في أرض مصر.

وإن لم أسب الإله.

وإن قضيتى لم تأت أمام الملك الحاكم وقتئذ.

سلام عليكم أيها الآلهة الذين فى قاعة الصدق (هذه).

والذين خلت أجسامهم من الخطيئة والكذب.

والذين يعيشون على الصدق فى عين شمس ... أمام حور الساكن فى قرص شمسه.

انظروا إنى آت إليكم بدون خطيئة وبدون شر وبدون ذنب.

إنى أعيش على الحق،

وأتغذى من عدالة قلبى.

لقد فعلت ما يقول به الناس وما يرضى الآلهة.

ولقد أرضيت الإله بما يرغب فيه.

فأعطيت الجائع خبزا

والصادى ماء.

والعريان لباسا

ولمن لا أقارب له رمثا.

وصنعت قربانا مقدسا للإلهة وقربانا من الطعام للموتى.

فنجونى أنتم واحمونى أنتم.

ولا تقدموا ضدى أية شكاية أمام الإله العظيم

لأنى إنسان طاهر الفم وطاهر اليدين.

وإنى من قال له كل من رآه : مرحبا، مرحبا».

وبتلك الكلمات تتحول إدعاءات المتوفى عن خلقه العظيم إلى تأكيدات بأنه

قد راعى كل مستلزمات المذهب الأوزيرى الرسمية. وهذه يتألف منها أكثر من نصف ذلك الخطاب الختامى الموجه إلى آلهة المحكمة.

وأما الرواية الثالثة عن المحاكمة فهى التى – من غير شك– أثرت أعمق تأثير على نفس المصرى، فهى تشبه تمثيلية «أوزير» فى «الغرابة المدفونة» في قوة تعبيرها وشدة تأثيرها، وتصور لنا المحاسبة في الآخرة عن طريق الموازين. فنشاهد الإله « أوزير»– في بردية «آنى» الفاخرة المحلاة بالصور – جالسا فوق عرشه فى نهاية قاعة المحاكمة، وخلفه كل من الإلهتين «إزيس» و«نفتيس»، وقد اصطف على طول أحد جوانب القاعة الآلهة التسعة المعروفون بتاسوع «عين شمس» يرأسهم إله الشمس.

وهم الذين ينطقون فيما بعد بالحكم، دالين بذلك على أن ذلك المنظر الثالث من المحاكمة كان فى بدايته شمسى الأصل، وهو الذي احتل فيه «أوزير» الآن المكان الأول، ونشاهد فى وسط المنظر «موازين «رع» التى يزن بها الصدق»، طبقا لما سبق ذكره عن تسميتها بذلك الاسم فى العهد الإقطاعى.

ولكن المحاكمة التى تظهر فيها تلك الموازين صارت– وقتئذ– أوزيرية الصبغة، حيث كانت الموازين فى يد الإله الجنازى القديم «أنوبيس» الممثل برأس ابن آوى، ويقف خلفه «تحوت» كاتب الآلهة ليشرف على الميزان وفى يده القلم والقرطاس حتى يسجل النتيجة.

وخلف «تحوت» يقعى حيوان بشع الهيئة يسمى «الملتهمة» له رأس التمساح وصدر الأسد ومؤخرة فرس البحر، ويكون متحفزا لالتهام الروح إذا وجدت ظالمة.

وقد صور بجوار الميزان بدقة موحية – صورة القدر وفى رفقته الآلهتان، ننوث «ومسخنت»، وهما آلهتا الولادة، على أهبة التأمل والتدبر فى مصير

تلك الروح التى أشرقتا عليها حينما جاءت إلى هذا العالم قبل ذلك. ويجلس خلف الآلهة المتربعين فوق عروشهم إلها الأمر والعقل.

على أننا كثيرا ما نجد فى لفائف بردية أخرى – في هذا الموضوع– إلهة العدل بنت «رع» قائمة عند مدخل قاعة المحاكمة، لتقود إلى قاعة المحاسبة الروح التى جاءت حديثا.

وفى بردية «آنى» يدخل «آنى» وزوجه القاعة التى يقرر فيها المصير مطأطئ الرأس بهيئة تدل على الخضوع، ويطالب «أنوبيس» فى الحال بقلب «آنى». والإشارة الهيرغليفية التى تدل على القلب– وهى التى تمثل هنا قلب «آنى»– تشبه كثيرا الإناء الصغير. ومن ثم نرى هذه الإشارة القلبية موضوعة فى إحدى كفتى الميزان، كما نرى فى الكفة الأخرى ريشة – وهى الرمز الهيرغليفى الدال على الصدق أو العدالة أو الحق (يعنى ماعت). ويخاطب «آنى» قلبه فى هذه اللحظة الحرجة قائلات :

يا يا قلبى الذى أتيت من أمى

يا قلبى الخاص بكيانى

لا تقفن شاهدا ضدى

ولا تعارضنى فى المجلس (يعنى محكمة العدل)

ولا تكونن حربا علىّ أمام رب الموازين

ولا تدعن اسمى يصير منتن الرائحة في المحكمة

ولا تقولن ضدى زورا في حضرة الإله.

والظاهر أن هذا الإستعطاف لم يأت بالأثر المطلوب، لأن «تحوت» رسول التاسوع العظيم الموجود فى حضرة الإله «أوزير» يقول على الفور.

اسمع أنت هذه الكلمة بالحق .

إنى قد حاسبت قلب أوزير [آنى]

إن روحه شاهدة عليه

وأخلاقه قد وجدت مستقيمة على حسب ما أظهره الميزان العظيم

ولم يوجد له أى ذنب.

فيجيب الآلهة التسعة على الفور:

«ما أحسن ذلك الذى يخرج من فيك العادل»

وقد شهد ذلك «أوزير آنى» المبرأ من الذنوب: إنه ليس له ذنب

فلم نجد أنه اقترف شرا

و لن يكون للملتهمة سلطان عليه

وليؤمر بإعطائه الخبز الذى يوضع أمام «أوزير»

والضيعة التى في حقل القربان كما عمل لاتباع «حور».

وبعد أن يحكم له بهذا الحكم المرضى يقود «حور» بن (إزيس) «آنى» المحظوظ ويقدمه إلى «أوزير» حيث يقول له في الوقت نفسه :

«إنى آت إليك يا «وننفر» (أوزير) وانى أحضر لك «أوزير آنى»

إن قلبه المحق يخرج من الميزان وليست له خطيئة فى أى إله أو إلهة.

لقد حاسبه «تحوت» كتابة.

وقد شهدت له الآلهة التسعة شهادة عادلة جدا .

فليؤمر بإعطائه الخبز والجعة اللتين توضعان أمام «أوزير وننفر» مثل أتباع «حور».

وبعد ذلك يضع «آني» يده في يد «حور» ويخاطب «أوزير» فيقول :

«تأمل إني أمامك يارب الغرب

إن جسمي خال من الذنوب

إني لم أنطق كذبا على علم مني

وإذا كان ذلك قد فرط مني فإني لم أكرره ثانية

دعني أكن مثل أصحاب الخطوة من أتباعك».

وعندئذ يركع أمام الإله العظيم، وعند تقديمه مائدة القربان يصير مقبولا ويدخل في مملكة «أوزير».

فتلك البيانات الثلاثة عن الحساب في الآخرة، برغم ما فيها من الحواشي والملحقات التي زخرفها بها الكهنة، ذات أثر فعال في النفوس حتى في نظر الباحث الحديث حينما ينعم النظر في تلك اللفائف البردية التي مضى عليها ٣٥٠٠ سنة ، ويرى أن تلك المناظر ليست إلا تصويرا مجسما لنفس الشعور بالمسئولية الخلقية ونفس إيحاء الوازع الباطني الذي لاتزال – نحن الآن– نطالب به أنفسنا، إذ نجد أن «اني» يتضرع لقلبه – الذي هو الكلمة المعبرة عنده عن «الضمير» – بألا ينم عليه، مما نرى صدى صيحته تنحدر على مدى الآباد والدهور في مثل هذه الكلمات التي قالها «ريتشارد» حيث قال :

إن ضميري له ألف لسان مختلف،

وكل لسان يأتي معه بقصة مختلفة

وكل قصة تقضي عليّ بأني شرير»

وقد أصغى المصري إلى نفس ذلك الإيحاء وخافه وحاول إخفاءه وإسكاته، أي أنه اجتهد في إسكات وحي القلب ولم يعترف إلى ذلك الوقت بذنوبه بل

تشبث فى إلحاح ببراءته. ولقد كانت الخطوة الثانية عندما ارتقى فى تطوره فصار يظهر -فى خضوع- شعوره بخطيئته إلى ربه.

وقد وصل إلى تلك الخطوة فيما بعد. ولكن حدث إذ ذاك أن تدخل عامل آخر فعاقه إعاقة شديدة عن تحرير ضميره تحريرا تاما.

وليس هناك من شك فى أن هذه المحاكمة الأوزيرية التى صُورت لنا بذلك الوضوح المجسم، مضافا إليها ذلك التقدير العام لعبادة «أوزير» فى عهد الدولة الحديثة، يرجعان لدرجة كبيرة إلى نشر الاعتقاد بالمسئولية الخلقية فيما بعد الموت، وإلى تعميم تداول تلك الآراء الخاصة بالقيم السامية للأخلاق الطاهرة النقية.

مما شاهدناه سائدا بين علماء الأخلاق والفلاسفة الاجتماعيين الذين نشئوا فى البلاط الفرعونى من عدة قرون خلت فى العهد الإقطاعى. فإنه بتلك الكيفية قد أضفى مذهب «أوزير» على الأخلاق الفاضلة قوة عظيمة فى نظر الشعب، ومع أن بابه كان مفتوحا على مصراعيه ليدخله جميع الناس فإنه كان من واجب الجميع أن يبرهنوا على أهليتهم لرضاء الإله «أوزير» من الناحية الخلقية.

فلو أن الكهنة تركوا الأمر على هذه الحال لكان فيه الخير، ولكن – لسوء الحظ- كان انتشار الاعتقاد في نفع قوة السحر وتأثيرها في الحياة الآخرة لايزال مستمرا، إذ كان المعتقد أن كل النعم المادية يمكن الحصول عليها – من غير نزاع – باستعمال الرقية الملائمة، بل كان فى الإمكان كذلك أن يعاد إلي الإنسان بتأثير تلك العوامل السحرية كل شىء حتى العتاد العقلى، ألا وهو «القلب» الذى معناه – فى اللغة المصرية القديمة – «الفهم» أو «العقل».

فقد رأينا كيف أن نفس تلك الرقية التى كانت تمكن الأم الهلوع من منع

الشيطان الرجيم من خطف طفلها كان فى الإمكان كذلك استعمالها لمنع أخذ قلب الإنسان منه (أى سلب عقله منه). وقد وضعت الكهنة فى «متون التوابيت» فى عصر العهد الإقطاعى – رقية لذلك الغرض عنوانها :

«فصل فى عدم السماح بأخذ قلب الرجل منه فى العالم السفلى». وقد أضيفت الآن هذه الرقية إلى كتاب الموتى. وبذلك نجد أن السحر قد دخل إلى عالم جديد وهو عالم «الضمير» والصفات الشخصية والأخلاق.

وقد أغرت الكهنة أبواب الكسب والارتزاق –التى كانت لا تقف حيلتهم فيها عند حد– على اتخاذ خطوة خطيرة للاحتيال على الكسب، ألا وهى السماح لمثل تلك العوامل أن تتدخل بتلك الكيفية فى القيم الخلقية، بزعمهم أنه فى مقدور السحر أن يصير عاملا للوصول إلى الغايات الخلقية.

وسنرى فيما يأتى أن كتاب الموتى هو على الأخص كتاب للرقي والتمائم السحرية، وأنه حتى الجزء الخاص منه بحساب الآخرة لم يستمر طويلا خاليا من ذلك، حيث نجد أن تلك الكلمات المؤثرة التى وجهها «آنى» إلى قلبه عندما كان يوزن بالموازين الأخروية وهى قوله له : «ياقلبى لا تقم شاهدا ضدى»، صارت تدون إذ ذاك على «جعل مقدس» مصنوع من الحجر (وهو الجعران) يوضع فوق قلب الميت، حتى يكون بمثابة أمر له نفوذ سحرى فعال يمنع القلب من أن ينم على أخلاق المتوفى[1].

وقد صارت ألفاظ تلك الرقية فصلا مستقلا من فصول كتاب الموتى عنوانه:

---

(١) هذا مصداق ما فى القرآن الكريم من الآيات التى تعزز أن جوارح الإنسان تشهد عليه «وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ» ، فهذه العقائد الفرعونية مأخوذة من دين سماوى غير أنه تم تحريف تلك الرسالات السماوية.

«فصل لمنع قلب الرجل من معارضته له فى العالم السفلى».

وكانت مناظر المحاكمة فى الآخرة ومتن إعلان البراءة تنسخ بكثرة على صفحات البردى، يقوم بنسخها الكتبة ثم تباع لكل الناس. ولا يكتب اسم المتوفى فى هذه النسخ، بل يترك مكانه خاليا ليملأه المشترى بعد حصوله على تلك الوثيقة. قلت : وهذا حدث مثله فى النصرانية «صكوك الغفران»

وكانت كلمات الحكم التى تعلن أن المتوفى قد فاز فى المحاكمة وبرئ من كل شر تدون فى كل بردية من تلك الصحف. وعلى ذلك كان فى إمكان كل إنسان مهما كانت أخلاقه فى الحياة الدنيا - أن يستولى من الكتبة على شهادة تقول بأن فلانا - الذى ترك مكان اسمه خاليا- كان رجلا فاضلا (يعنى من قبل أن يعرف من سيكون فلانا هذا).

وقد كان فى مقدور الميت أن يحصل حتى على صبغة سحرية شديدة القوة والتأثير لدرجة تجعل «إله الشمس» -الذى يعتبر القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة- يسقط من سماواته فى النيل إذا لم يخرج ذلك الميت برىء الساحة تماما من محاكمته.

وبذلك نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة أمكننا تتبعه فى حياة الإنسان القديم، قد توقف فجأة، أو على الأقل قد صدم صدمة عنيفة، بتلك الحيل الممقوتة التى كان يستعملها أولئك الكهنة الدجالون جريا وراء الكسب.

ولسنا فى حاجة إلى بيان ما أدى إليه تدخل السحر فى ذلك الشأن الدينى من الخلط بين العوامل الحقيقية وغير الحقيقية.

وذلك الارتباك هو بعينه ما كان ينتج قديما من عجز الإنسان عن فهم الفرق بين «مايدخل فى نفس الإنسان» وبين «مايخرج منها».

فتلك البراءة التى تصدر صدوراً آليا بعوامل خارجية لنجاة الإنسان من العقوبات التى مصدرها من الخارج، لايمكن -بطبيعة الحال- أن تزيل الأضرار التى نشأت فى باطن الإنسان، وإن الإيحاء الباطنى، الذى كان يحس به المصريون الأقدمون أكثر من أية أمة أخرى فى الشرق القديم، والذى بنيت عليه كل فكرة عن الحساب الخلقى العسير فى عالم الآخرة، لا يمكن محوه بمثل تلك الوسائل الخارجية التى ابتدعها لهم السحر، ولابد أن الاعتقاد العام الذي سرى فى الاعتماد على مثل تلك الحيل، للفرار من المسئولية الخلقية عن حياة مرذولة، قدم سمم حياة الشعب الفطرية.

ومع أن كتاب الموتى يكشف لنا أكثر من أى مصدر قبله فى تاريخ مصر عن صيغة المحاكمة الخلقية فى عالم الآخرة وكيفيتها وتوخى المصريين الحقيقة فى تصوير المسئولية الخلقية، فإنه كذلك مظهر لمدى انحطاط المبادىء الخلقية فى ذلك الوقت، بل إنه بتحول كتاب الموتى إلى سلاح لضمان البراءة الخلقية فى عالم الآخرة بدون مراعاة لقيمة أخلاق الشخص نفسه قد صار قوة إيجابية مفسدة.

ويزيد من شر هذا الإنتاج الكهانى (أى كتاب الموتى) أنه ينتظم طائفة من الرقى والتعاويذ السحرية التى يعتقد فيها القوم القدرة على جلب ما يرضى الميت من الحاجات المادية والجثمانية فى عالم الاخرة.

وقد ازداد عدد تلك الرقى فى عهد الدولة الحديثة، وكان لكل منها عنوانها الدال على ما تؤديه للميت من الأعمال.

وقد تكون من هذه الرقي السالفة الذكر، مضافا إليها بعض الأناشيد الدينية القديمة فى مديح «رع» و«أوزير» مما كان بعضه ينشد أمام الجنائز، ويحتوى عادة على بعض البيانات عن الحساب فى الآخرة، مجموعة كانت تدون إذ ذاك بصفتها متونا جنازيا على صحف من البردى وتوضع مع الميت فى

قبره، وهذه الأوراق البردية هى التى صارت تعرف- عندنا عادة - باسم كتاب الموتى.

والواقع أنه لم يكن موجودا - فى عهد الدولة الحديثة - كتاب كهذا يعرف بذلك الاسم، بل كانت فى لفافة بردى تحتوى على مجموعة من المتون الجنازية تولف حسبما اتفق مما يقع تحت يد الكاتب أو من المتون التى كانت سوقها رائجة وقتئذ- أى المتون التى كانت محببة إلى الناس أكثر من غيرها.

وقد كانت توجد لفائف فخمة ذات بهاء يبلغ طول الواحدة منها من ٦٠ إلى ٨٠ قدما، وتشتمل على فصول أو رقى يتراوح عددها من ٧٥ إلى ١٢٥ أو ١٣٠. فى حين كان الكتبة من جهة أخرى ينسخون لفائف صغيرة متواضعة، لا يزيد طول الواحدة منها على بضعة أقدام ولا تحتوى إلا على منتخب صغير من تلك الفصول التى تعد أكثر أهمية من غيرها.

والواقع أنه لم توجد بين لفائف ذلك الوقت لفافتان تحتوى كل واحدة منهما على نفس مجموعة التعاويذ التى تشتمل عليها الأخرى، وقد بقى الحال كذلك إلى عهد البطالسة (أى بعد القرن الرابع ق.م. بقليل) حينما جمع منتخب شبه معتمد من تلك الفصول تقرر استعماله تدريجا.

ومن ذلك يتضح، كما ذكرنا فيما سبق ، أنه لم يكن هناك كتاب يعرف باسم كتاب الموتى - بصحيح العبارة - فى عهد الدولة الحديثة، بل كانت توجد مجاميع متنوعة فقط من الفصول الجنازية تملأ الأوراق البردية الجنازية التى وجدت فى ذلك العصر.

وقد بلغ مجموع تلك الفصول أو التعاويذ التى كانت تؤلف منها تلك اللفائف مايربو على مائتين، مع أن أكبر لفافة منها كانت لا تحتوى على تلك الفصول جميعا.

وقد كان استقلال كل فصل بذاته – أو بعبارة أخرى تمييز كل فصل عن غيره من باقى الفصول – واضحا فى ذلك العهد بفضل اتباع العادة التى جرت بوضع عنوان لكل فصل قبله. وقد كانت بداية تلك العادة فى متون التوابيت، حيث وضعت عناوين لبعض فصولها.

وكانت توجد مجاميع من الفصول تتألف منها أكبر نواة متداولة لكتاب الموتى وتسمى غالبا : «فصول للصعود فى النهار»، وهى تسمية نجدها مستعملة فى متون التوابيت أيضا. وبالرغم من كل ذلك لم يكن هناك عنوان شائع عن لفافة كاملة لكتاب الموتى باعتباره وحدة شاملة.

ومع أن بعض نبذ ضئيلة من متون الأهرام قد استمرت طويلا مستعملة فى كتاب الموتى، فإنه يمكننا القول بأن تلك المتون قد اختفت على وجه عام تقريبا. وأما متون التوابيت فقد ظهرت ثانية بمقدار عظيم جدا وساهمت مساهمة كبيرة فى تكوين المجاميع المتنوعة التى يتألف منها الآن «كتاب الموتى».

وقد ابتدع فى هذه المجاميع عنصر لانرى له إلا أثرا يسيرا فقط فى «متون التوابيت» ، ذلك هو إضافة صور فاخرة فى لفائف الموتى من الدولة الحديثة، تصور حياة المتوفى فى عالم الآخرة. وقد كان القوم يعتقدون فى تأثير مفعولها اعتقادا عظيما وبخاصة ماشاهدناه فيما سبق من منظر المحاكمة في الآخرة ، الذى صار – إذ ذاك– يصور بهيئة متقنة.

ويمكن القول عن تلك الصور الواردة فى كتاب الموتى «بأنها ليست إلا مثالا اخر لإحكام الطرق السحرية بقصد تحسين أحوال الحياة الأخرى. والواقع أن كتاب الموتى نفسه – على وجه عام– ليس إلا مثلا مركبا بعيد المرمى يوضح مدي اعتماد القوم المتزايد على السحر فى الحياة الآخرة.

وكانت المكاسب التى تجبى بتلك الطريقة لا حد لها. ومن الواضح أن ذكاء أولئك الكهنة المرتزقة قد لعب دورا عظيما فيما حدث من التطور بعد ذلك، إذ أن أشراف الدولة المترفين لم يروا في تصوير الآخرة بمناظر الفلاحة مستقبلا جذابا، إذ كان من الممكن للمتوفى أن يحرث فيها وأن يزرع ويحصد الثمار من حقله السعيد حيث كانت الحبوب تنمو إلى ارتفاع سبعة أذرع (حوالى ١٢ قدما).

فلم يعد يروق فى نظر أولئك العظماء المنعمين، فى عصر يزخر بالثراء، أن يكلفوا القيام بعمل ما، أو أن يجبروا على الذهاب حتى إلى حقول المنعمين، ليكدوا وينصبوا.

ولذلك كانت توجد منذ الدولة الوسطى دمى مصنوعة من الخشب تمثل خدم الميت فى الحياة الآخرة، توضع معه فى القبر لتقوم بدلا منه بأداء ما يلزمه القيام به من العمل بعد الموت، كما كان يقوم له بذلك خدمه فى الحياة الدنيا.

وقد تدرجت هذه الفكرة إذ ذاك بعض الشىء فى سبيل التطور فصارت تصنع تماثيل صغيرة للمتوفى يحمل كل منها حقيبة وفأسا. وكان يدون على صدور مثل تلك التماثيل رقية ماكرة هى :

«يا أيتها الدمية المتخذة لفلان (هنا يكتب اسم المتوفى) إذا نوديت أو إذا طلبت للقيام بأى عمل فى العالم السفلى... فإنك تعدين نفسك لى فى كل الأزمان لتزرعى الحقول ولتروى الشواطئ ولتنقلى الرمل من الشرق إلى الغرب ولتقول إننى هنا».

وهذه الرقية كانت ضمن الرقى التى تدون فى بردى المتوفى تحت عنوان : «فصل فى جعل الدمية تقوم بعمل المرء فى العالم السفلى». ثم تفنن القوم فى إتقان هذه الحيلة فصار يخصص لكل يوم من أيام السنة دمية من تلك الدمى

الصغيرة وتوضع جميعا مع الميت فى قبره. وقد عثر على تلك الدمى بمقادير عظيمة فى الجبانات المصرية القديمة، حتى أن المتاحف، والمجاميع الخاصة فى كل العالم قد صارت الآن آهلة بها.

ولا غرابة إذن إذا كان كهنة ذلك العصر وكتبته قد انتهزوا تلك الفرصة السانحة لابتزاز أموال الناس حبا فى الكسب الذى كان يأتى إليهم بتلك الطريقة السهلة. ولذلك ضاعفوا أخطار الاخرة وأهوالها إذ ذاك مضاعفة عظيمة، وادعوا أنه كان فى مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعويذة الفعالة التى تنجيه من ذلك الخطر حتما. فإنه فضلا عن التعاويذ العديدة التى تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم الآخرة، كانت توجد أيضا تعاويذ تمنع فقدان المتوفى فمه أو رأسه أو قلبه، وأخرى لتساعده على استذكار إسمه، كما كان منها ما يساعده على الانفس والأكل والشرب.

ومنها ما يمنع أكله لبرازه، ومنها ما يمنع الماء الذى يشربه من أن يتحول إلى لهيب. ومنها ما يحول الظلام نورا. كما كان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية . وغير ذلك كثير من تلك التعاويذ.

وكذلك ازداد الآن موضوع التقمصات التى كان يرغب الميت فى أن تتقمصها روحه، وقد وضع فصل صغير لكل حالة يرغبها الميت، ليساعده على أن يتقمص فى صورة «صقر من الذهب» أو «صقر إلهى» أو «زنبقة» أو «مالك الحزين (فنكس)» أو «بجعة» أو «الثعبان المسمى ابن الأرض» أو «تمساح» أو «إله». والأدهى من كل ذلك هو اختراع فصل قوى المفعول يمكن الإنسان باستعماله أن يتخذ لنفسه أى شكل يريده.

فمن مثل ذلك الإنتاج الذى تقدم ذكره يتألف الجزء الأعظم من مجموعة المتون التى نسميها الآن «كتاب الموتى». فإذا سميناه بعد ذلك «إنجيل المصريين الأقدمين» نكون إذن قد أسأنا فهم وظيفة هذه اللفائف ومحتوياتها.

وإن ذلك الاتجاه الذى نتجت عنه تلك المجموعة من التعاويذ أو الرقى وهى التى يطلق عليها اسم «فصول»، نجده ظاهرا أيضا بشكل مميز فى كتابين آخرين يكون كل منهما وحدة متماسكة متصلة. وأولهما «كتاب الطريقين» ويرجع عهده إلى عصر الدولة الوسطى وقد ساهم ذلك الكتاب من قبل مساهمة عظيمة فى تأليف كتاب الموتى فيما يختص بالبوابات النارية التى كان يمر بها المتوفى حتى يصل إلى عالم الآخرة وإلى الطريقين اللذين كان يسير فيهما فى سياحته.

وعلى أساس مثل تلك التصورات أنتج خيال الكهنة أيضا «كتاب الموجودين فى العالم السفلى أو ما فى العالم السفلى». وهذا الكتاب يصف لنا الرحلة السفلية التى تقوم بها الشمس خلال الليل، حينما تخترق الممرات ذات الكهوف الأثنى عشر التى فى أسفل الأرض، وكل منها تمثل مسيرة ساعة. وباجتياز الأثنى عشر كلها تنتهى الشمس من آخر مطافها وتبلغ النقطة التى تطلع منها فى الشرق صباحا.

وأما الكتاب الثانى فيسمى عادة باسم «كتاب البوابات»، وهو يمثل الوصول إلى كل من الأثنى عشر كهفا بالدخول إلى كل كهف من بوابته، وهو خاص باجتياز تلك البوابات .

ومع أن تلك التصانيف لم تنتشر قط الانتشار الذى حظى به «كتاب الموتى» فإنها كانت تعد –مع ذلك– كتب إرشاد سحرية ألفها الكهنة للكسب كما فعلوا فى معظم الفصول التى يتألف منها «كتاب الموتى».

والأمر الذى خلص «كتاب الموتى» نفسه من وصمة أنه كتاب سحرى وكفى يستعمل فى عالم الآخرة، هو بسطه للآراء القديمة الخاصة بالمحاكمة الخلقية فى عالم الآخرة وتقديره الظاهر لمسئولية «الضمير».

وقد رأينا فيما تقدم أن علاقة الإنسان بالالهة كانت قد صارت من قبل

حلول العهد الإقطاعى شيئاً أكثر من إقامته للشعائر الدينية الظاهرة، فالآن قد أصبحت هذه العلاقة أمرا يتعلق بالقلب والأخلاق.

ولقد كان الشعور الخلقى عند المصرى قويا جدا، لدرجة أنه لم يجعل قيمة الحياة الفاضلة موقوفة على قبوله عند «أوزير» فى عالم الآخرة فحسب. ومن ذلك يتضح لنا تقصير النظرية الأخلاقية الأوزيرية، التى تأمر الإنسان بالتفكير فى العواقب الخلقية فى عالم الآخرة فقط.

فإن «أوزير» لم يخرج عن كونه إله الموتى، وقد نادى فلاسفة الاجتماع الأقدمون فى العهد الإقطاعى بالفضائل التى شرعها «رع» إله الشمس وطالبوا بالعدالة الاجتماعية فى هذا العالم كما طالب بها «رع».

ولم يعدم أولئك الفلاسفة بعض الأخلاف فى عهد الدولة الحديثة، ممن رأوا فى المذهب الشمسى واجبا يحتم عليهم أن يحيوا حياة حقة فى هذه الدنيا، كما أدركوا أنه ينالهم الثواب فى الدنيا إذا عاشوا عيشة صالحة. فإله الشمس لم يكن – بوجه خاص – إله الموتى، بل كان الإله الذى يحكم فى شئون البشر الدنيوية، وقد شعر الناس بالمسئولية الخلقية التى فرضها عليهم «رع» فى كل ساعة من حياتهم الدنيوية . فحوالى سنة ١٤٠٠ ق.م. وجه أحد مهندسى الملك «أمنحتب الثالث» أنشودة مدح إلى إله الشمس ، قال :

« لقد كنت قائدا مغوارا بين آثارك، مقيما العدل لقلبك.

وإنى أعلم أنك مستريح للعدالة.

وأنك تجعل من يقيمها على الأرض عظيما.

ولقد أقمتها ، ولذلك جعلتنى عظيما ».

وكذلك حينما كان الفرعون يعقد يمينا، فإنه كان يحلف «بحب» «رع» لى وبمقدار عطف والدى «أمون» علىّ (وقد وحد «آمون» مع «رع» منذ زمن بعيد).

كما أن الفاتح «تحتمس الثالث»، عندما كان يقسم بذلك القسم توكيدا لما يقوله وتعظيما لاحترامه للصدق عند الإله، يشير عند حلفه إلى وجود إله الشمس، هكذا :

«لأنه يعرف السماء ويعرف الأرض

ويرى جميع العالم فى كل ساعة».

ومع أنه من الأمور المسلم بها أن عالم الآخرة السفلى فى المذهب الأوزيرى يصور لنا إله الشمس بأنه ينتقل من كهف إلى كهف تحت الأرض، مارا فى عالم «أوزير» السفلى وجالبا معه النور والفرح إلى الساكنين هناك، فإن تلك الفكرة لم تكن معروفة فى اللاهوت الشمسى كما هو مذكور فى «متون الأهرام».

والواقع أن إله الشمس كان يعتبر فى عهد الدولة الحديثة قبل كل شىء إله عالم الأحياء من البشر، حاضرا معهم، نشطا فى مراقبة شئونهم الدنيوية على الدوام. ولذلك كان الناس يشعرون بمسئوليتهم أمامه الآن وفى هذه الحياة الدنيا. وكانت سيطرته تلك قد تعمقت فى قلوب الناس واتسع أمامها المجال باتساع أفق ذلك العهد الإمبراطورى ، إلى أن انبثق لأول مرة فى تاريخ العالم، لأعين سكان وادى النيل القدامى، فجر رؤية الإله العالمى.

الحياة داخل البيت الفرعونى

كان المصرى القديم محبا لأهل بيته وأهل منزله وكان باراً بوالديه يعاملهم بالعطف والحنان وما دلت النقوش والنصوص على أنه عاق لهم، وكان المصرى القديم يصل رحمه، كما أن الزوجة كانت معروفة عندهم بإدارة شئون المنزل، وكانت تسمى "حمت" ومعناها سيدة البيت وكانت تبذل كل ما تستطيعه من أجل راحة أبنائها وسعادة زوجها.

وكانت الأسرة المصرية حريصة كل الحرص على زواج أبنائها عند بلوغهم، وذلك حرصا عليهم وهذه أحد النصوص والنصائح لأحد الآباء يقول لابنه "تزوج سيدة صغيرة تعقب لك أطفالاً تستطيع تربيتهم أثناء حياتك".

وكان زواج الابن عند القدماء فى سن الخامسة عشرة وزواج البنت فى سن الثانية عشرة وهذه أحد نصوص عقد زواج لأحد القدماء والذى يرجع تاريخ هذا العقد إلى عام ٢٣١ قبل الميلاد وهذا النص موجود بالمتحف المصرى تحت رقم ٢٥٠٦ B .

النص :

" يقول إمحوتب لتاحاتر لقد اتخذتك زوجة وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه والأطفال الذين تلدينهم أطفالى ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شئ مطلقا لأعطيه إلى أخرين من أبنائى أو إلى أى شخص فى الدنيا سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفى طعامك وشرابك كل عام ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهريا وسنويا وسأعطيك لك أينما أذهب وإذا طردتك أعطيك خمسين قطعة من الفضة وإذا اتخذت عليك ضرة أعطيت لك مائة قطعة من الفضة.

ويقول وكان الأب يأخذ عقد الزواج، ويقول أنى موافق على ذلك وكان يشهد على هذا العقد ستة عشرة رجلا.

وهذا تعهد من الزوج بكل حقوق زوجته عليه وأطفاله من كساء وطعام وشراب، وقد شرع المصرى القديم نفقة الطلاق بعد الانفصال واشترط على نفسه النفقة على الزوجة عند الزواج بأخرى كما أن القدماء قد عرفوا "الداية" وجعلوا للنساء الحوامل إله وهى الآلهة "تاأورس".

الأطفـــال :

وكان المصرى القديم يقيم الولائم والأفراح عندما يرزق بطفل وكانت الأم ترضع طفلها ثلاث سنوات وكان أهل اليسر والثراء يستأجرونن مرضعات ومربيات لأبنائهم.

وكانوا يسمون الأطفال بأسماء الزهور "وباك – سشن – إيب – أونش – ومهرة – وجميلة – وخضرة" وأسماء البنات مازالت من أسمائنا اليوم وعندما ينمو الطفل بعد فطامه تضع له الألعاب لتقوية عضلاته وبناء عقله بالألعاب الخشبية والعرائس والألعاب التى تشبه الحيوانات والطيور، وكانوا يصنعون لأطفالهم "لعب" من الطين كما هو الآن من ألعاب التشكيل بالطين وطين الصلصال، وكانن الطفل عندما يبلغ الرابعة من عمره يدخل المدرسة بالقرية أو مدارس المعابد وكان الأطفال يتلقون فى مدارسهم تعليم القراءة والكتابة والحساب والفنون والرياضة وفن السباحة.

وكان لأبناء البلاط الملكى وأبناء النبلاء مدارس خاصة لأبنائهم تكون بالمنزل وكان الأبناء بعد تعليمهم يلحقون بأعمال الأباء وقد عرف القدماء تعليم البنات وكانوا يحفزوهم على التعليم ويعرفونهم أن ا لذى لا يتعلم مثل :

١- صانع النحاس يقضى يومه أمام النار متألما.

٢- وأن حفار المعادن يعمل كالمحراث فى الأرض.

٣- والبناء يذهب إلى منزله فى المساء وهو مضنى من التعب.

٤- والبستانى يقوم بعمل شاق.

٥- والسقا عرضة للموت من البعوض.

٦- وقاطع الخشب والغاب يؤدى عمله عاريا فى الشمس.

٧- وصانع النعال يستجدى عمله من الناس.

٨- وغاسل الملابس يعمل على النهر عرضه للإغتيال والتماسيح والويل له إذا تأخر.

وكان الهدف من كل هذه التحذيرات هو العمل على غرس المصرى القديم حب التعليم فى نفوس أبنائه ليكون له مكانة كبيرة بعد تعليمه بين الملوك والنبلاء والكهنة وأن يكون بعيدا عن كل هذه الأعمال الشاقة التى ترهق الجسد ولا تعود عليه إلا بقليل من الأجر.

فهذا المصرى القديم كان حريصا على إكساب أبنائه الاعتماد على النفس وحب التفوق والنجاح وتحقيق الأهداف والآمال من أجل الوصول إلى هذه القمة الحضارية التى جعلت العالم كله فى هذا العصر يفقد وعيه كلما حاول البحث فى أسرارها وقمتها برغم كل ما يدعيه من تقدم وحضارة هاشة لايمكن له أن يقارن نفسه بها كما أن المصرى القديم لم ينصح أبنائه بالرغبة بالتعليم بل جلس يلاعبهم ويداعبهم بنفسه وهذه بعض الصور المنقوشة على المعابد للمصرى القديم وهو يلاعب ويداعب أبنائه.

رحلة الأهرام

كانت عقيدة القدماء المصريين فى الخلود هى السبب الأول لإقامة بيوت الأبدية كانوا يسمونها "برزت" فكان قبل بناء الأهرام يدفن الميت فى حفرة صغيرة وكانت هذه الحفر توازى النيل وكان الميت يوضع فى هذه الحفرة ورأسه إلى الجنوب وذلك منذ عهد الأسرة الأولى ثم تطورت طريقة الدفن إلى حفر بطول ٥ × ٧ أمتار بعمق ثلاثة أمتار، وكانت ذات أسقف ثم تدرجت طريقة البناء إلى الأهرام المدرجة بشكل المصطبة بطول ٥٤ × ٢٧متر تحت الأرض ثم يقام عليها الجدران ثم اتخذ أهل المتوفى فى الاعتبار اتساع المقابر لحاجتهم إلى وضع القرابين وبناء المصاطب للجلوس عليها عند زيارة الميت وإشعال البخور.

وأشهر هذه الأهرام التى بنيت بهذه الطريقة هو هرم سقارة المدرج الذى بناه الملك "زوسر" وهو عبارة عن بناء مكون من حجرين كسيت حوائطها بالقيشانى الأخضر، وكان الارتفاع الكلى لهذا الهرم المدرج ٦١ متر ثم جاء "سنفرو" مؤسس الأسرة الرابعة فشيد هرمه "بمبيدوم" بارتفاع ٣٨ متر وهو أول بناء هرمى كامل فى مصر فى وقت تشييده وقد اعتقد أن طائر (الفينكس) يحط على أحد المقابر فى وقت محدد من كل عام على أن هذا الطائر "هو إله الشمس" ومنها كان المصرى حريص على بناء مقابره بصورة وبشكل هرمى وكانت الشمس تنقش على جدران المعابد ومعنى هذا فى عقيدتهم أن عينى الملك ترى فى بيت الأبدية كمال "رع إله الشمس" وأن المتوفى يصعد فى موكب إلى السماء وأن الإله يهب له ارث الأرض ويجعله مسرورا، وكان على عامة الشعب عدم تشييد مقابرهم بشكل هرمى وقد تعددت الأهرام فى مصر وأهم هذه الأهرام بمصر والسودان والذى يبلغ عددها اثنين وسبعون هرما وأهمها:

١- هرم زوسر المدرج من الأسرة الثالثة بسقارة.

٢- هرم سنفرو من الأسرة الثالثة بميدوم.

٣- هرم سنفرو من الأسرة الثالثة بدهشور.

٤- هرم خوف من الأسرة الرابعة بالجيزة.

وقد شيد خوفو ثلاث أهرامات صغيرة بالجهة الشرقية وقد شيد لزوجته (هن وتسن).

٥- هرم خفرع من الأسرة الرابعة بالجيزة.

٦- هرم منقرع من الأسرة الرابعة بالجيزة.

٧- هرم دوف رع من الأسرة الرابعة أبو رواش.

٨- هرم الملكة خنت بالجيزة.

٩- هرم سحوع من الأسرة الخامسة أبو صير.

١٠- هرم نى أوسرع الأسرة الخامسة أبو صير.

١١- هرم نفر إركا رع الأسرة الخامسة أبو صير.

١٢- هرم أوناس الأسرة الخامسة بسقارة.

١٣- هرم تتى الأسرة السادسة بسقارة.

١٤- هرم يس الأول من الأسرة السادسة بسقارة.

١٥- هرم مر إن رع من الأسرة السادسة بسقارة.

١٦- هرم يس الثانى من الأسرة السادسة بسقارة.

١٧- هرم أمنمحتب الأول من الأسرة الثانية عشرة باللشت.

١٨- هرم سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة باللشت.

١٩- هرم أمنمحتب الثانى من الأسرة الثانية عشرة بدهشور.

٢٠- هرم سنوسرت الثانى من الأسرة الثانية عشرة بلاهون.

٢١- هرم سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة بدهشور.

٢٢- هرم أمنمحتب الثالث من الأسرة الثانية عشرة بدهشور.

٢٣- هرم هوارة من الأسرة الثانية عشرة بهواره.

وكانت تقطع هذه الأحجار بطريقة حفر حفرات، ودق أوتار بين الصخور وتبلل بالماء فتصدع الصخور وتتشقق فتقطع الأحجار، وتنقل بالمراكب فى النيل من أسوان إلى حيث بنيت الأهرام، وكانت تقام عملية بناء الأهرام بطريقة وضع الرمال الناعمة حول كل مدماج من مداميج الهرم ثم يرفع الحجر ويجر بطريقة الروافع والبكر.

هرم خوفو :

وهو المعروف بالهرم الأكبر وهو مثلث الشكل ويصل طول كل جانب من جوانبه ٢٣٣مترا وكان الارتفاع الأصلى ١٤٥ مترا ومساحة هذا الهرم ١٣ فدان وقد شيد هذا الهرم على هضبة الجيزة خوفا من فيضان النيل وقد أقام خوفوا هذا الهرم فى حياته وذلك بجمع العمال والفلاحين للاستعانة بهم فى المواسم الغير زراعية وقد استعان بمائة ألف عامل كان يقضى كل عام ثلاث شهور فى مشاركة البناء ثم تستبدل هذه المجموعة بمجموعة أخرى وقد استمر قطع الأحجار فقط عشر سنوات واستمر البناء عشرين عام.

وقد استخدم خوفو ٢،٣٠٠،٠٠٠ حجراً يزن كل حجر طنين ونصف طن ويصل وزن الأحجار التى استخدمت فى بناء هذا الهرم ٧٥٠،٠٠٠ طنا وقد جعل الملك خوفو مدخل الهرم ناحية الجهة البحرية، وذلك ليرعاه النجم القطبى

الشمالى الذى لا يغيب، وليستمتع باستنشاق النسيم الجميل، وارتفاع هذا المدخل عن الأرض ١٥ مترا، وتحته الفتحة الذى فتحها الخليفة العباسى المأمون للكشف عن سر هذا البناء الذى ظل مجهولا إلى عهده والممر والبئر وغرفة الدفن وهذا الهرم مازال معجزة العصر بما فيه من مقاييس معمارية وفنية وفلكية وحسابية استطاع من خلالها هذا الملك إبطال قوانين الطبيعة حسب ما يريد.

هرم خفرع :

بنى خفرع هرمه وسماه "حر" وتصل أبعاده طول القاعدة ١٥ متراً ويصل ارتفاعه ١٤٣ متراً، وقد استنفذ الملك خوفو والده قدراً كبيرا من الأموال لبناء هرمه الأكبر مما كان شيئا فى أن الملك خفرع ببناء هرمه أقل، ويذكر البعض أن صغر هذا الهرم عن الهرم الأكبر أنه من باب الاحترام لوالده وهذا يؤيده صغر الهرم الثالث عن الهرم الثانى ويرتفع مدخل الهرم فوق هضبة الجيزة بحوالى ٤٥ مترا ولهذا الهرم مدخلان كل منهما يؤدى إلى غرفة الدفن ويوجد بهذا الهرم معبدان بالجهة الشرقية الأول معبد الهرم والثانى معبد الوادى.

وكان هذا الهرم ذو كسوة خارجية من كل الإتجاهات ويوجد بالقرب منه بعض المراكب المحفورة فى الصخر، ويعد هذا المعبد يشبه المصطبة ويوجد بداخله ناووس به تمثال لفرعون ويوجد داخل هذا المعبد من الجهة الشمالية ومن جهة الجنوب تماثيل أبو الهول لحراسة هذين البابين وبعدها يؤدى إلى الدهليز يوصل هذا الدهليز إلى ردهة بها ستة عشر عمود، وكانت هذه الردهة تضاء بفتحات منحرفة من زوايا السقف فيسقط الضوء على الأرض المكسوة بالمرمر فينعكس الضوء ويضيئ الردهة، وكان يوجد أمام هذه الردهة ٣٢ تمثال للملك "خفرع" إلا أن هيئة الآثار قد نقلت بعض هذه التماثيل إلى المتاحف المختلفة

وكان هذا المعبد قد شيد داخل الهرم من حجارة المرمر والجرانيت والديورين والحجر الجيرى، وكان المعبد به طريق للوصول والدخول إلى عبادة المتوفى وكل ما تحتاجه هذه العبادة.

كما يوجد بهرم "خفرع" معبد جنازيا وهو مهدم، ويوجد بالجهة الشرقية من الهرم وبه منزلق يصل إلى قدس الأقداس ولهذا المعبد بهوان أحدهما أكبر من الآخر يؤدى ويصل بينهما سرداب ويصلان إلى الساحة المكشوفة وحوائطه عليها مجموعة من النقوش الملونة والجانب الغربى من هذا المعبد يؤدى إلى خمس حجرات تتصل أحدها بباب وهمى والآخر بعدة تماثيل للملك هذا من جهة الغرب.

هرم منقرع:

وقد سماه "أور" وهو الهرم الثالث وارتفاع هذا الهرم ٦٦ متراً أما الطول والعرض فهو حوالى ١٠٦ متراً وقد مات الملك منقرع قبل أن يستكمل بناء هرمه، ويبلغ ارتفاع هذا الهرم نصف ارتفاع الهرم الأكبر ومازال هذا الهرم يحتفظ بقدر كبير من الكسوة الخارجية وكانت من أعلى من الحجر الجيرى ومن أسفل من الجرانيت الأحمر، وباب هذا الهرم فى الجهة البحرية وقد كسيت أرضية هذا الهرم بالجرانيت، ويؤدى المدخل إلى غرفة خزينة بمربعات منحوتة فى الصخر وبهذه الغرفة ممر يؤدى إلى غرفة تصل إلى ١٠ × ٤ أمتار وكان الهدف من إقامة هذه الغرفة هو تضليل اللصوص وكان بهذه الحجرة تابوت من البازلت بديع الشكل وغطائه عليه عدة نقوش وقد وجدت الجثة فى الممر، وهى الآن بالمتحف البريطانى . أما المعبد الجنازى لهذا الهرم كان مبنى بالطوب اللبن إلا أنه لم يستكمل ويوجد بهذا المعبد ثلاث أهرام صغيرة منقوش على أحدها إسم الملك "منقرع".

وعلى كل من الأهرام الثلاثة معبدين الأول المعبد الجنازى، والثانى معبد الوادى، وكان يوجد بين هذين المعبدين طريق أو نفق ليصل بينهم وهذه أقدم الأنفاق التى عرفها التاريخ وهذا دليل التقدم فى كل المجالات وقد اتخذ تمثال أبو الهول وهو عبارة عن جسم أسد ووجه إنسان ليكون حاميا للمعابد وحامى للبوابتين الشرقية والغربية المؤدتين إلى دار الأبدية، وكان بعض تماثيل أبو الهول توضع متجه إلى إله المدينة، وكانت كل تماثيل أبو الهول تحمل وجه إنسان إلا تمثال أبو الهول من الأسرة الثامنة عشرة، وهو يحمل وجه الملكة "حتشبسوت" والموجود بالمتحف المصرى.

أما تمثال أبو الهول بالأهرام الذى يدل على أن الملك جالس لعبادة الإله ليعبد الشمس وهو مثل لإله الشمس "حورأختى" وذلك يدل على حوريس بأن الشمس شرقه وهو منحوت من صخرة واحدة ويصل ارتفاعه عشرين مترا وطوله ٤٦ مترا وعرض وجهه أربعة أمتار وارتفاع الأذن متر وثلث ارتفاع الأنف متر ونصف وعرض الفم متران ونصف ويوجد على رأسه بقايا تاج وبقية من الحية (رمز الملكية) ويوجد أثر للحية الذى سقطت وحفظت بالمتحف المصرى.

وقد غطت الرمال هذا التمثال فى عهود كثيرة مثل عهد تحتمس الرابع، وفى عهد البطالمة والرومان وكانت آخر هذه التغطيات الرملية عام ١٨١٨م وقد أزيح هذه الركامات الرملية ثم تولت هيئة الآثار ذلك مع العناية بالترميمات وذلك تقديرا منها لهذه الآثار التى ورثها عن الأجداد لتكون شاهدا على ما وصلوا إليه من قمة الحضارة وعصور النهضة التى عاشها هؤلاء القدماء بكل ما وصلوا إليه، وعجز العالم اليوم عن كشف أسراره واستكمال الاكتشافات العظيمة لهؤلاء القدماء العظماء.

الأسر الفرعونية الثلاثون

الأسر الفرعونية وأهم الملوك :

١- عصر ما قبل التاريخ وهو ماقبل عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد وهو ينقسم إلى قسمين :

الأول عصر البدارى.

والثانى عصر ما قبل الأسرات.

الدولة القديمة

الأسرة الأولى والثانية :

وتبدأ هذه الدولة من عام ٣٢٠ قبل الميلاد إلى عام ٢٤٢٠ قبل الميلاد وهما عصران :

١- العصر القديم وهو العهد الذى حكمت فيه الأسرتان الأولى والثانية، وهو بعد توحيد القطرين القبلى والبحرى تحت قيادة الملك نرمر "مينا"، وجعلت العاصمة منف أو الجدار الأبيض وقد ظهر فى هذا العصر عبادة العجل أبيس ومن أشهر ملوك هذه الأسرة هو الملك "مينا" والملك "عحع" والملك "زت" ومن أشهر ملوك الأسرة الثانية الملك "حتب سخموى" و"رع نب" و" نى نشر".

الأسرة الثالثة : ٢٧٨٠ قبل الميلاد :

من أشهر ملوك هذه الأسرة الملك "زوسر" الذى بنى الهرم المدرج الكبير القائم الآن بسقارة وهو كان بداية عصر الأهرام وحارب ليبيا وظهر وزيره البارع "امحوتب" الذى ألهه اليونان فيما بعد ومن أشهر ملوك هذه الأسرة "خع سخموى" والملك " زوسر".

الأسرة الرابعة :

أسس هذه الأسرة الملك سنفرو ٢٧٢٠ قبل الميلاد وكان صاحب عناية ومهارة فى بناء السفن الكبيرة وقد اتسع تبادله التجارى مع الفينيقيون وخصوصا خشب الأرز من لبنان، واستخرج النحاس من مناجم سيناء وغزا بلاد النوبة وبنى الملك سنفرو هرمه المدرج بميدوم وهرما كاملا بدهشور وظهرت فى عصره مصاطب الأشراف وكانت العمارة لها شأن كبير حتى بنيت الأهرام الثلاثة بالجيزة.

ومن أشهر ملوك هذه الأسرة :

الملك "سنفرو"، و"خوفو"، "خفرع"، "منكاوورع"، "شبسكاف" والملكة "خنت كاوس".

الأسرة الخامسة :

بعد إن ضعفت الأسرة الرابعة بسبب تدخل الكهنة فى عين شمس فى شئون الدولة السياسية والذين تمكنوا بعد ذلك من إسقاط ملوك الأسرة الرابعة وأشهر ملوك الأسرة الخامسة هم "أوسر كاف"، و"سحورع"، "أسيس"، "أونانسى"، "نفر إ كارع"، "نى أوسرع" ، وكان ملوك هذه الأسرة ذات نفوذ حتى أنهم وصلوا إلى بلاد "بون"، واستخرجوا المعادن من وادى الحمامات بسيناء وظهرت فى عهدهم عبادة الإله "رع" إله الشمس فى مدينة "هليوبوليس" وأشهر أعمال هذه الأسرة بعض النقوش الجميلة والتى نسميها "متون الأهرام"، وتقدموا فى كافة المجالات.

الأسرة السادسة :

استقر النظام السياسى فى عهد هذه الأسرة منذ بدايتها عام ٢٤٠٠ قبل

الميلاد كما أن العديد من الأقاليم قد نالت استقلالها وصار كل من يدفن بأرضه بعد أن كانت العادة أن يدفنوا حول مقابر الملوك، وقد اتسعت هذه الأسرة إلى بلاد النوبة وتأديب قبائل الشمال خصوصا فى سيناء وحفروا قناة عند الشلال وتولى الملك "بى الثانى" عرش هذه الأسرة وعمره ست سنوات وبقى على العرش حتى تخطى المائة عام . ومن أشهر ملوك هذه الأسرة الملك " بى الأول" ، "بى الثانى؛، "مر إن رع"، وقد تدهورت هذه الأسرة وضعفت فى آخر عهدها لكن ملوكها قد شيدوا الأهرام بسقارة والتى عليها بعض نقوشهم.

عصر الظلام :

وقد بدأ هذا العصر من عام ٢٢٧٠ قبل الميلاد إلى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وكانت أهم سمات هذا العصر التفكك والتقسيم إلى دويلات وولايات يحكم كل منها أمير، وكان هذا الأمير يرسل بالخراج إلى الملك وظلت منف "الأقصر" هى العاصمة برغم هذا التفكك حتى أيام الأسرة السابعة والثامنة . أما التاسعة والعاشرة فقد نقلت العاصمة إلى جنوب الفيوم، وكان أشهر ملوك هذا العصر فى عهد الأسرة السابعة والثامنة "نفر كارع" و" نفر كاووحور"، وكانت زيام هذه الملوك أيام حروب داخلية وفوضى وكان أشهر ملوك الأسرة التاسعة والعاشرة هم الملك "خيتى" و" سرى كارع".

الدولة الوسطى :

تبدأ هذه الدولة منذ عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد وحتى عام ١٧٠٠ قبل الميلاد أى مع بداية الأسرة الحادية عشرة. وقد كانت بداية الأسرة الحادية عشرة ذات عصر يزدهر فى مجالات العمارة وقد جعلوا العاصمة "طيبة" وقد اشتهر ملوكهم باسم "الأنتفيون" وجاء بعدهم "المنتوحتبيون" وقد شيد آخر ملوكهم هرماً ومعبداً جنازياً بالأقصر وقد تميز عهدهم بالإزدهار والانتعاش.

الأسرة الثانية عشرة :

كان عهد الأسرة الثانية عشرة هو أزهى عصور الدولة الوسطى التى أسسها "أمنمحيت " الأول والذي اشتهر بالسياسة والدهاء، ونقل العاصمة إلى مدينة الفيوم "اللشت" وقام بتوصيل النيل بالبحر الأحمر وأقام القلاع والحصون ومقياس للنيل بجهة "سمنة" ووصال بعده "أمنمحت الثالث "و "سنوسرت الأول" وازدهرت العلوم والآداب والفنون والزراعة والتى تميزت هذه الفترة بعبادة الإله "آمون" بالأقصر وظهرت فى أواخر عهد هذه الأسرة كتاب الموتى " كتاب دينى" وبنى ملوك هذه الأسرة الأهرام بدهشور واللاهون، واللشت بالفيوم، وظلت هذه الأسرة تتمتع بالإزدهار حتى الأسرة الثالثة عشرة والتى أخذت مصر فى الضعف والانقسام بين الأمراء.

عهد الظلام الثانى :

يسمى عهد الأسرة الرابعة وحتى الأسرة السابعة عشرة هو عصر الظلام الثانى والذى يبدأ من عام ١٧٠٠ قبل الميلاد إلى عام ١٥٥٥ قبل الميلاد وذلك لأن هذه الأسرات كانت أشهر سماتها الشقاق والإضطراب مما جعلها تسهل أمام الفاتحين الأجانب، وكان ذلك سبب فى إغارة الرعاة "الهكسوس" عليهم والتى اتخذوا من الزقازيق "أواريس" عاصمة لهم وظل الوضع بكل سماته السيئة حتى جاء ملوك الأسرة السابعة عشرة والذى أتم أحمس والشعب المصرى من حوله طردهم ونيل الاستقلال بعد أن دمروا معابد المصرين وخربوا البلاد.

المملكة الحديثة :

وينقسم هذا العهد إلى الامبراطورية وهو يبدأ من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين.

والعهد الثانى من الأسرة الحادية والعشرين إلى الأسرة الثالثة والعشرين وهو مدة حكم صا الحجر وتل بسطة .

الأسرة الثامنة عشرة:

كانت بداية هذه الأسرة مع بداية عام ١٥٥٥ قبل الميلاد. وكانت أهم سمات هذه الأسرة اتساع النفوذ بعد تأسس "أحمس الأول" هذه النهضة الحربية والقضاء على نفوذ الكهنة والأمراء وكانت عاصمته طيبة "الأقصر" وضم سوريا وفلسطين إلى مصر حتى وصل بفتوحاته إلى نهر الفرات شرقاً وآخر شلالات النوبة جنوباً.

وكانت مصر وقتها أقوى وأغنى بلاد العالم وكان من أشهر ملوك هذه الأسرة "تحوتمس الأول" والذى شيد لنفسه مقبرة فى وادى الملوك، "وتحوتمس الثالث" والملكة "حتشبسوت"، و"إخناتون" الذى عبد إله واحداً، "وتوت عنخ أمون"، وقد شيد فى عهد هذه الأسرة معبد الأقصر ومعبد الكرنك وأبيدوس وتل العمارنة وأقيمت العديد من التماثيل والمسلات وكان أشهر المهندسين "أمنحتب بن حابى" ولكن كان آخر ملوك هذه الأسرة ضعاف وأشهرهم "اخناتون" الذى انشغل بالدين والفلسفة عن أحوال البلاد مما كان سبب فى ضعف البلاد وفقد أملاكها الواسعة فى بلاد آسيا.

الأسرة التاسعة عشرة:

يعد مؤسس هذه الأسرة هو "حار محاب" والتى كانت مع بداية عام ١٣٥٠ قبل الميلاد والذى أصلح الفساد الذى حل بالأسرة السابقة وكان من أهم ملوك هذه الأسرة "رمسيس الأول"، "رمسيس الثانى" الذى تأثر "بتحوتمس الثالث" خصوصا فى مجال السياسة الحربية وكان من أشهر ملوك هذه الأسرة

الملك "مربنتاح"[1] والذى قيل أن سيدنا موسى خرج ببنى إسرائيل من مصر فى عهده وقد كان لهذه الأسرة نزاعات حربية مع أهل ليبيا والنوبة والحيثيين وعقدت معاهدات صلح مع الحيثيين واهتموا بالمعابد والمبانى وازدهرت مصر واتسعت أملاكها فى آسيا.

الأسرة العشرون:

تسمى هذه الأسرة بأسرة الرمسيسية، وذلك لأن كل واحد من ملوك هذه الأسر كان يسمى رمسيس وكان من أهم ميزات هذه الأسرة النزعات والحروب مع ليبيا والشمال بالقرب من البحر المتوسط، وقد ظهر فى عهد هذه الأسرة الجنود المرتزقة وقد تمكن كهنة هذه الأسرة من فرض نفوذهم حتى وصلوا إلى العرش حتى جاء رمسيس الثالث الذي تصدى لكل هذه الاضطرابات.

الأسرة الحادية والعشرون:

تبدأ هذه الأسرة عام ١٠٩٠ قبل الميلاد وكان من أبرز سمات هذه الأسرة هو النزاع بين الكهنة والملوك فى النفوذ السلطانى ولكن بعد موت رمسيس الثالث عشر انتزع الكاهن "حرحور" الملك ثم تلاه من بعده الكهنة وحكموا طيبة وزادت قوة الليبين زيادة كبيرة.

الأسرة الثانية والعشرون:

يعد مؤسس هذه الأسرة هم ملوك تانيس "صا الحجر" وملوك تل بسطة[2] وكانت من أهم سمات هذه المحافظة على جثث الموتى والمحافظة عليها

(١) وقيل أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى ، وقيل هو أوزوريس حيث ثبت أنه مات غريقاً كما فى أسطورة إيزيس وأوزوريس.

(٢) تل بسطة اكتشف أنه مدفون به ١٧ ألف قطة وكان الفراعنة يعبدون القطط من جملة ما يعبدون وكلمة بسطة معناها القطة.

من اللصوص ثم جاء بعدها العهد المتأخر.

العهد المتأخر :

يبدأ هذا العهد مع بداية عام ٦٦٣ قبل الميلاد وينقسم هذا العهد إلى عهدين العهد الأول هو العهد النوبى والعهد الصاوى.

وتعد الأسرة الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون والسادسة والعشرون هم الذين يطلق عليهم هذا العهد المتأخر وذلك بسبب إهمال شئون البلاد وظهور جماعات اللصوص وغزو بلاد النوبة وأشهر ملوك هذا العهد هو الملك "بعاننحى" الملك الأيتوبى أو النوبى ومن أشهر ملوك هذه الأسرة هو الملك سباكون النوبى.

الأسرة السادسة والعشرون وعصر النهضة :

تعد بداية الأسرة السادسة والعشرون هى بداية عصر النهضة وذلك بفضل مؤسسها "بسماتيك الأول؛ الذى اتخذ مدينة سايس "صا الحجر" قاعدة تجارية للتجارة الواردة من بلاد النوبة وفلسطين وسوريا والفينيقية كما أن ملوك هذه الأسرة قد غزوا بعض هذه البلاد، وقد خالق هذا الملك الإغريق للإستعانة بهم على الفرس ومن أشهر ملوك هذه الأسرة "نحاو"، "وبسماتيك الثانى"، "أبريس".

العهد الفارسى والمنديس :

يبدأ هذا العهد عام ٥٢٥ قبل الميلاد وهو العهد الذى يضم الأسرات السابعة والعشرين إلى الأسرة الثلاثين.

الفتح الفارسى عام ٥٢٥ قبل الميلاد.

الفرس هم أمة شرقية ذات حضارة قديمة بعد أن استقل بهم كورش عام ٥٥٠ قبل الميلاد عن الميدينين وأسس دولة الفرس، وفتح العديد من البلا

واستولى على بلاد ميديا وليديا ثم، استطاع بعد ذلك التغلب على البابليين حتى كانت دولته تمتد من شاطئ البسفور غربا إلى نهر السند شرقا ثم جاء بعده قمبيز الذى استولى على البنجاب والهند وشمال اليونان وفتح مصر بمساعدة اليونانيين ثم قرطاجنة وواحة آمون "سيوة" وبلاد النوبة.

ولكن فشل فشمت فيه المصريون فاستولى على مملكتهم وأساء إليهم وقتل العجل أبيس الذى عبده المصريون فى يوم عيد لهم وتولى بعده بعد وفاته "دارا الأول" الذى أظهر حبه للمصريين فبنى معبد لآمون بالواحات الخارجة وفتح مدارس للكهنة بسايس ولكن المصريين قد تحالفوا مع الإغريق عليه وخرجوا عن طاعة الفرس وطردوهم من مصر عام ٤٨٦ قبل الميلاد ولكن خلفه "أرجز رسيس" الذى غزا مصر واستردها بعد ذلك.

الأسرة الثامنة والعشرون :

لم يكن لملوك هذه الأسرة نشاط مثل الأسر السابقة إلا أن ملكها "امرتوس" هو الذى طرد الفرس من مصر.

الأسرة التاسعة والعشرون :

كانت هذه الأسرة مدة سيطرتها عشرين عاما وكان ملوك هذه الأسرة مهددين بغزو الفرس، وكان من أهم سمات هذه الأسرة الصراع على العرش بين ملوكها وإخوانهم.

الأسرة الثلاثون :

كانت بداية هذه الأسرة عام ٣٧٨ قبل الميلاد بسمنود، ومؤسسها هو الملك "نحتبنو الأول"، ولم تعرف مصر الانتعاش إلا قليلا، وقد أقيم فى عهد هذه الأسرة معبداً للإله حورس ومعبد آخر له بأنس الوجود وأدفو والكرنك.

وكان ملوك هذه الأسرة فى حروب دائمة وصراعات داخلية وصراعات مع الفرس الذين عادوا إلى مصر مرة ثانية فى عهد آخر فراعنة مصر الملك "نحتبنو الثانى".

العهد الإغريقى والرومانى :

١- غزو الإسكندر لمصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد.

٢- عهد البطالمة عام ٣٠٥ قبل الميلاد.

٣- عهد الرومان عام ٣٠٠ قبل الميلاد.

٤- العهد البيزنطى والقبطى.

وفتح العرب لمصر عام ٦٤٠ ميلادية.

أهم الحرف والصناعات

أهم الحرف والصناعات :

لقد بلغت قمة حضارة القدماء بأن عرفوا العديد من الصناعات القديمة التى مازال الإنسان فى عصرنا هذا لا يستغنى عنها ومن هذه الصناعات :

١- صناعة الفخار :

كانت زوجة المصرى القديم تعاونه فى أعماله وخصوصا صناعة الفخار التى كان يقيمها المصرى القديم فى حوش منزله، وكان القدماء يصنعون القلل والأوانى والجرات من الفخار، وكانوا يحضرون خام الفخار من طين نهر النيل وكانت هذه المصنوعات الفخارية توضع بقرص يديره الرجل ويقدمه مع كتلة من الطين وأثناء دورانه يمكن تشكيل ما يريد تشكيله.

ثم يقوم بعد ذلك بحرق هذه الأوانى فى نار حامية حتى يمكن لها أن تكتسب قوة وصلابة، وكان المصرى القديم حريصاً على تعدد ألوان هذه المصنوعات الفخارية ونقش بعض الصور والرسوم على هذه الأوانى التى لا غنى عنها حتى الآن.

٢- صناعة الطوب :

كانت صناعة الطوب من أهم الصناعات القديمة التى عرفها المصرى القديم فى منف لإعداده للبناء وكانت هذه الصناعة تقام فى الهواء الطلق وتحت لهب الشمس، وكان المصرى القديم يقوم بمزج الطمى بالتبن والماء وخلطه جيداً ووضع هذه العجينة فى قوالب من الخشب حسب الشكل المطلوب.

ثم يترك فى الشمس ليجف ويكون بعد ذلك صالح للإستعمال فى بناء المساكن والمنازل.

٣- صناعة المرمر :

كانت صناعة المرمر من الصناعات القديمة التي عز شأنها عند هؤلاء القدماء فى منف فكانوا يصنعون من المرمر الأوانى المرمرية والرخامية، وكانت تخرج هذه المصنوعات إلى جميع أنحاء العالم، وكانت أوانى العطور تصنع من المرمر وصناع هذه المصنوعات قد مرنوا وتدربوا عليها بمهارة عالية جداً وكان لا يقتنى هذه المصنوعات إلا الملوك وأهل الثراء لتكون لهم زينة فى حياتهم، وفى المقابر فى الحياة الأبدية فى البر الغربى.

أعمال المساحة :

قد عرف القدماء أعمال المساحة وذلك لتحديد الأراضى والمساحات ولتقدير الخراج أو الضريبة عليها ولتحديد حدود كل من هذه الأراضى الزراعية،

وكان الأداة المستخدمة فى أعمال المساحة هى "الحبل" وهذا الحبل به عدة عقد محدد كل منها بمسافات معينة ومعترف بها عند هؤلاء.

بعض المقاييس :

رحلة اليوم براً تعادل (٢٨) كيلو متر.

رحلة اليوم بحراً تعادل (١٣٠) كيلو متر.

رحلة ليلة بحراً تعادل (١١١) كيلو متر.

وكان يقدر عندهم الوزن "بالمن".

وكانت العملة التى تعادل الجنيه هى "طالنط".

الذراع = ٢/١ر١ قدم = ٤٦٣٢ . ٠ من المتر.

باع = ٦ قدم = ١.٨٥٣ متراً.

بليثرون = ١٠٠ قدم ٣٠.٨٨ متراً.

ستاد = ٣٠ ستاد = ٥.٥٦ كيلو متراً.

سخينوس = ٦٠ستاد = ١١.١٢ كيلو متراً.

صناعة الأحجار :

كانت هذه الصناعة من الصناعات التى تحتاج إلى جهد كبير وتحتاج إلى مهارة وبراعة، وذلك لصلابة هذه الأحجار مثل الرخام والجرانيت وكانوا يستخدمون فى ذلك مناشير من النحاس ويضع عليها الزيت والماء بهدف تخفيف شدة حرارتها .

وكانت هذه الأحجار تقطع من أسوان وتنقل إلى منف فى مراكب النيل إلى منف وكانت هذه الأحجار يصنع منها التماثيل والتوابيت لتقام أحداث

الزمان برغم أن أدوات القدماء فى هذه الصناعة لم تتعدا الأزاميل والمطارق فقط.

ورغم هذا قد بلغوا من البراعة والدقة والفن بهذه الصناعة وهذه الحضارة ما لايستطيع العصر الحديث الوصول إليه برغم هذا التقدم الهائل.

صناعة النحاس :

عرف القدماء صناعة الأفران لصناعة المصنوعات النحاسية التى استخرج خامه من صحراء وجبال سيناء، وكانوا يصهرون هذا الخام فى هذه الأفران ثم يصب بعد ذوبانه فى القوالب التى تم تشكيلها على شكل أوانى أو آلات أو أدوات.

صناعة الذهب :

كان القدماء يستخرجون خام الذهب من مناجم البحر الأحمر وكان صناع الصاغة يطلق عليهم أمناء الذهب، وكانوا يقومون بصناعة المصنوعات الذهبية مثل الأوانى والحولى والتيجان الملكية والأمرية لرجال الحاشية وكبار رجال الدولة وكانت خزانة الملك فى منف تحتوى على العديد من هذه المصوغات التى تحكى قصة الحضارة وما وصلوا إليه من دقة وبراعة فى هذا المجال.

تعدد الصناعات :

لقد عرف المصرى القديم كل أنواع الحرف التى يحتاج إليها حتى تكتمل حضارته التى وصل إليها فهذه الصورة تدل على وجود الحفارين والنحارين والراسمين وصناع الجلد والأبنوس وصناعة الزيوت والمواد الدهنية والعطور وصناعة السفن والمراكب.

صيد الأسماك :

عرف القدماء حرفة صيد السمك، وكان صائد السمك يذهب به إلى السوق ولا يعود إلا بعد أن ينتهى من بيع سمكه كما عرف هؤلاء القدماء السمك المجفف.

الزراعـــة :

عرف المصرى القديم زراعة المحاصيل والزهور، وتنسيق الزهور، وإهدائها فى المناسبات السارة والسعيدة، وكان الفلاح يزرع ويقدس الأرض والنيل وجعل لكل منهما إلهاً فقد عرف المصرى القديم زراعة الفول والقمح والشعير والذرة والكتان والعدس والبصل والكرات والثوم والفحل والفواكه والعنب وغيره من الفاكهة.

والجميز والنخيل والخرنوب والصفصاف والسنط والبردى والبلح والتين والزنبق.

صناعة الغزل والنسيج :

لم تكن صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الحديثة بل هى من الصناعات القديمة التى عرفها هؤلاء القدماء، وكانت مهنة غزل الملابس تقوم بها السيدات بالمنازل .

وقد ورثوا هذه المهنة عن أبائهم بمهارة ودقة وكانت الملباس تغزل من الكتان الذى يزرع فى حقول منف الواسعة، كما أنهم عرفوا غزل الصوف، وصناعة الأكلمة حتى أن كل معبد كان يقام به مصنع للكتان وذلك لحاجة الكهنة إلى قماش لعمل أكفان الموتى عند التحنيط وهو المعروف بلفائف الموميات.

الأسواق والتجارة :

كانت الصناعة تحتاج إلى مهارة وبراعة ودقة وقد كان المصرى القديم اهتم بكل فنون الصناعة التى وصل بها إلى قمة الحضارة فقد عرف المصرى القديم الحرف المختلفة والكثيرة والتى كان يقوم بعرضها من خلال المتاجر والأسواق لبيعها بطريقة المقايضة.

* * *

المؤلف فى سطور

بكر محمد إبراهيم .

* مواليد السيدة زينب بالقاهرة .

* واعظ ورئيس أنصار السنة ـ سلفى العقيدة

* صدر له أكثر من ٥٥٠ كتاباً .

* عضو اتحاد الكتاب .

*** **أساتذته :**

تتلمذ على يد كثير من العلماء أمثال الشيخ إبراهيم جلهوم ، والشيخ محمد عبد المطلب صلاح خطيب الأزهر الأسبق ، والشيخ إسماعيل صادق العدوى خطيب الأزهر السابق ، والشيخ الشعراوى ، وكثير من علماء الجمعية الشرعية وأخيراً علماء أنصار السنة ، ومنهم الشيخ فتحى عثمان ، والشيخ أحمد فهمى ، والشيخ أحمد غريب ، والشيخ حسن البنا ، والشيخ أحمد سالم، والشيخ صفوت نور الدين ... وغيرهم .

* قام بنشر دعوة الإسلام بمدينة السلام ، ومصر الجديدة ، ودار السلام، والسيدة زينب .... وغيرها من الأحياء .

* يكتب فى مجلة التوحيد التى تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية ، يقوم بإلقاء دروس فى علوم التاريخ الإسلامى والتفسير والعقيدة والفقه فى المساجد المختلفة .

* وله مؤلفات فى الشريعة والفقه والحديث والتفسير والتاريخ والسياسة والأدب واللغة .... وغيرها .

* بدأ فى الخطابة فى مساجد القوات المسلحة منذ ثلاثين عاماً.

* له تلاميذ كثيرون أخذوا عنه العلم .
* والده ـ رحمه الله ـ من مواليد محافظة الغربية ، وكان يعمل بالتجارة.
* يعمل مدير إدارى باحدى الوزارات .
* مقيم حاليا بمدينة السلام .

اصداراته لمركز الراية للنشر والاعلام

١- موسوعة التاريخ الإسلامى ـ صدر منها حتى الآن [الدولة الأموية ـ الدولة العباسية ـ الدولة العثمانية ، وجارى استكمالها إن شاء الله].
٢- قصص القرآن ـ موسوعة .
٣- وصايا قيمة من الكتاب والسنة .
٤- بكاء العمرين ـ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ـ مجلد .
٥- ١٣٥ قصة من قصص الصالحين .
٦- التداوى بالأعشاب.
٧- عمر بن الخطاب ـ مجلد .
٨- نوادر الظرفاء .
٩- برمودا والشيطان ـ مجلد .
١٠- قصص بنى إسرائيل فى القرآن والتوراة والتلمود .
١١- تاريخ العرب عبر القرون .
١٢- أباطرة التاريخ ـ ج١ ، ج٢ .
١٤- من قصص القرآن للأطفال .

تحت الطبع :

١- موسوعة الأسرة ـ مجلد .
٢- تاريخ الفراعنة ـ ج١ ، ج٢.

٣- عجائب وغرائب الفراعنة

٤- الأسرار الخفية فى حياة الفراعنة .

٥- سقوط ١٥ إمبراطورية عبر التاريخ .

٦- من روائع التراث الجنسى عند العرب .

٧- السحر العجيب فى اللبن الحليب .

٨- من عجائب ماء زمزم .

٩- من عجائب صلاة الاستخارة .

١٠- مثلث برمودا والأطباق الطائرة

١١- موسوعة التداوى بالأعشاب

١٢- السيدة فاطمة الزهراء .

١٣- السيدة خديجة أم المؤمنين .

١٤- أخطر ١٠ قادة فى التاريخ .

١٥- حروب غيرت مجرى التاريخ .

١٦- عجائب صلاة الفجر .

١٧- غرائب وعجائب الشعوب .

١٨- الحضارات القديمة .

١٩- تاريخ الجزيرة العربية - ج١ ، ج٢ ، ج٣ ، ج٤ .

٢٠- عجائب وغرائب الحيوان .

٢١- موسوعة البلدان .

٢٢- أشهر الأحكام القضائية .

٢٣- أشهر المأكولات والحلويات .

٢٤- موسوعة الأسماء ذكور وإناث

الفهرس

الموضـوعـات	صفحة
المقدمة .	٣
طفولة رمسيس الثانى وبيئته الثقافية .	٥
العالم السياسى أيام الرعامسة .	٥
بعض العقبات العائلية (أمام طموحات الأسرة).	٨
انجازات الأسرة .	٩
وريث العرش .	١١
الأمير سيتى وابنه رمسيس فى طفولته .	١١
الخط الملكى الجديد .	١٣
رمسيس الأول .	١٣
سيتى الأول .	١٧
تحقيق الهدف من الحملات .	٢١
الأمير رمسيس ومبدأ عهده بالحروب .	٢٢
الأمير رمسيس نائبا للملك .	٢٨
أحوال البلاط فى عهد سيتى الأول وابنه .	٢٩
الثورة فى الجنوب الأقصى .	٣٢
الأمير رمسيس البناء.	٣٧
الشروع فى تكوين أسرة.	٤٢
المعارك فى الجنوب .	٤٣
وفاة سيتى الأول .	٤٥
الحرب والسلام .	٤٦

تابع الفهرس

الموضـوعـات	صفحة
رمسيس الثاني - الفرعون المطلق .	٤٦
مجلس طيبة الاستشاري .	٤٨
المنشآت الجديدة والترميمات بمعبد أبيدوس .	٤٩
بحث في العقيدة (فلسفة الدين).	٥٣
الذهب في تلال النوبة النائية .	٥٥
مباشرة حرب سوريا .	٥٨
انتزاع النصر من براثن الكارثة .	٦١
رحلة سريعة .	٦١
الوصول المأمون .	٦٣
تحطم الأوهام .	٦٤
الكارثة .	٦٦
الفار مع العار .	٦٨
نهاية المعركة .	٧٠
العودة للوطن في جو عاصف .	٧١
الصراع من أجل سوريا .	٧٤
الاحتفالات والترقيات والانشاءات بأبي سمبل .	٧٤
الصحوة والثورة .	٧٩
العودة لمهاجمة سوريا .	٨١
المأزق السوري .	٨٣
الخروج - حول بني إسرائيل من مصر	٨٤

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة
المغامرة الأفريقية .	٨٨
الجبهة الشمالية الغربية .	٨٨
العودة إلى ارم فى النوبة العليا .	٨٩
السلام (العاصفة قبل الهدوء ـ أزمات الحيثيين) .	٩١
الأزمة الأولى ثورة القصر فى خيتا	٩١
الأزمة الثانية التهديد بالحروب مرة أخرى .	٩٢
الأزمة الثالثة تحلل ملكة هاتيجاليات	٩٤
السلام (التحول المفاجئ فى موقف هاتوسيل) .	٩٥
المعاهدة ـ اقرار السلام .	٩٦
تبادل التهانى .	١٠١
مخلفات الماضى ـ التوتر عقب المعاهدة	١٠٣
العرض الملكى الدولى (المساوامات حول العروس) .	١٠٦
موكب الزفاف .	١١٠
الملكة الجديدة	١١٤
الزيارات الملكية الدولية :	١١٥
أمير التاج (ولى العهد) الحيثى يزور مصر	١١٥
زيارة هاتوسيل الثالث لمصر .	١١٧
العرس الملكى الثانى .	١١٩
الأميرة الجديدة .	١٢٠
الأصداء على مر القرون	١٢٣

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة
موت رمسيس الثانى .	١٢٤
أواخر أيام رمسيس الثانى .	١٢٤
وفاة رمسيس الثانى .	١٢٦
الانتقال إلى دار البقاء .	١٢٧
المقبرة ـ مقر رمسيس الثانى فى الأبدية .	١٣١
الوداع الأخير .	١٣٧
آراء مؤرخى العرب فى أبو الهول العظيم .	١٣٩
عبد اللطيف البغدادى .	١٣٩
المقريزى .	١٣٩
على مبارك .	١٤٠
القضاعى .	١٤٠
آراء الأثريين المحدثين فى أبو الهول الكبير .	١٤١
طراز أبو الهول المختلفة كما ظهرت فى العصور المتعاقبة	١٥٠
تماثيل أبو الهول فى الدولة الحديثة .	١٥٣
الإناث من أبو الهول المصرى .	١٥٦
أبو الهول فى العصر الإغريقى الرومانى .	١٥٩
العصر الرومانى .	١٥٩
ظهور أبو الهول فى آسيا .	١٦١
أبو الهول فى ميسينا واليونان .	١٦٢
أبو الهول فى القرن الإغريقى	١٦٧

تابع الفهرس

الموضـوعـات	صفحة
المغزى الدينى لأبو الهول	١٦٩
أسماء أبو الهول منذ أيام الدولة القديمة حتى فتح العرب لمصر .	١٦٩
الحساب فى الآخرة والسحر .	١٨٨
فصل لمنع قلب الرجل من معارضته له فى العالم السفلى.	٢٠٨
الحياة داخل البيت الفرعونى .	٢١٧
رحلة الأهرام .	٢٢٠
هرم خوفو .	٢٢٢
هرم خفرع .	٢٢٣
هرم منقرع .	٢٢٤
الأسر الفرعونية الثلاثون .	٢٢٦
الدولة القديمة .	٢٢٦
الأسرة الأولى والثانية .	٢٢٦
الأسرة الثالثة .	٢٢٦
الأسرة الرابعة .	٢٢٧
الأسرة الخامسة .	٢٢٧
الأسرة السادسة .	٢٢٧
عصر الظلام.	٢٢٨
الدولة الوسطى .	٢٢٨
الأسرة الثانية عشرة	٢٢٩

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة
عهد الظلام الثانى .	٢٢٩
المملكة الحديثة .	٢٢٩
الأسرة الثامنة عشرة .	٢٣٠
الأسرة التاسعة عشرة .	٢٣٠
الأسرة العشرون .	٢٣١
الأسرة الحادية والعشرون .	٢٣١
الأسرة الثانية والعشرون .	٢٣١
العهد المتأخر .	٢٣٢
الأسرة السادسة والعشرون وعصر النهضة .	٢٣٢
العهد الفارسى والمنديس .	٢٣٢
الأسرة الثامنة والعشرون .	٢٣٣
الأسرة التاسعة والعشرون .	٢٣٣
الأسرة الثلاثون .	٢٣٣
أهم الحرف والصناعات .	٢٣٤
١- صناعة الفخار .	٢٣٤
٢- صناعة الطوب .	٢٣٥
٣- صناعة المرمر .	٢٣٥
أعمال المساحة .	٢٣٥
صناعة الأحجار .	٢٣٦
صناعة النحاس .	٢٣٧

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة
صناعة الذهب .	٢٣٧
تعدد الصناعات	٢٣٧
صيد الأسماك	٢٣٨
الزراعة	٢٣٨
صناعة الغزل والنسيج .	٢٣٨
الأسواق والتجارة	٢٣٩
التعريف بالمؤلف .	٢٤٠
الفهرس .	٢٤٣